الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق
كلية الشريعة

تفسير وتدبّر

سورة النساء

أ.د. محمد عبد الستار السيد

أستاذ التفسير للقرآن الكريم

١٤٤٥ - ١٤٤٦هـ

٢٠٢٣ - ٢٠٢٤م

القرآن الكريم
التفسير الجامع

للشيخ الدكتور محمد عبد الستار السيد

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم معجزة خالدة لكلّ زمان ومكان وعطاؤه متجدّد لا ينفد وكلّما تطوّر العقل البشريّ استطاع أن يستمدّ من القرآن وعلومه مايوافق التّطور العلميّ الذي وصل إليه.

وآيات القرآن الكريم مكتنزة بعطائها العلميّ والفكريّ والروحيّ وهو كتاب هداية فيه إشارات علميّة لايمكن أن تصادم العقل البشريّ في أيّ زمن من الأزمان.

وهذا التّفسير هو محاولة تدبّر لآيات كتاب الله امتثالاً لأمره سبحانه، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[سورة محمد: الآية ٢٤].

متمسّكين بهدي نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وصحبه وسلّم، فهو الذي عليه نزل وبه أخذ وعمل، فقد كان قرآناً يمشي بين النّاس في نهجه وسيرته وسلوكه وهديه وأقواله وأفعاله وبالعلم الذي به أمر ﷺ.

فكان هذا التّفسير الجامع محاولة عصريّة للأخذ من عطاء القرآن الذي لم يفرغ في زمن النّزول وإنّما تعدّى كلّ العصور، ومواكبة لتطوّر العقل البشريّ ومعطيات العلم الحديث في فهم النّص من خلال التّفكّر والتّعقّل والتّدبّر الذي أمر به القرآن (أفلا يعقلون، أفلا يتفكّرون، أفلا يتدبّرون، أفلا ينظرون).

والله وليّ التّوفيق

الشّيخ الدكتور محمّد عبد الستّار السيّد

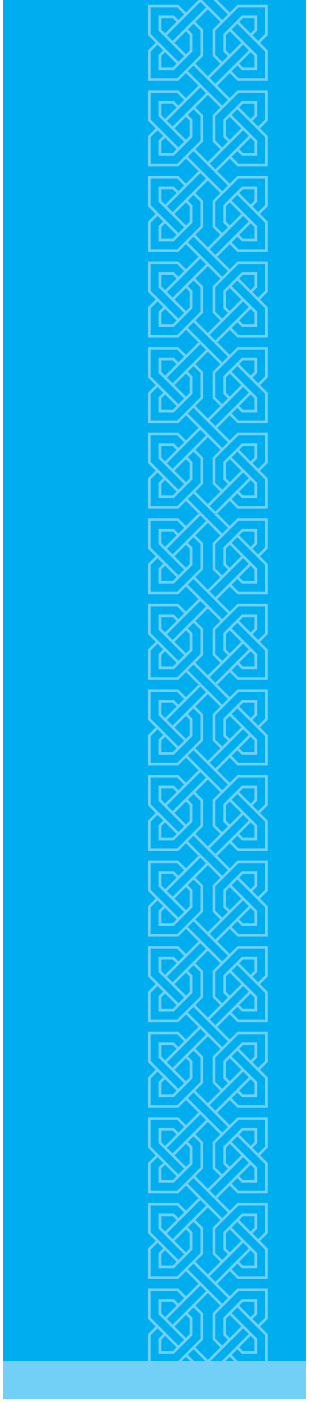

سُورَةُ النِّسَاءِ

تفسير سورة (النساء)

تـأتي هـذه السّـورة رابعـةً بعد (الفاتحـة) و(البقـرة) و(آل عمران) وسـمّيت سـورة (النّساء).

وتعالـج هـذه السّـورة أحـكام المـرأة وأحـكام الأسرة وأحـكام المـيراث وأحـكام الأيتـام، وبنـاء الأسر لا يكـون عـلى الشّـكل الـذي أراده الغـرب لنـا، نحـن نتمسّـك ونعتـزّ بقيمنـا، هـذه القيـم الثّابتـة التـي جـاءت في كتـاب الله وفي سـنّة وهدي سـيّدنا رسـول الله ﷺ، وهنـاك محاولـة عـبر الزّمـن لتضليـل العامّـة حـول أحـكام الشّريعـة الإسـلاميّة المتعلّقـة بالمـرأة.

وسورة (النّساء) ليست السّورة الوحيدة في القرآن الكريم التي تحدّثت عن الأحكام المتعلّقة بالمرأة، ومن يرد أن يتحدّث عن الإسلام يجب أن ينظر إلى ما فعله الإسلام، وإلى الحضارة التي أنتجها والتي أخرج بها البشريّة جمعاء من الظّلمات إلى النّور. ومع الأسف الشّديد فإنّ الكثير من النّاس لا يعرفون الحقائق وذلك لعدّة أسباب:

- منها تآمر الصّهاينة واليهود عبر التّاريخ.
- ومنها تآمر الغرب على هذه الأمّة.
- ومنهـا جهل المسـلمين بدينهـم وبأحكامه، وخلـط بعض العـادات التي دخلت عـلى بلادنـا في فـترات الانحطـاط، والتـي أصبحـت تأخـذ أمـام النّـاس طابعاً إسـلاميّاً متشـدّداً، رغم أنّ الإسلام لا يوجد فيه تشـدّد، وما خُيّر رسول الله ﷺ بـين أمريـن إلّا اختار أيسرهما مـا لم يكن إثماً، فالإسـلام يدعو دائماً إلى الوسـطيّة والاعتدال والسّـماحة واليـسر في الأحكام.

يجب أن نقارن الأمور قبل الإسلام وبعد الإسلام، ومَن أعطى المرأة حقوقها عبر تاريخ البشريّة، نبدأ من هنا لا من عصر الانحطاط ومخلّفاته، فقبل الإسلام كانت كلّ المجتمعات تنكر حقوق المرأة، حتّى في الغرب كانوا لا يعتبرونها من جنس البشر، وكانت في فترة الحيض تُمنع من الأكل مع زوجها، وكانت تُمنع من الميراث، وهذا بشكل عامّ في كلّ المجتمعات، فإذا رأينا كيف أخرج الإسلام البشريّة من امتهان المرأة إلى رفع مكانتها نعرف أنّ أوّل من طالب وأوّل من أعطى المرأة حقوقها هو الإسلام، لذلك نجد في القرآن الكريم سورة تسمّى سورة (النّساء)، المرأة هذه الإنسانة التي يجعلها الإسلام بمصافّ الرّجل في الحقوق والواجبات ويجعلها تتكامل مع الرّجل، أراد الإسلام أن يزيل الحيف والظّلم عنها، فذُكرت في سورة (النّساء) وفي سورة (المائدة) وفي سورة (الأحزاب) وفي سورة (الطّلاق) وفي سورة (التّحريم) وفي سورة (الممتحنة) وفي سورة (المجادلة) وفي سورة (مريم)، فتحدّث القرآن الكريم عن المرأة كما تحدّث عن الرّجل تماماً، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: الآية ١٣].

هناك ظروف اجتماعيّة جاءت الأحكام لتعالجها، وتتدرّج في إخراج النّاس ممّا ألفوه، فلنبدأ بسورة (النّساء) مع كلّ ما يتعلّق بالمرأة والميراث.

الآية (١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: المطالبة بأن نتّقي الله ﷻ الذي يعطي الدّلائل والإثباتات على أنّه هو الخالق: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ وهي نفس آدم عليه السلام، والخلق: هو إيجاد من عدم، وإمداد من عدم، الله خلق وأمدّ النّاس بالماء والهواء والزّرع وكلّ ما نراه.

قال هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾: ولم يقل: (يا أيّها النّاس اتّقوا الله) لأنّه عندما يتحدّث عن الألوهيّة يتحدّث عن الطّاعة، أمّا عندما يتحدّث عن الرّبوبيّة فإنّه

يتحدّث عن العطاء، فالله قبل كلّ شيء هو الذي خلقنا من نفس واحدة، فإذاً أيّ مساواة وأيّ حقوق إنسان يمكن أن تعدل هذه الآية في القرآن الكريم، الذي خلقنا سواسية كأسنان المشط، فلا كبير ولا صغير، ولا أمير ولا مأمور، ولا أبيض ولا أسود ولا أحمر، ولا غنيّ ولا فقير، ولا ضعيف ولا قويّ.. النّاس جميعاً خُلقوا من نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ ﴾ [الكهف: الآية ٥١]، عندما خلق الله آدم لم يُرِ النّاس طريقة الخلق ولكنّه ﷻ أراهم نقض الخلق بالموت، وتحدّث المولى عن خلق الإنسان فقال: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦ ﴾ [المؤمنون: الآية ١٢-١٦]، هذه مراحل تطوّر الجنين وقد ثبت علمياً مصداق كلّ حرف ورد في هذه الآية الكريمة، وعندما نريد أن نتحدّث عن خلق آدم فإنّ الله تعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ﴾ [السّجدة: الآية ٧]، بعد الطّين تمّت التّسوية: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ﴾ [الحجر: الآية ٧]، نحن لم نرَ كيف خلق الله آدم عليه السلام، لكنّنا نرى موت بني آدم، فعند الموت أوّل شيء يخرج منه هو آخر شيء دخل إليه، فتخرج الرّوح أوّلاً وهي آخر من دخل إليه بعد الخلق، وبعد خروج الرّوح تتيبّس الجثّة ثمّ تتحلّل وتصبح طيناً ثمّ يتبخّر منها الماء فتصبح تراباً، فنرى مصداق قول الله تعالى في طريقة خلق آدم.

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾: خلق كلّ النّاس من نفس واحدة، كلّ النّاس ابنثقوا مِن نفس آدم، جاء أبناء آدم ومنهم جاء أبناء وهكذا حتّى توسّعت البشريّة كلّها، فيعود كلّ ذلك إلى نفس واحدة.

ولما كان النّاس جميعاً من نفس واحدة، فلا ينبغي أن يتكبّر أحد على أحد، فلا يوجد أبيض ولا أسود، ولا غنيّ ولا فقير، قال النّبيّ ﷺ: «إنّ الله قد أذهبَ عنكم

عُبِّيَّة الجاهليّة، إنّما هو مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ، النّاس كلّهم بنو آدم، وآدم خُلِق من تراب»[1]، فأيّ مساواة في البشريّة أعظم من هذه المساواة في القرآن وفي سنّة النّبيّ محمّد ﷺ؟!

﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾: خلق منها زوجها من نفس نوعها، فإيّاك أن تعتقد أنّ التّكريم لآدم فقط، بل لآدم وزوجه حواء.

﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾: بثّهم: أي أطلقهم للانتشار، لم يتجمّعوا في مكان واحد، بل انتشر الخلق في الأرض.

لماذا لم يقل كثيرات؟ هذا من إعجاز القرآن الكريم، عبر التّاريخ النّساء في المجتمعات أكثر من الرّجال، فهذا واقعهم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بدأت الآية بـ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، بعد ذلك جاء قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، هناك فارق بين اتّقوا ربّكم واتّقوا الله، ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي يذكّر الإنسان بالنّعم التي أنعمها عليه، والرّبّ هو المعطي والمنعم، والإله هو المطلوب عبادته، إذاً ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: بعد أن تعرّفوا أنّه هو الذي خلقهم وأنعم عليهم أمرهم أن يتّقوه أي يلتزموا بأوامره.

﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾: حين يسأل إنسان إنساناً شيئاً يقول له: بالله عليك، والأرحام كذلك فيقولون: أسألك بالرّحم التي يصل بيني وبينك، لماذا بعد أن تحدّث عن الله قال: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾؟ لقيمة صلة الرّحم، قال ﷺ: «إنّ للرّحم لساناً ذلقاً يقول يوم القيامة: ربِّ صِلْ مَن وصلني، واقطعْ مَن قطعني»[2] لذلك عندما تحدّث الله عن عبادته ذكر بعدها مباشرة الإحسان للوالدين: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب المناقب، باب في فضل الشّام واليمن، الحديث رقم (٣٩٥٥).

(٢) شعب الإيمان: السّادس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في صلة الأرحام، الحديث رقم (٧٩٣٦).

﴿أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: الآية ١٣-١٤]، الأرحام الأب والأمّ والأشقّاء والإخوة والأقارب، فالذي لا يكون فيه خير لأقاربه لا يكون فيه خير لبقيّة النّاس، وهذه الدّوائر في المجتمع أراد الإسلام أن تتكامل، كيف تحافظ على المجتمع إذا كانت الأسرة مفكّكة والأرحام مقطّعة؟ لا بدّ من صلة الأرحام، لذلك لا يقبل الله الصّدقة إن كان لديك قريب محتاج وأعطيت غيره، فلا بدّ أوّلاً أن تغطّي مَن حولك، فلو أنّ كلّ غنيّ أنفق على الفقراء من رحمه لما وجدنا فقراء في المجتمع، والله ﷻ عندما تحدّث عن رمضان قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: الآية ١٨٣-١٨٤]، فإن لم تستطع أن تصوم أطعم الفقير، أطعم المسكين، أطعم المحتاج، وعندما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [الماعون: الآية ١]، من الذي يكذّب بالدّين؟ ماذا يفعل؟ ما هي صفته؟ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون: الآية ٢-٣]، لا يمكن لعاقل على وجه الأرض أن يقول إنّ الإسلام دين إرهاب وتطرّف وقسوة وعنف، بل هو دين اللّطف والرعاية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: الرّقيب: هو الذي ينظر ويتابع، من المراقبة، فلنعلم أنّ الله يراقب كلّ حركة وكلّ خاطرة.

الآية (٢): ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

عندما تحدّث المولى عن النّفس الواحدة وأنّه خلق منها زوجها، كان السّائد في كلّ مجتمعات الأرض أنّ المرأة هي العنصر الضّعيف، فأراد الله أن يغيّر من قناعات البشر ويبيّن أنّ المرأة كالرّجل، وأنّها خُلقت من نفس الرّجل، بعد ذلك أتى إلى الضعف الّذي ينتج عن فقدان أحد الأبوين، الضّعف يكون باليتم فتحدّث عن اليتامى، واليتيم: هو الذي فقد أباه ولم يلق حنان ورعاية الأبّ، أضعف حلقة في

المجتمع تكون حلقة اليتم، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾؛ لأنّه من المعلوم أنّ اليتيم الذي فقد أباه يكون هناك وصيّ عليه، فمال اليتيم يبقى تحت رعاية الوصيّ حتّى يكبر ويصبح في سنّ يحقّ له فيها التّصرّف بأمواله، وهي سنّ الرّشد والبلوغ.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾: طالما أنت وصيّ على هذا المال فقد تهتمّ بماله؛ لأنّك تضمّ مالك إلى ماله، وأنت تحاول أن تدير وتنمّي مال اليتيم فإيّاك أن تتبدّل الخبيث من مالك بالطّيّب من مال اليتيم.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾: يجب أن يكون هناك محافظة كاملة على مال اليتيم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾: حوباً: إثماً كبيراً.

ومن تكريم الله لليتيم أنّ جعل نبيّنا يتيماً، ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضّحى: الآية ٦]، وقال رسول الله ﷺ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه، أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»، وأشار بالسّبابة والوسطى[1].

الآية (٣): ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾

﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾: ألّا تعدلوا، القسط: العدل.

إذا خاف الإنسان ألّا يقسط في اليتامى فما علاقة: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؟ يتحدّث المولى أوّلاً عن حقوق الأيتام، فيجب عليك أن تعطي اليتيم حقّه، وألّا تتبدّل الخبيث بالطّيّب، وأن تكون مقسطاً في حقّه، كذلك الإنسان الذي يريد أن يتزوّج من اليتيمة، قد يريد الزّواج منها من أجل مالها، أو لأنّها يتيمة لا قوّة لها إضافة إلى ضعفها كونها امرأة، جاء الحديث هنا في معرض قضيّة اليتم، وعندما بدأ القرآن الحديث عن النّساء أشار إلى أنّ الوعاء الحاضن للنّفس البشريّة هو المرأة، وهذا من تكريم المرأة.

(١) كنز العمّال: ج٣، الحديث رقم (٥٩٩٤)، كافل اليتيم: الذي يُنفق عليه.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: إن خفت ألّا تقيم العدل باعتبار أنّها يتيمة، أو يمكن أن تأخذ من مالها بعد أن تتزوّجها، اترك هذا الأمر فأمامك متّسع في أمر الزّواج.

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: ما طاب لكم: ما أحلّ لكم؛ لأنّه قال في آيات أخرى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾ [النّساء: الآية ٢٣]، الحديث عن العدل وعن اليتم وعن الضّعف وعن حقوق المرأة واليتيمة، فالمجتمع كان يسلب المرأة حقّها، فاترك هذا الأمر ولا تقع في المحظور، وإن خفت ألّا تكون عادلاً مئة بالمئة مع هذه اليتيمة فتزوّج ما أُحِلَّ لك من النّساء ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾: أُثيرت مشكلة كبيرة حول قضيّة تعدّد الزّوجات، وهذا التّعدّد:

أوّلاً: جاء في معرض الحديث عن اليتامى.

ثانياً: هو إباحة وليس إلزاماً، وهذه الإباحة مقيّدة بالعدل، فأنت لا يجوز أن تأخذ الإباحة (التّعدّد) وتدع الإلزام وهو (العدل)، ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾: أن يتزوّج الرّجل اثنتين وثلاثاً وأربعاً هذه هي القضيّة، قبل الإسلام وفي المجتمعات الغربيّة، كيف كان الوضع بالنّسبة للمرأة؟ كان الرّجل يتزوّج عدداً غير محدود من النّساء، ويمكن أن يكون له خليلات، وكانت المرأة ممتهنة، وهي أداة للمتعة، هكذا كانت المرأة، فالإسلام وضع ضوابط لهذا الأمر، وهذا الأمر يتعلّق بظروف اجتماعيّة معيّنة.

فالإسلام لم يفرض على أيّ مسلم أن يعدّد، على العكس فإنّ الإسلام ضبط شهوات النّاس ولم يأت لإطلاق الشّهوات، ولكنّه يقنّن لكلّ الحالات ولكلّ المجتمعات وفي

كلّ الظّروف، فعندما قيّد بالعدل، والعدل لا يمكن أن يتحقّق إلّا بشروطه، والرّجل إمّا أن يعدّد من أجل الشّهوة وإمّا أن يعدّد لأسباب، وهذه الأسباب قد تكون ضروريّة ولكن عليه أن يحقّق العدل؛ لأنّ الله تعالى قال له: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، الأصل واحدة والتّعدّد مباح لظروف معيّنة، وهنا يجب أن نتوقّف عند موضوع العدل، هناك آية تقول: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النّساء: من الآية ١٢٩]، فقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا﴾ المقصود به عدل القلب، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ويقول: «اللّهمّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1]، إذاً أباح الله التّعدّد بشروطه التي وردت في القرآن، وهناك حالات في المجتمعات قد تحتاج فيها إلى التّعدّد، فالإسلام يقنّن لكلّ الأزمان ولكلّ الأماكن، فلا يقولنّ قائل: هذا نقص في الإسلام، هذا ليس نقصاً، وإنّما النّقص في عدم فهم مقاصد الشّريعة الإسلاميّة وتطبيق أحكام الإسلام والأخذ بالمباحات وترك الملزمات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: عندما جاء الإسلام كان هناك قضيّة مجتمعيّة كبرى في كلّ دول العالم هي الرّقّ، وكان الأسرى يصبحون عبيداً، كما أنّه في كلّ المجتمعات في ذلك الزّمان كانت قضيّة الزّواج لا حدود لها في التّعدّد، والله تعالى بهذه المناسبة يوسّع مصارف عتق الرّقاب؛ لأنّ المرأة التي في مُلك اليمين تصبح حرّة إذا أتاها ولد، وهي حالة موجودة في المجتمعات، والإسلام يقضي على الرّقّ من خلال إباحة الزّواج من مُلك اليمين، الآن في المجتمعات لا يوجد مُلك يمين إذاً لا يقولنّ قائل عن خادمة: إنّها مُلك يمينه، هذا احتيال على شرع الله، مُلك اليمين يكون في مجتمع فيه عبيد ورقّ، ومجتمع تكون فيه حروب ويؤخذ الأسرى عبيداً وجواري، ولكن لماذا هذه الآية لكلّ زمان ومكان؟ لعلّه بعد ألف عام يعود الرّقّ، ما يُدرينا؟! الإسلام لا يقنّن لفترة زمنيّة محدّدة، إنّما لكلّ الأزمان، فهذه القضايا عندما تعالج في الشّريعة الإسلاميّة يجب أن تؤخذ بظروفها وإطارها الزماني والمكاني وأحكامها وإلزامها وإباحتها وحلالها

(١) سنن أبي داود: كتاب النّكاح، باب في القسم بين النّساء، الحديث رقم (٢١٣٤).

وحرامها، وليس الأمر أنه كلّما أراد الإنسان أن يطلق لشهوته العنان يأخذ آية من كتاب الله ويستند إليها.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: ألّا تعولوا: ألّا تتجاوزوا، ولتكونوا عادلين في قيامكم بهذا الأمر، فأمر التّعدّد أصبح واضحاً، فلا يقولنّ قائل: هذا أمر مفروض في القرآن، بل هو إباحة مقيّدة بإلزام العدل.

الآية (٤): ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: الصِّداق: هو المهر.

﴿نِحۡلَةٗۚ﴾: عطاء، هديّة.

فالمهر ليس ثمناً للمرأة إنّما هو تكريم لها، جعل الإسلام هذا المهر نحلة أو هدية تقدّم من أجل أن تدوم مشاعر الحبّ والودّ بين الرّجل والمرأة.

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾: تنازلن عنه أو أعطته جزءاً.

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: هنيء عند الأكل ومريء بنتائج هذا الأكل، أنت قدّمت هذا المهر كهدية وتكريم للمرأة وليس ثمناً لها، والمرأة لا تقدَّر بثمن، فالإنسان مكرّم عند الله: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: من الآية ٧٠]، ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ أي تركن لكم جزءاً منه، فعندما تأخذونه يكون هنيئاً وعند صرفه يكون مريئاً، والطعام المريء: المقبول السائغ.

الآية (٥): ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾

﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: ضعيف العقل يسمّى سفيهاً، وهو مَن لا يستطيع أن يدير ماله في شؤون هذه الحياة، فيكون وليّه هو الذي يدير المال له.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾: التي أنتم قائمون عليها كوصاية أو ولاية.

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾: الرّزق والكسوة مطلوبان فيما يتعلّق بهؤلاء السّفهاء، لكن إدارة المال تكون لمن هو وليّ أو وصيّ.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾: في دين الإسلام ليس هناك إلّا قول المعروف، ولا يوجد إلّا ما هو خير.

الآية (٦): ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: لا تنتظروا أن يصل اليتيم إلى سنّ الرّشد حتّى تختبروه وتدرّبوه على إدارة المال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾: أي أعطوهم الأموال التي كنتم أوصياء عليها لإدارتها قبل بلوغهم سنّ الرّشد.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾: لا تسرفوا بأموالهم أو أن تبادروا بصرفها قبل أن يكبروا ويصبحوا في سنّ الرّشد.

﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: من الممكن أن يكون الذي يدير المال إمّا غنيّاً فالأفضل أن يستعفف ولا يأخذ من هذا المال، أو فقيراً فيأخذ أجراً على إدارة هذا المال بالشّيء المتعارف عليه في المجتمع.

﴿فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: يحفظ المولى ﷻ القضيّة الماليّة بشهادة الشّهود إن أدّيت المال الذي كان تحت ولايتك أو تحت وصايتك لليتيم؛ لأنّه عندما يكبر قد يحاول أحدهم أن يميل به ضدّ من كان وَليّاً له أو وصيّاً على أمواله، فالحفاظ على الحقوق أولى، لذلك فأشهدوا عليهم حتّى يكون كلّ شيء موثّقاً، وهناك شهود على أنّ الوليّ أو الوصيّ قد دفع المال لليتيم.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾: يكفي أنّ الله ﷻ هو الحسيب وهو الرّقيب على هذا الأمر، لا تستطيع أن تحتال بأيّ أمر من الأمور؛ لأنّ الله يعلم السّرّ وأخفى.

الآيـة (٧): ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

مـا أحوجنـا أن نتدبّـر القـرآن الكريم ونـرى حقائق ديننـا الإسـلاميّ العظيم الذي شُـوِّهت معالمـه من خـلال تصرّفـات الإرهابيّـين والتّكفيريّـين الذين أرادوا للإسـلام أن يكـون سـتاراً لجرائمهـم وحقدهـم عـلى الإنسـانيّة وعـلى الأخـلاق وعـلى القيـم، والإسـلام إنّـما جـاء بقيـم ثابتـة وردت في كتـاب الله، وتُسـتنبط مـن كتـاب الله وسـنّة رسـول الله، لا بـدّ لنـا أن نعقلهـا حتّـى نعلـم أنّ كلّ هـذا التّشـويه وكلّ هـذه الأحقاد الصّهيونيّـة المضمـرة عـبر الزّمـن إنّـما نفـذّت مـن خـلال أولئـك المتآمريـن المتربّصين بأمّتنـا، وقـد اسـتخدموا الإسـلام كسـتار للجرائـم فحوّلـوه مـن ديـن اللّطـف إلى العنـف، مـن ديـن العطـاء إلى المنـع، حوّلـوه مـن ديـن جمـع الكلمـة إلى تفريـق البلاد والعبـاد، وبـتروا الآيـات والأحاديـث وشـوّهوا وبدّلـوا معالم الدّيـن، فكان لا بـدّ لنا مـن أن نفـسّر ونتدبّـر القـرآن الكريـم على حقيقـة ما أنزلـه الله بعيـداً عن إسـقاطاتهم المنحرفـة الضّالّـة التـي رأيناهـا، لأكثـر مـن ألف عـام كان العـالم في ظـلام دامس وفي ضلالـة وجاهليّـة عميـاء، فأخرجهم الإسـلام مـن الظّلـمات إلى النّور، وأعطـى المرأة حقّهـا، وحوّلهـا مـن أداة للزّينة واللّهو واللّعـب إلى شريكة في بناء المجتمع والمسـتقبل، وهـذا ما نـراه الآن مـن خـلال هـذه الآيـات العظيمة.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: هذه القسمة مفروضة من الله ﷻ؛ لأنّ المرأة كانت تُمنَع من الميراث.

الآيـة (٨): ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

عنـد توزيـع الأمـوال إذا حـضر بعـض الأقربـاء الذيـن لا يرثـون أو اليتامـى أو المسـاكين فأعطوهـم منـه.

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: لا يكفـي أن تعطـي مـن مـال الله الـذي أعطـاك،

وخصوصاً مال الميراث، بل يجب أن ترفق هذا المال الذي تعطيه بالقول المعروف، يجب ألّا يُتبع المنفق صدقته بالأذى.

الآية (٩): ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

كأنّ الله ﷻ يقول إنّك تستطيع وأنت موجود أن تعطي للضّعاف قوّة من خلال تمسّكك بمنهج الله، والإنسان بطبيعته يخشى على ذريّته، فإذا تعامل مع الأيتام كما أمر الله وأنفق عليهم كان هذا هو الحصن له حين يترك مِن خلفه ذريّة ضعافاً، بدليل ما جاء في سورة (الكهف) عن قصّة الرّجل الصّالح مع سيّدنا موسى عليه السلام: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: من الآية ٧٧]، دخلا قرية وكانا جائعين فاستطعما أهلها فرفضوا إطعامهما، ووجدا جداراً يريد أن ينقضّ فبناه الرّجل الصّالح، فاستغرب سيّدنا موسى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾ [الكهف: من الآية ٧٧]، ففي البيان الذي ورد بعد ذلك في سورة (الكهف): ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: الآية ٨٢]، فصلاح الآباء عاد على هؤلاء الأبناء الأيتام، وهنا من خلال هذه الآية بيّن الله أنّك إذا خفت على ضعاف ذرّيّتك فبتمسّكك بالإحسان إلى الأيتام والفقراء والمساكين واتّباع منهج الله تضمن لهم المستقبل، فضمان المستقبل لا يكون بالمال وإنّما يكون بالقيم والأخلاق، فإذا أخذت بالقيم الإيمانيّة والأخلاقيّة وبالإحسان إلى الفقراء والمساكين واليتامى... إلخ فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾: إيّاك أن تعتقد أنّ المال هو الذي يضمن ضعاف ذرّيّتك من بعدك، الذي يضمنهم هو رعاية الأيتام الذي هو من أجلّ الأعمال، ويكفينا أنّ النّبيّ كان يتيماً وقد قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»،

وأشار بالسّبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً[1].

الآية (١٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾

اليتيم في المجتمع مكفول بمنهج الله، فالذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً يأكلون في بطونهم ناراً، وقد تكون ناراً في الحياة الدّنيا قبل عذاب الآخرة وسيصلَون لا شكّ سعيراً، وهذا تشديد في الوعيد من الله لمن يأكل أموال الأيتام.

الآية (١١): ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾

هنا بدأت الآيات المتعلّقة بأحكام الميراث، وهذه آيات مهمّة جدّاً سنتعامل معها بشيء من العموميّة؛ لأنّ تفصيل أحكام الميراث هو مجال تخصّصيّ، وهو علم خاصّ اسمه علم المواريث أو علم الفرائض.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾: كلّ المشكّكين في الإسلام يرون أنّ الإسلام جعل المرأة نصف الرّجل، ويستدلّون بهذه الآية، ونقول لهم عكس ذلك تماماً، فأكبر دليل على حقوق المرأة هو هذه الآية، بل وأضف إلى ذلك أكبر دليل على أنّ المرأة أخذت أكثر من الرّجل هذه الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، حصّة الأنثى هي الأكثر وهي الأساس، لماذا؟ لأنه لدينا في الحالات التي يوزّع فيها أنصبة المواريث ثلاث وثلاثون حالة تأخذ فيها المرأة أكثر من الرّجل، وحالة واحدة يكون لها نصف نصيب الذّكر، فمن لا يعرف هذا الكلام لا يحقّ له أن يتهجّم على الإسلام.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الطّلاق، باب اللّعان، الحديث رقم (٤٩٩٨).

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾: أي حين لا يوجد ذكور، هذه آيات غاية في الأهميّة تتعلّق بأنصبة المواريث وما يتعلّق بأحكام الأسرة وفي المجتمع، هناك من يعتقد أنّ حقوق المرأة منقوصة في الإسلام ويُطالب بالمساواة، ولو أنّنا عرضنا الإسلام بحقيقته لتفاجأ أولئك النّاس بأنّ الإسلام أعطى المرأة حقوقها كاملة، والدّليل هذه الآيات، فإن كان هناك تقصير في الفهم البشريّ فيجب أن يُسَدَّد، أمّا أن نقول: إنّ التّقصير يتعلّق بالقرآن الكريم أو بالسّنّة النّبويّة، فهذا غير صحيح؛ لأنّ القرآن الكريم أعطى المرأة كامل الحقوق، فإذاً العيب فينا؛ لأنّنا لم نفهم ولم نطبّق الأمر كما جاء في الإسلام بدليل هذه الآيات، فمعظم النّاس يأخذون هذه الآية على أساس أنّها إنقاص من حقّ المرأة، قالوا: للذّكر مثل حظّ الأنثيين، قلنا: المقياس حظّ الأنثيين، المعيار هو حصّة المرأة، هذا يعني أنّ حصّة المرأة هي الأكثر، فهناك ثلاث وثلاثون حالة ترث المرأة فيها أكثر من الرّجل، فهناك الأخت، والأخت من الأمّ، والأخت من الأب، والأمّ، والجدّة، والبنت... إلخ.

الإسلام كرّم المرأة وأعطاها أكثر من الرّجل، سيقال: ما هو الإثبات على ذلك؟ الإثبات:

أوّلاً: هذه الآية.

ثانيّاً: ما روي أنّه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحقّ النّاس بحسن صحابتي؟ قال: «أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أمّك»، قال: ثمّ مَن؟ قال: «ثمّ أبوك»[1]، فضّل الأمّ ثلاث مرّات على الأب، فهل الأمّ أنثى أم لا؟ وهل الأب ذكر أم ليس ذكراً؟ أفضل إنسان يجب أن تبرّه هو الأمّ وهي امرأة، أيضاً بالقرآن الكريم جاء عن الأمّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: الآية ١٤]، فلماذا نأخذ بقضيّة واحدة ونبترها عن بقيّة

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب من أحقّ النّاس بحسن الصّحبة، الحديث رقم (٥٦٢٦).

القضايا؟! أيّ امرأة على وجه الأرض أكثر ما يهمّها علاقتها بأولادها وبرّهم بها.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾: يجب أن تنفّذ الوصيّة وأن توفّى الدّين عن المتوفّى قبل تقسيم الميراث.

﴿لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾: النّفعيّة يحدّدها المولى ﷻ، قد تعتقد أنّ أحدهم هو أقرب وأنفع لك، ولكنّك لا تدري من هو أقرب نفعاً، الآباء أو الأبناء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾: لماذا تذيّل بعض الآيات بقوله: ﴿كَانَ﴾ بصيغة الماضي؟ الجواب: أنّ الله ليس عالم أغيار، فهو ﷻ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فلا يخضع لزمان، فهو جلّ وعلا كان عليماً حكيماً وما زال عليماً حكيماً وسيبقى عليماً حكيماً، وهو خالق الزّمن.

الآية (١٢): ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾

ندع تفصيل الرّبع والثّمن هنا لأهل الاختصاص؛ لأنّها تتعلّق بأحكام المواريث.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾: دائماً من بعد وصيّة أو دين، فلا تستطيع أن توزّع الميراث حتّى تُخرج الحقوق المعلّقة في هذا الميراث.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾: كلالة تعني ليس له أصول ولا فروع، أي ليس لديه أب ولا ولد.

﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾: الأخ والأخت هنا لأمّ؛ لأنّ أحكام الأخوّة لأب تأتي في موضع آخر.

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾: توزيع الميراث بهذا الشّكل لا يمكن أن يأتي منه ضرر؛ لأنّه توزيع إلهيّ وهو فريضة من الله ﷻ.

الآية (١٣): ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾: المقصود إن كانت أوامر فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها، وإن كانت نواهي فلا تقربوها.

الآية (١٤): ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

لا بدّ من الثّواب والعقاب، الثّواب هو الجنّة، والعقاب هو العذاب المهين في النّار.

الآية (١٥): ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾

الفاحشة كما عبّر القرآن الكريم هي الزّنى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣٢].

﴿فَٱسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ﴾: انظروا لدقّة حفظ الأنساب والأعراض، لذلك قذف المحصنات من الكبائر، ولا بدّ من شهادة أربعة أشخاص حتّى لا تصبح الأسر معرّضة للاهتزاز بسبب حقد الحاقدين والمؤذين الذين يحاولون تشويه سمعة النّاس، فالإسلام حرص كلّ الحرص ليس فقط على بناء الأسرة في عقد الزّواج وشروطه واختيار الزّوجة واختيار الزّوج، لكن بعد ذلك المحافظة على العلاقة الزّوجيّة وصيانتها من أن تعتريها الاتّهامات وخصوصاً في أعراض النّساء، فكان التّشديد في هذا الموضوع، وأكبر تشديد في شهادة وردت في القرآن الكريم هو في موضوع يتعلّق بالمرأة.

الآية (١٦): ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

قال العلماء هذه الآية تتعلّق بالالتقاء بين رجلين أي اللّواط، وهذا الأمر محرّم شرعاً كما ورد في نصّ هذه الآية، أو كما قال معظم العلماء في تفسيرها، والله جعل الفطرة السّليمة للإنسان تقبل الالتقاء بين الرّجل والمرأة، وفق القواعد الضّابطة للشّهوات من خلال الزّواج بشروطه، فكما كانت تتحدّث الآيات السّابقة عن اللّاتي يأتين الفاحشة من نسائكم وجعل الضّوابط هي شهادة أربعة لحفظ الأعراض والأنساب، أيضاً حرّم الإسلام الشّذوذ الجنسيّ، والذين يطالبون بتدمير القيم من خلال المثليّة الجنسيّة التي هي السّبب الرّئيسيّ في تفكّك المجتمعات الغربيّة وتفشّي مرض الإيدز وأمراض أخرى، ولا شكّ أنّ الانحلال الأخلاقيّ هو مرض اجتماعيّ وصحّيّ، وهذا ينعكس على كلّ البشريّة من خلال التّخلّي عن القيم التي جاءت بها الأديان السّماويّة، وهي واضحة من ثنايا تعاليم القرآن الكريم، فالمرأة ليست أداة للزّينة وللّهو وللمتعة الجسديّة، وإنّما هي شريكة للرّجل في كلّ شؤون الحياة، ويجب على الإنسان ألّا يدع شهوته تسيّره إلى الحضيض والمهالك، وإنّما الإنسان العاقل هو الذي يستطيع أن يسيّر شهوته ويضبطها وفق الحدود التي حدّدها الله ﷻ.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾: هناك دعوة متكرّرة للإصلاح في المجتمع وهي التّوبة، فإذا تاب الإنسان وأصلح ما أفسد فإنّ الله كان وما زال توّاباً رحيماً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾: توّاب: صيغة مبالغة، فالله يتوب على هذا وعلى هذا، يقبل التوبة الصادقة من كلّ الخلق.

﴿رَّحِيمًا﴾: يرحم الإنسان بألّا يجعله يقع في الذّنب.

الآيـة (١٧): ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾: تكفّل الله بالتّوبة، لكن التّوبة على الله للذين يعملون السّوء بجهالة، فعندما فعل هذه السّيّئات وارتكب هذه المحرّمات كان يجهل العقوبة وقت وقوع المعصية ثمّ تاب.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾: من قريب حدّدها النّبيّ ﷺ بقوله: «إنّ الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[1]، والإنسان لا يعلم الوقت الذي يحين فيه الأجل، لذلك عليه أن يُسارع إلى التّوبة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾: لماذا لم يقل هنا: وكان الله غفوراً رحيماً مادام الموضوع هنا يتعلّق بالتّوبة؟ الله سبحانه وتعالى كان عليماً بصدق الإنسان وبأنّه لم يكن يخطّط لهذه المعاصي عن إصرار، فالله تعالى يقول: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزّمر: الآية ٥٣]، لكنّ الشّرط عندما عمل السّوء عن جهالة في ذلك الوقت تاب من قريب أي قبل أن يغرغر، وكان صادقاً في توبته، هنا تكون التّوبة الصّحيحة ويعفو الله تعالى عنه.

الآيـة (١٨): ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾

﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي أنّه يُكثر من السّيّئات ويصرّ عليها ولا يبالي بالدّعوة المتكرّرة للكفّ عن الخطأ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾: عندما يواجه الإنسان الموت ففي هذه اللّحظات لن يستفيد المجتمع شيئاً من توبته، ولن تكون هذه التّوبة دعوة متكرّرة للإصلاح، وتكون هذه التّوبة إنّما بدرت منه لأنّ الإنسان يعتقد في

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب الرّقائق، باب التّوبة، الحديث رقم (٦٢٨).

هـذه اللّحظـات أنّه فقـد كلّ ما يملك في هـذه الدّنيا وأنّـه راحل عنها، فهـو يقول: إنّي تبـت الآن فعنـد ذلك لا تُقبـل منه.

الآية (١٩): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

يعالج النصّ القرآنيّ كلّ ما يتعلّق بالمرأة من هضم للحقوق، فعندما يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: فإنّه يخاطب من دخل في عقد الإيمان مع الله تبارك وتعالى.

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾: العـادات التـي كانـت موجـودة هـي أنّـه إذا مـات الإنسـان جـاء وليّـه أو ابنـه فـيرث المال ويـرث زوجـة المتـوفّى، فالـوليّ أو الذي يـرث يأخـذ الزّوجة ويضـع عباءته عليهـا فيأخذها ويسـتحلّها لـه أو يزوّجها ويقبض مهرهـا، فكانـت المـرأة سـلعة لذلك قـال المـولى في هذه الآيـة: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾: العضـل: هـو المنـع مـن الـزّواج والتّضييق عـلى المرأة.

فالمـرأة في الإسـلام إذا مـات زوجهـا تدخل في العـدّة فـإذا خرجت من العـدّة يحقّ لهـا أن تتـزوّج، لكنّهـم كانوا يمنعونهـا من الـزّواج، فحـرّم الله ذلك إلّا بحالـة واحدة هي الفاحشـة المبيّنـة والواضحة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: ما أعظم وأروع هذه العبارات النّديّة المتعلّقة بالزّوجة، فالعلاقة والعشرة بين الرّجل والمرأة لا تبنى فقط على الودّ ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ وليس بالمودّة؛ لأنّ المودّة هي الحبّ، فقد لا يبقى الحبّ بين الرّجل والمرأة بعد الزّواج بأعوام، عندما تتعب هذه المرأة وتكبر وتحمل وتلد وتُرضع، هناك شريكان فلا بدّ في خضم الحياة الزّوجيّة أن تحدث خلافات، فالعشرة بين الرّجل والمرأة يجب أن تكون بالمعروف وليس بالمودّة فقط، المودّة ترضي نفسك، أمّا المعروف فترضي غيرك، فعندما تكون العشرة بالمعروف إن كرهت منها خُلقاً رضيت منها خُلُقاً كما قال النّبيّ ﷺ:

«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»[1]، ما أعظم هذا التّعبير، فالمرأة ليست أداة للمتعة الجسديّة فقط، إنّما هي شريكة حياة، فإن اعتراها النّقص في زاوية معيّنة فهناك زوايا كثيرة، والعشرة بين الرّجل والمرأة لا تتعلّق بحالة واحدة وهي حالة العلاقة الجنسيّة، وإنّما هو تكامل وحياة مستمرّة، هي آلام وآمال وأحلام وتربية وعيش ومشاركة في كلّ ما يتعلّق بهموم وشؤون وشجون الحياة والأولاد وبناء الأسرة والعمل، فلا يمكن أن نجعل حظّ المرأة من الحياة المتعة فقط، ولا تُبنى الحقوق على الحبّ، وإنّما تبنى على القيم، وحقوق الزّوجة هي من أهمّ الحقوق بالنّسبة للرّجل، قال رجل للحسن رضي الله عنه: قد خطب ابنتي جماعة، فمن أزوّجها؟ قال: «ممّن يتّقي الله، فإن أحبّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها»، لماذا؟ لأنّ النّبيّ ﷺ قال عن هذا المتّقي أو المؤمن: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»[2]، لأنّ القرآن الكريم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾: أصبحت هناك كراهية نتيجة رتابة الحياة والخلافات، فماذا يقول لك المولى؟ هل يقول لك: طلّقها؟! كلّ هذه العشرة وهذه التّربيّة وهذا التّعب تكون النتيجة أن تطلقها؟ بل قال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

الآية (٢٠): ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قِنطَارًا﴾: القنطار يُطلق على الكميّة الكبيرة من المال، والمراد به هنا المهر.

﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ﴾: يشدّد هنا على حقوق المرأة الماليّة.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: عندما يحدث الكره ويحدث الطّلاق قد يتّهم الزّوج المرّأة بعرضها ويستحلّ مالها، لذلك جاءت الآيات واضحة في ضبط هذا

(١) صحيح مسلم: كتاب الرّضاع، باب الوصيّة بالنّساء، الحديث رقم (١٤٦٩)، فركه يفركه: إذا أبغضه، والفرك: البغض.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الرّضاع، باب الوصيّة بالنّساء، الحديث رقم (١٤٦٩).

الموضوع لصالح حقوق المرأة.

وممّا ذُكِر عن القنطار بالمهور أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه خطب النّاس، فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: «ألا لا تغالوا في صداق النّساء، فإنّه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلّا جعلت فضل ذلك في بيت المال»، ثمّ نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين! أكتاب الله تعالى أحقّ أن يُتّبع أو قولك؟ قال: «بل كتاب الله تعالى، فما ذاك؟»، قالت: نهيت النّاس آنفاً أن يغالوا في صداق النّساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: «كلّ أحد أفقه من عمر» مرّتين أو ثلاثاً، ثمّ رجع إلى المنبر فقال للنّاس: «إنّي كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النّساء ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له»[1].

الآية (٢١): ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

ما أعظم هذه العلاقة المتينة التي ربط الله بها المرأة والرّجل في الزّواج، الإفضاء: الإفضاء اتّصال واسع بينك وبين زوجتك بالأنفاس والطّعام والمعاشرة..

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: الميثاق: هو العهد بين اثنين، إذاً جعل الله عقد الزّواج ميثاقاً غليظاً، لذلك نقول للّذين يتلاعبون بعقود الزّواج وما يتعلّق بها إنّ الله نصّ في القرآن الكريم على أنّ عقد الزّواج هو ميثاق عهد بين اثنين، عهد غليظ قويّ شديد متين، وعقد الزّواج له شروط كما هو معروف، فلا بدّ من الإيجاب والقبول بين الشّريكين، ولا بدّ من المهر، ولا بدّ من الشّهود، ولا بدّ من الإشهار حتّى يكون الأمر واضحاً، لذلك نحن نقول: إنّ عقد الزّواج هو عقد غليظ غلّظه الله تعالى وشدّد عليه حتّى لا يعتريه في أيّ لحظة ضعف ووهن، والنّبيّ بيّن أبعاد العلاقة التي رُبطت بهذا

(١) سنن البيهقي الكبرى: كتاب الصّداق، باب ٢، الحديث رقم (١٤١١٤).

الميثاق الغليظ في حجّة الوداع فقال ﷺ: «أَمّا بَعْدُ أَيّهَا النّاسُ، فَإِنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلَهُنّ عَلَيْكُمْ حَقّاً، لَكُمْ عَلَيْهِنّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ وَعَلَيْهِنّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنّ اللهّ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرّحٍ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنّ رِزْقُهُنّ وَكُسْوَتُهُنّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ خَيْراً، فَإِنّهُنّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنّ شَيْئاً، وَإِنّكُمْ إِنّمَا أَخَذْتُمُوهُنّ بِأَمَانَةِ اللهّ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنّ بِكَلِمَاتِ اللهّ، فَاعْقِلُوا أَيّهَا النّاسُ قَوْلِي، فَإِنّي قَدْ بَلّغْت»[1]، هل هناك تشريع في الدّنيا يعطي الزّوجة هذه الحقوق التي بيّنها النّبيّ ﷺ؟ وعليك أيّها المؤمن أن تعامل زوجتك كما كان النّبيّ ﷺ يعامل زوجاته، قال رسول الله ﷺ «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2]، وكان النّبيّ في عمل أهله في داخل المنزل، وكان يساعد زوجاته في كلّ أمر من الأمور، فهل من الإنصاف أن يهضم رجل حقوق المرأة بعد هذه الشّراكة وهذا الإفضاء الواسع؟!

أيّ قوانين أو تشريعات على وجه الأرض ممكن أن تعطي السّعادة الزّوجيّة وحقوق المرأة أكثر من هذه الآيات ومن هذه الأحاديث النّبويّة الصّحيحة التي وردت عن رسول الله ﷺ؟!

الآية (٢٢): ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

الآن نأتي للمحرّمات بالنّسبة للزّواج، وهي تتعلّق بالفطر السّليمة والخُلق القويم والسّلوك الرّشيد، فالحكم الشّرعيّ هو حكم لصالح الإنسان ولتكريمه، أوّل المحرّمات أن تتزوّجوا ما تزوّج آباؤكم من النّساء إلّا ما قد سلف، أي ما مضى سابقاً، فقبل نزول هذه الآيات إن توفّي الرّجل وكان متزوّجاً يستطيع الابن أن يتزوّج زوجة الأب، وعندما جاء الإسلام حرّم هذا، فزوجة الأب بمثابة الأمّ لا يحلّ له أن يتزوّجها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾: حتّى إنّهم يسمّونه زواج مقت، والولد الذي

(١) سيرة ابن هشام: ج٢، ص ٦٠٣-٦٠٥.

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٣٨٩٥).

يـأتي من هـذا الـزّواج يسـمّونه المقت، فهـذا الأمر حتّـى الفطرة تشـمئزّ منـه، فهو أمر فاحـش وغـير أخلاقـيّ وممقـوت ومرفوض.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾: أي ساء طريقاً.

بعـد ذلـك يعدّد ما يحـرم على الإنسـان من النّسـب وما يحرم مـن الرّضاعـة في هذه الآيـة التّالية:

الآيـة (٢٣): ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

كلّ الأصول والفروع محرّمة، أي الأمّهات وكلّ ما علا من الأصول أمّ الأمّ وأمّ الأب، وبناتكم وهنّ الفروع أي لا يحلّ للإنسان أن يتزوّج من ابنته ولا ابنة ابنته ولا ابنة ابنه هذه الفروع بالتّسلسل، كما يحرم على الإنسان أن يتزوّج من أخواته وعمّاته وخالاته، والنّبيّ ﷺ حرّم الزّواج من عمّة وخالة الزّوجة أيضاً، وبنات الأخ وبنات الأخت.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾: التـي أرضعتك أصبحـت كأمّك، وكلّ ما حُرّم مـن النّسـب حُرّم بالرّضاعـة، أي الأمّ وأمّهـا أي الجدّة، الأمّ وأولادهـا، الأخوات من الرّضاعة أيضاً مـن المحرّمات.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾: أي أمّ الزّوجة.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: بنـت الزّوجـة لا يحـلّ للرّجـل أن يتزوّجها.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾: حلائـل الأبنـاء الذيـن مـن صلـب الرّجـل لا يحـلّ أن يتزوّجهـا، أي زوجـة ابنـه إن طلّقهـا أو مـات عنهـا.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾: لا يحلّ الجمع بين الأختين احتراماً للمرأة.

كلّ ما ذُكر في هذه الآية محرّم بالنّسبة للرّجل، والله ﷻ لا يحرّم أمراً أو يحلّ أمراً إلّا فيه مصلحة، سواء عرفتها أو غابت عنك، وبشكل عامّ إذا كان همك أن تتبيّن الحكمة من الفرض أو من الحلال أو من الحرام في كلّ أمر من الأمور فإنّك تعبد الحكمة ولا تعبد الله الآمر، فما دمنا قد آمنّا بالله فمن جزئيّات ومتطلّبات ووظائف الإيمان أن نؤمن بما أنزله الله تعالى ونؤمن أنّه من مصلحتنا، وأن نقوم به سواء عرفنا العلّة أم لم نعرفها.

هناك بعض الأوامر التي يعطيها المولى لا يجب على الإنسان أن يعلم علّتها حتّى لا يعبد الإنسان العلّة، فإن قلنا: امتنع عن الخمر؛ لأنّ الخمر تؤدّي إلى تشمّع الكبد والمرض فإذا امتنعت ليس إيماناً ولا تعبّداً، بل امتنعت عنه لأنّه يؤدّي إلى تشمّع الكبد، فلا علاقة له بالقضيّة الإيمانيّة.

إن كنت تصوم فقط للصّحة وتصلّي فقط للرّياضة فهذا ليس إيماناً ولا تعبّداً ولا تقرّباً إلى الله، علّة الإيمان هو تنفيذ أمر الآمر، فالأصل إمّا أن نؤمن أو لا نؤمن: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، أنتم لكم الحريّة، فالله تعالى ترك حريّة الاختيار للبشر: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: الآية ٩٩]، الدّين اعتقاد، وليس ثقافة، الدّين عقيدة وأخلاق وقيم وتشريعات وأحكام وضوابط، ويكون عن اختيار وقناعة، وسمّي عقيدة وكأنّك عقدت هذا القلب وربطت عليه فلا يخرج منه الإيمان ولا يدخل إليه الشّرك، فالإيمان له متطلّبات لذلك يعرّف النّبيّ الإيمان في الحديث المشهور عندما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان فأخبره أنّ الإيمان: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[1]، هذا تعريف الإيمان العامّ، ويقول النّبيّ ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، الحديث رقم (٨).

إماطة الأذى عن الطّريق»[1]، حتّى إذا أمطت الشّوكة عن الطّريق ومنعت أذيّة إنسان أو حيوان فهذه شعبة من شعب الإيمان بالله تعالى، الإيمان هو علاقة بين العبد وربّه، فنستطيع أن نفهم على ضوء من هذا قوله لا يجوز لك أن تتزوّج الأختين ولا الخالة ولا العمّة و... وهكذا بالنّسبة للمحرّمات من الرّضاع ومن النّسب ومن المصاهرة التي وردت في ثنايا هذه الآية.

الآيـة (٢٤): ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: المحصنة من النّساء هي التي دخلت في حصن الزّوجيّة؛ أي المتزوّجة، فلا يحلّ الزّواج منها.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: مُلك اليمين هنّ السّبايا في حربٍ مشروعة، ولم يكن الرّقّ سائداً في شبه الجزيرة العربيّة فقط، وإنّما في كلّ المجتمعات، فقد كان العالَم أجمع يعاني من قضيّة العبيد والرّقّ، فجاء الإسلام ليصفّي الرّقّ عن طريق عتق الرّقاب.

وملك اليمين لا يَرِدْ إلّا في حال وجود الرّقّ نتيجة المعارك أو القوانين المتعارف عليها في ذلك الوقت، ولا يستطيع الإنسان اليوم أن يعدّ الخادمة، أو من يُريد، مُلك يمينه. أيستطيع كلّ إنسانٍ أن يضع حكماً شرعيّاً على مِزاجه؟ أم الشّرع يكون كما أراد الله ﷻ وكما بيّن رسوله ﷺ؟!

فمثلاً لا يستطيع أحدٌ أن يأتي بآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النّساء: من الآية ٤٣]، فإن رأى أحداً يصلّي يقول له: انتبه! جاء في القرآن: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فاترك الصّلاة، فهل هذا يستقيم عقلاً؟؟!!

وكذلك الأمر بالنّسبة لمُلك اليمين، فلا يمكن أن تأخذ حكماً من الأحكام

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

المتعلّقة بزمنٍ معيّنٍ، أو إذا كان مُتعلَّق الحكم غير موجود؛ لأنّ الحكم معطّل.

إذاً: لِمَ هو موجودٌ في القرآن الكريم، والقرآن الكريم صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ؟ لا ندري لعلّه بعد ألف عامٍ أو بعد مئة عام سيعود الرّقّ والعبوديّة إلى البشريّة، فهل كان يخطر ببال أحدٍ في العالم أو الدّنيا أنّ ما رأيناه وما نراه من إجرامٍ وإرهابٍ وتطرّفٍ وذبحٍ وقتلٍ أن يحدث تحت شعاراتٍ إسلاميّةٍ أو دينيّةٍ؟ لم يكن أحدٌ يجرؤ أن يتخيّل أو يتوقّع هذا الأمر، فالإسلام والشّرائع والأحكام لا تأتي على مقاسك ومقاسي ورغبتك ورغبتي، إنّما كما يريد الله ﷻ. وهو الحكيم العليم الخبير؛ الّذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلح له في كلّ زمانٍ.

والقرآن الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: من الآية ١]، من لدن ربّ حكيم، وهو كلامه ﷻ: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصّلت: الآية ٤٢].

فمهما كانت هناك محاولاتٌ لتشويه معالم الإسلام وأحكامه وشرعه، فسيكون مصيرها الفشل؛ لأنّ الله ﷻ تكفّل بحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: الآية ٩].

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: هذا فرضٌ من الله ﷻ.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾: من غير الّذي ورد من كلّ محرّمات النّسب والرَّضاعة والمصاهرة والمتزوّجات.

﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾: لا بدّ من دفع المهر، والمهر هو عبارةٌ عن هديّةٍ للزّوجة، وهو نوعٌ من القيم والأخلاق التي تتعلّق بالزّواج.

﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: متعفّفين غير زُناة.

﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾: من تزوّجتم بهنّ فالمهر فريضة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾: لا حرج عليكم إن تنازلت هي عن جزءٍ من المهر ممّا اتّفقتم عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: وهو عليمٌ حكيمٌ وسيبقى عليماً حكيماً.

الآيـة (٢٥): ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿طَوْلًا﴾: قدرةً وغنىً.

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: الحرائر.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ﴾: فليتزوَّج جاريةً شرط أن تكون مؤمنةً.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾: اعملوا على الظَّاهر في الإيمان فإنَّكم مُتعبَّدون بما ظهر والله ﷻ يتولَّى السَّرائر.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾: دينكم واحدٌ، فأنتم متساوون من هذه الجهة، فمتى وقع لأحدكم الضَّرورة جاز له تزوُّج الأَمَة.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾: اخطبوهنَّ إلى ساداتهنَّ.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهنَّ.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: من غير مطلٍ وضررٍ.

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾: عفائف.

﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: غير زوانٍ علانيةً.

﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾: عيرُ زوانٍ سرّاً، أخدان: تعني أخلّاء.

المُسَافِحَة: هِيَ التي تتّبع كُلَّ مَن دعاها، وذات الخِدن: أن تَخْتَصَّ بواحدٍ لا تزني إلَّا معه، والعربُ كانت تُحَرِّمُ الأُولى وتُجَوِّزُ الثَّانية.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: تزوَّجن.

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾: بزنا.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: أَي: الحدِّ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أَي: نكاح الأَمَة.

﴿لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾: لمن خاف أن يزني بسبب غلبة الشّهوة فيلقى العنت، وهو الحدُّ في الدُّنيا والعذابُ في الآخرة.

إذاً: أَباحَ الله ﷻ نكاح الأمَة بشرطين:

أحدهما: عدم الطَّول.

الثّاني: خوف العَنَت.

﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟﴾: أَي: عن نكاح الإماء.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: لئلّا يصير الولد عبداً.

الآيـة (٢٦): ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿سُنَنَ﴾: تعني النّاموس الحاكم لحركة الحياة، والتي مضت عليها الأمور.

عبر كلّ الأزمنة هناك سننٌ كونيّةٌ لا تتخلّف، فعندما يتحدّث المولى تبارك وتعالى عن الحلال والحرام والأوامر التي تتعلّق بالميراث، وعن الزّواج وما يحلّ من النّساء وما يحرم، وكلّ ما يتعلّق بأحكام الأسرة فإنّه ﷻ قد بيّن هذه الأمور، ولا تجريم إلّا بالنّصّ؛ أي لا يمكن تطبيق العقاب إلّا إذا بُيّن الأمر، فمن رحمته ﷻ وحكمته أنّه قد بيّن لنا.

الآيـة (٢٧): ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾

نحـن نعتقـد أنّ الآيـة مكـرّرة، لكـنّ الحقيقـة ليسـت كذلـك، ففـي الآية السّـابقة قـال ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾، وفي هـذه الآيـة يقـول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ٢٧﴾.

لمـاذا هـذا التّكـرار؟ الآيـة الأولى أن يتـوبَ عليكـم، أي أنّـه شرع التّوبـة لتتوبـوا، ولـو أنّ الله ﷻ لم يـشرّع التّوبـة، ولم يرد أن تكـون بشرائعه، لكان الإنسـان إذا ارتكب ذنبـاً سيُحاسـب عليـه وليـس له توبـة، ثمّ جـاءت الآيـة الثّانيـة: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي أنّـه ﷻ يتقبّـل توبتكم.

إذاً: فـالله ﷻ أوّلاً شرع التّوبـة، وثانيـاً يتقبّـل التّوبـة، وهذا من فضلـه ﷻ ورحمته علينـا، وهـو الفارق بـين الآيتين.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾: يوجـد شـهواتٌ مركوزةٌ في طبيعـة الإنسـان البشريّـة، وقـد ضبـط الإسـلامُ الشّـهواتِ ووضـع لهـا حـدوداً وضوابـطَ، فـلا يجـوز أن نتعدّاهـا أو نتجاوزهـا، فالإنسـان يأخـذ بسـنن وفرائـض الله ﷻ في الكـون، وقـد تضعـف نفسـه فيُخطئ أو يرتكـب ذنباً، وفي هـذه الحالة شرع لـه التّوبـة ليتـوبَ عليه، أمّـا الذين يتّبعـون الشّـهوات؛ أي جعلوا الشّـهوة هي الحاكم الأسـاسيّ لحركتهـم ولسـيرهم في الحياة الدّنيا كشـهوة حـبّ المال (يـسرق، يرتشي..)، شـهوة الجنـس (يرتكـب الزّنا، ويرتكـب المحرّمات)، شـهوة الخيلاء، شـهوة القسـوة وغيرهـا... فإنّهـم لا يريـدون أن يـروا إنسـاناً مستقيماً، ولا يريـدون أن يـروا إنسـاناً يرتكـب الخطـأ نتيجة الشّـهوة ثـمّ يتوب ويسـتغفر، ولن يسـتقيم لهم الأمـر حتّى يروا الآخريـن يتّبعـون الشّـهوات ويكونـون مثلهـم، فالإنسـان الـكاذب يتمنّـى أن يكون كلّ النّـاس كاذبـين، والسّـارق يتمنّـى أن يكـون كلّ النّاس سـارقين، وهكـذا...؛ لأنّ النّقـص الّـذي فيه يريـد أن يراه في الآخريـن، فيتعذّب عندمـا يرى إنسـاناً صادقاً وهو

كاذبٌ، وعندما يرى أميناً وهو سارقٌ، وعندما يرى عفيفاً وهو زانٍ.

الآية (٢٨): ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

من عظمة هذا الدّين قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، وهذه الكلمة توجّه لكلّ المتشدّدين والمتطرّفين والذين يغالون في الدّين، فالدّين دين يسرٍ، والنّبيّ ﷺ ما خُيّر بين أمرين إلّا اختار أيسرهما، فما بالنا نشدّد على النّاس؟ ما بالنا نضيّق على النّاس؟ والله ﷻ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ﴾ هناك تخفيفٌ للإنسان في كلّ أمرٍ من الأمور، وفي التّكاليف الدّينيّة والشّرعيّة، فمثلاً في فرض الصّيام قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة: من ١٨٥]، وبعدها مباشرةً قال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٥]، يريد الله ﷻ أن يخفِّف عنكم، ولكن قد تقول: بأنّك لا تتعب بالسّفر، لكنّه ﷻ يريد أن يخفِّف عنكم، لماذا؟ لأنّه ﷻ يعلم أنّ طبيعة الإنسان فيها ضعفٌ، من أين أتى الضّعف؟ من حريّة الاختيار.

فالإنسان يضعف أمام الشّهوة، ويضعف أمام المغريات، ويضعف أمام المال.. وليعالج الله ﷻ هذا الضّعف فهو يخفّف عنّه، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، فتصوّروا هذه الآيات الثّلاث المتتالية:

١- الآية التي مرّت بنا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

٢- والآية التي بعدها: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾.

٣- ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

فبعدما تحدّث المولى ﷻ عمّا يتعلّق بالمرأة واليُتْمِ والميراثِ، وعن أحكام الزّواج

وما يتعلّق به بالنّسبة للمحرّمات من النّساء، يبيّن ﷻ لنا بأنّه يريد أن يتوبَ علينا إذا أخطأنا، ويخفّف عنّا.

لذلك نجد سيّدنا عبد الله بن عبّاس ﷺ قال عن سورة (النّساء) فيها ثمان آياتٍ هي خيرٌ لأمّة محمّدٍ ممّا طلعت عليه الشّمس وغَرَبت، الأولى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾، والثّانية: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾، والثّالثة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾، والرّابعة: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾، والخامسة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾، والسّادسة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾، والسّابعة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾، والثّامنة: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾، هذه الآيات الثّمانية في سورة (النّساء) هي خيرٌ لهذه الأمّة ممّا طلعت عليه الشّمس، فكلّ هذه الآياتِ عطاءٌ ورحمةٌ ومغفرةٌ وعدلٌ وتخفيفٌ ويسرٌ، لذلك قلنا: إنّ سورة (النّساء) وكلّ آيات القرآن الكريم هي أعظم عطاءٍ للبشريّة من لدُن ربّ العالمين.

الآية (٢٩): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

الآيات السّابقة تكلّمت عن النّفس البشريّة، وحقوق المرأة، والميراث، وعن الأيتام وحقوقهم، والضّعف الّذي يعتري الإنسان، والتّخفيف الّذي جاء من الله ﷻ مناسباً له، ثمّ يأتي الكلام عن الأموال والدّماء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ : دائماً يأتي بعدها تكليف، فهي ليست إخبار وإنّما تكليف، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٣]، ﴿ كُتِبَ

﴿عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢١٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ﴾ [الحجرات: من الآية ١١]، فدائماً بعد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ انتظر تكليفاً، لمن هذا التّكليف الإيمانيّ؟ لمن آمن بالله ﷻ بأنّه حكيمٌ وعليمٌ؛ خالقٌ؛ قادرٌ؛ خلق الإنسانَ، ويعلم ما يناسبه في هذه الحياة، وفي الحياة الآخرة الدّائمة، وبعد كلّ ما ورد عن النّفس البشريّة وعن الميراث والأعراض والنّساء يبيّن المولى ﷻ أمراً مهمّاً وهو من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة؛ ألا وهو حفظ الأموال والدّماء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: لماذا يمثّل المال بالأكل؟

لأنّ الشّيء الّذي في فكر الإنسان هو الطّعام، وتحويل المال إلى طعام كأنّك تأكل أكلاً، والمال إذا كان حلالاً ينبت منه اللّحم الحلال، وإن كان حراماً فكلّ ما نبت منه فالنّار أولى به.

﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: وهل يأكل الإنسان ماله بالباطل؟

نعم، النّفس البشريّة هي كنفسٍ واحدةٍ، والمؤمنون كما قال النّبيّ ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى»[1]، فمعنى أكلتَ مالك بالباطل؛ أي أنفقت مالك في الموبقات، وفي غير الإعمار والبناء والعطاء والخير والبركة، أو تاجرتَ بالممنوعات وبما يغضب الله ﷻ ويسيء للآخرين، أو أنّك أخذت رشوةً، أو سرقت، أو...، وكذلك أيضاً تصحّ ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي لا يأكل أحدٌ مال أخيه؛ لأنّ مالك ومال أخيك كالمال الواحد، فأخوك في الوطن وفي الإنسانيّة وفي البشريّة، ولا يحقّ لك أن تأكل مال الغير بالباطل، والباطل هو أن تأخذ الشّيء بغير حقّه.

ويجوز ذلك في حالةٍ واحدةٍ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ والتّجارة هي من المال الحلال، هذا ما يتراضى عليه النّاس في التّعامل الماليّ، ولا يجوز

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، الحديث رقم (٥٦٦٥).

للإنسان أن يتلف ماله أو يأكل مال غيره، فيغتصب المال والأرض وكلّ المحرّمات؛ لأنّ مال الفرد هو مال الأمّة، ولأنّ الإنسان أخو الإنسان أحبّ أم كره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾: من يقتل غيره كأنّه يقتل نفسه، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾:

١- يصحّ أن تكون نهياً عن الانتحار.

٢- ويصحّ أن تكون نهياً عن قتل الآخرين بغير الحقّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾: فمن رحمته تعالى ورأفته بكم أيّها النّاس أنّه شرع لكم هذه الشّرائع.

ويتبيّن لنا في هذه الآيات أنّ الإسلام حفظ الدّماء والأموال والأعراض، قال النّبيّ ﷺ في حجّة الوداع: «أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا؛ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَإِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَّغْتُ»[1]، الدّماء محرّمةٌ، وأشدّ الحرمات على الإطلاق الاعتداء على النّفس البشريّة، وكذلك الاعتداء على الأعراض والأموال، ومن مقاصد الشّريعة الإسلاميّة حفظ النّفس وحفظ الدّين، وكلّ ما يرد في كتاب الله ﷻ وفي سنّة نبيّه ﷺ يُقاس على هذه المقاصد الشّرعيّة الأساسيّة التي وردت في نصّ القرآن الكريم، وفيما صحّ من سنّة النّبيّ ﷺ، فكيف يمكن أن نقبل أن يَقْتُلَ إنسانٌ إنساناً بحجّة الدّين؟ وأن يعتدي إنسانٌ على الأعراض بحجّة جهاد النّكاح؟ هذا الّذي ألصقوه ظلماً وعدواناً بالجهاد وبالنّكاح، كيف يمكن أن تسرَقَ وتُدَمَّرَ أموالُ البلادِ والعبادِ، وتُخَرَّبَ البُنى التّحتيّة وتُدَمَّرَ شبكات الكهرباءِ والمياه وأنت تقول: الله أكبر؟ كيف يستقيم ذلك؟ الله أكبر لها متطلّباتٌ، وأشهد أن لا إله إلّا الله

(١) سيرة ابن هشام: ج٢، ص ٦٠٣-٦٠٥.

وأنّ محمّداً رسول الله لها واجباتٌ ووظائفُ، فلا يمكن أن أطلق الشّعار، وأطبّق عكس ما جاء في تعاليم الدّين الإسلاميّ، وممّا يطلبه الدّين الإسلاميّ الحفاظ على النّفس البشريّة وعدم الاعتداء عليها وعلى الآخرين، فمن الّذي قال: إنّ المشرك أو الكافر بالله ﷻ يجب علينا قتله؟ نحن نأخذ بتفسير القرآن الكريم، وفعل النّبيّ ﷺ وهو التّفسير الأعظم للقرآن الكريم، فهل كان النّبيّ ﷺ يقتل المشرك لأنّه مشركٌ أو لأنّه معتدٍ؟ نحن نقاتل المشركين لكونهم معتدين وليس لكونهم مشركين؛ لأنّ علاج الإشراك بالحوار، وعلاجه أن تطرح: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، و﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، وتعرض الإقناع والاختيار بدلاً من الإجبار والإكراه.

فعندما انتصر النّبيّ ﷺ، ودخل إلى مكّة فاتحاً قال: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»[1]، لم يُسلم أحدٌ منهم وكانوا كلّهم مشركين، لم يعتدِ المسلمون أبداً على أيّ ديانةٍ أخرى أو حتّى على المشركين بالله ﷻ إلّا إذا كان ردّاً للعدوان، قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحجّ: الآية ٣٩-٤٠]، فالاعتداء هو الّذي يوجب القتال وليس الإشراك، ولو كان الإشراك يوجب القتال لكان يجب علينا أن نقاتل كلّ من كان غير مسلمٍ، أو ليس مؤمناً بالله ﷻ، أو ليس على بقيّة الكتب السّماويّة والأديان، وهذا لا يصحّ عقلاً، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: الآية ٩٩]، وقال تعالى مُخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ٢٤﴾ [الغاشية: الآية ٢١-٢٤]، فالله ﷻ هو الّذي يعذّبه وليس أنت، كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية: الآية ٢٥-٢٦].

---

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب السّير، باب فتح مكّة حرسها الله تعالى، الحديث رقم (١٨٠٥٥).

فالحفاظ على الأعراض، والحفاظ على الدّماء، والحفاظ على الأموال من أهمّ الأساسيّات ومقاصد التّشريع الإسلاميّ التي جاء الإسلام ليحافظ عليها، وكلّ ما ورد الآن فيما يتعلّق بالمرأة وحقوقها، وحقوق الأيتام والميراث والزّواج وأحكامه، وأحكام الحلال والمحرّمات من النّساء، والتّخفيف عن النّاس والتّوبة لله ﷻ، وتحريم أكل الأموال بالباطل، وتحريم الاعتداء على النّفس البشريّة، هذه كلّها من أهمّ الأسس التي قامت عليها الشّريعة الإسلاميّة، فكلّ من يرتكب فعلاً يخلّ فيه بهذه المبادئ الأساسيّة وهذه المقاصد الشّرعيّة، فإنّه قد خرج عن تعاليم الإسلام، ولا علاقة للإسلام بجرائمه، فيُنسب إلى جرائمه ولا يُنسب إلى الإسلام الّذي يدّعيه، وهذا يجب أن يكون واضحاً للنّاس جميعاً، فلا يمكن لحوادث الاعتداء والقتل والإرهاب والتّكفير والقسوة والعنف أن يكون لها أيّ صلّةٍ بتعاليم الشّريعة الإسلاميّة، والإسلام هو دعوةُ الخير للغير والمعاملة بالتي هي أحسن في كلّ ما يتعلّق بفعل الإنسان أو حتّى بقوله، حتّى القول، نهانا الله ﷻ عن القول الفاحش فقال جلّ وعلا: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: من الآية ٨٣]، ولم يقل: قولوا للمسلمين: حسناً، وبيّن النّبيّ ﷺ الأمر فقال: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله»[1]، لو أتينا إلى تعريف المسلم لوجدنا أنّ المسلم هو مَن شهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأقام الصّلاة، وآتى الزّكاة، وصام رمضان، وحجّ البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وهذه هي أركان الإسلام، أمّا الإيمان فأن تؤمن بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه، بينما النّبيّ ﷺ يقول: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ».

إذاً؛ مقاصد هذه الشّعائر، وارتباط الشّعائر بالمقاصد هو أنّك لن تكون مسلماً إلّا إذا سلم المسلمون من لسانك ويدك، ولن تكون مؤمناً بالله ﷻ إلّا إذا أمِنك

(١) مسند البزّار: المجلّد الثّاني، مسند فضالة بن عبيد، الحديث رقم (٣٧٥٢).

النّاس جميعاً -بغضّ النّظر عن انتماءاتهم وأديانهم وأفكارهم وثقافاتهم وأعراقهم- على أموالهم وأعراضهم، والمهاجر ليس من هاجر من مكّة إلى المدينة فقط، فهذا البُعد الجغرافيّ، أمّا البُعد الزّمانيّ فهو أن تهجر ما نهى الله ﷻ عنه، فلا أقول: بأنّني مسلمٌ وأنا أؤذي النّاس بلساني.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنّ فلانة يُذكَر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنّها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هِيَ فِي النَّارِ»[1]، لم يقل: جيرانها المسلمون بل جيرانها، حتّى الكلمة التي تخرج من اللّسان إذا كانت تؤذي فهي محرّمةٌ كما قال النّبيّ ﷺ، هذا هو ديننا، وهذا هو إسلامنا.

الآية (٣٠): ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

في الآية السّابقة ذكرنا الّذي يقتل، الّذي يأكل أموال النّاس بالباطل، الّذي يعتدي على الأعراض، بعد ذلك قال ﷻ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾، العدوان والظّلم محرّمان تحريماً قطعيّاً، ولا يجوز أن تعتدي على أحدٍ لا على ماله ولا دمه ولا عرضه، وإلّا خرجت من الإسلام تماماً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ﴾: سيكون مآله النّار.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: ومهما طالت عليك هذه الحياة، وكيفما كانت أيّامك فيها فإنّك ستموت، وبعد الموت ستصلى هذه النّار نتيجة العدوان وظلم النّاس والاعتداء على الدّماء والأموال والأعراض، وهذا جوابٌ على كلّ ما يفعله الإرهابيّون والمتطرّفون في شعبنا وفي أمّتنا وفي النّاس أجمعين.

(١) مسند الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصّحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث رقم (٩٦٧٣).

الآيـة (٣١): ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

مـن أكـبر الكبائـر قتـل النّفـس بغـير الحـقّ كـما ورد في الآيـات السّـابقة، قـال رسـول الله ﷺ: «اجتنبـوا السّـبع الموبقـات»، قالـوا: يا رسـول الله، ومـا هـنّ؟ قـال: «الـشّرك بـالله، والسّـحر، وقتـل النّفس التـي حـرّم الله إلّا بالحـقّ، وأكل الرّبـا، وأكل مـال اليتيـم، والتّـولّي يـوم الزّحـف، وقـذف المحصنـات المؤمنـات الغافـلات»[1]، هـذه مـن الكبائـر التـي نهـى الله ﷻ عنهـا ولكنّـه ﷻ لم يقـل للإنسـان: إنّـك إذا ارتكبـت كبـيرةً انتهـى الأمـر وليـس لـك توبـة، لم ينتـه الأمـر، بـل يجـب عليـك أيّهـا الإنسـان أن تتـوب وتسـتغفر.

قال ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزّمـر: الآيـة ٥٣]، لكـن لابـدّ مـن التّكفـير عنهـا بالعقوبـات التـي وردت بحقّهـا كحدّ القتـل وحدّ السّرقـة وغيرها.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟﴾: لاحظـوا الدّقة، في آيات تحريم الخمـر رأينا أنّ بعض النّاس يقول: لم يحـرّم عليكم الخمـر، إنّما أمرت الآيـة باجتنابه، ولم يعدّوه تحريـماً، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائـدة: الآيـة ٩٠]، وقـد ذكرنـا أنّ الاجتناب أشـدُّ مـن التّحريـم، فالتّحريـمُ ألّا تقـعَ في الشّيء، أمّـا الاجتنـاب فأن تتجنّـب حتّى الاقتراب مـن الشّيء، فأيّهما أشـدّ؟! الاجتناب أشـدّ مـن التّحريـم، تجتنـب الأمـر تبتعد عنـه نهائيـاً، والدّليـل على ذلـك الكبائـر، قال ﷻ عنهـا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، فهـل يمكـن أن يقـول أحدهـم: إنّ الكبائـر ليسـت محرّمـة؟ فالاجتنـاب ليـس فقـط ألّا ترتكبهـا، ولكـن يجـب عليك أن تبتعـد عـن الطّريـق الموصل لها.

---

(١) صحيـح البخاريّ: كتـاب الوصايا، باب قـول الله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النّسـاء: الآيـة ١٠]، الحديـث رقـم (٢٦١٥).

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: يقول عليه الصّلاة والسّلام: «الصّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات ما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر»[1]، أمّا الصّغائر فيتوب منها الإنسان والله ﷻ يتوب عليه.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾: والمدخل الكريم هو أن يدخل الإنسان لرحمات الله ﷻ في الآخرة.

الآية (٣٢): ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

بعد أن عالج الإسلام كلّ ما يتعلّق بالأعراض والأموال والدّماء، وعالج أمور الميراث، جاء ليعالج أمراض القلب؛ تمنّي ما فضّل الله ﷻ بعض النّاس على بعضٍ، وقد فضّل الله ﷻ النّاس بعضهم على بعض، فهذا فضّله بالمال، وهذا بالعلم، وهذا بالجاه.

فإن تمنّيت زوال النّعمة عن الغير فهو الحسد.

وأمّا أن تتمنّى ما فضّل الله ﷻ به غيرك من دون زوال النّعمة عن هذا الغير، فهذا أعطاه الله ﷻ المال فتتمنّى أن يعطيك ﷻ المال مثله، من دون أن يذهب المال عنه، هذا ليس حسداً لكنّه مدخل إلى الحسد، فأغلقه الله ﷻ بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ وإن كانت بالنّسبة لحصص الميراث، لتوزيع الأموال، فهي عامّةٌ في كلّ شيء، لكنّ الله ﷻ يقول لك: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ﴾: يقول النّبيّ ﷺ: «سلوا الله من فضله، فإنّ الله ﷻ يُحبّ أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[2]، فعندما ترى النّعمة في الغير، توجّه إلى الله ﷻ واسأله من فضله ومن كرمه فيما

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب الصّلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر، الحديث رقم (٢٣٣).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب الدّعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، الحديث رقم (٣٥٧١).

يسدّ حاجتك، وفيما تتمنّاه لنفسك ولأسرتك ولجيرانك ولوطنك ولأهلك، يقول الله ﷻ في آيات الصّوم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٦]، قريب المسافة، هو معكم أينما كنتم، فالدّاعي إلى الله ﷻ يشعر بأنّ الله ﷻ معه، ولكن هناك شروط: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٦]، فلا بدّ أن تؤمن وتستجيب لأوامر الله ﷻ حتّى يستجيب الله ﷻ لك.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: الله ﷻ يعلم ما في النّفوس، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور، ويعلم السّرّ وأخفى، فلذلك يجب تصفية أمراض الحسد من النّفوس وخصوصاً المؤمنة.

الآية (٣٣): ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

قال بعضهم في تفسير هذه الآية: إنّها نزلت قبل نزول أنصبة المواريث.

﴿مَوَالِيَ﴾: ج. مولى، وهو لفظٌ مشتركٌ يُطلَق على وجوهٍ؛ فيُسمّى المعتِق مولى، والمعتَق مولى، ويُسمّى النّاصر مولى؛ ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [محمّد: من الآية ١١]، ويُسمّى ابن العمّ مولى، والجار مولى، فأمّا قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ يريد عصبات.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: أي إن حلفتم أيماناً مغلّظةً بأنّكم ستؤتونهم من هذا النّصيب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾: الله ﷻ ليس هو الرّقيب فقط، بل هو الشّهيد في ما يتعلّق بتأديتك للحقوق.

الآيـة (٣٤): ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

سيأتي مَن يقول: أرأيتم الفارق والتّمييز ضدّ المرأة؟! لكنّنا سنفسّر هذه الآيات بالعقل والمنطق والدّليل والبرهان، وبفعل النّبيّ ﷺ، فإن كان أحدٌ بعد ذلك مصرّاً على عدم الاقتناع فهذا أمرٌ آخرُ، أمّا بالحجّة والإقناع فنحن على استعدادٍ لذلك.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: هذا تفضيلٌ للرّجال أم تفضيلٌ للنّساء؟ إذا لم تكن ملمّاً باللّغة العربيّة فلا تتصدّى للقرآن الكريم، وتهاجم أحكاماً شرعيّةً لعلّةِ عدم معرفتك.

قوّام: صيغة مبالغة من قائم، قائمٌ على خدمتك، إذاً من هو الأفضل المرأة أم الرّجل؟ هذه الآية مَنْ تفضّل؟ إنّها تفضّل النّساء على الرّجال؛ لأنّ الرّجل مكلّفٌ بأن يكون قائماً على خدمة زوجته وعلى أمورها، وقائماً على إنفاق أمواله عليها، وأن يؤمّن كلّ احتياجاتها.

وفي اللّغةِ العربيّةِ القائم: هو المتعَب، والجالس هو المرتاح، فكيف تقول بأنّ الإسلام أهان المرأة ولم يعطها حقوقها؟ على العكس تماماً.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: يقولون: هذا عكس كلامك، هذا يعني أنّه فضّل الرّجال، وهذا ليس صحيحاً، انتبه إلى الآية: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ أي يوجد نساءٌ مفضّلاتٌ ورجالٌ مفضّلون، التّفضيل حسب ما يُقَدِّمُ من عملٍ ومن قيمٍ ومن أخلاقٍ، فقد تكون المرأةُ مُفضّلةً وقد يكون الرّجلُ، لماذا؟ لأنّ الآية تقول: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فبعضهم مُفضّلٌ وبعضهم أفضل، قد تكون المرأة أفضل وقد يكون الرّجل أفضل، حسب ما يقوم الإنسان

بـما كُلّـف به يكـون التّفضيـل فيـه، ولم يقل المولى تبـارك وتعـالى: الرّجـال قوّامون على النّسـاء بـما فضّلهـم الله ﷻ، لو قـال كذلك لـكان الرّجـال مفضّلين على النّسـاء، لكنّه قـال ﷻ: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ مـن النّسـاء ومـن الرّجـال.

ومَـن الّذي قـال لك: إنّ الأمر في قولـه ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يتعلّق فقـط بالـكلام عـن الرّجـل وزوجتـه؟ قـد قـال: الرّجـال، ولم يقـل: الأزواج، فهنـاك الرّجـل وأمّـه، والرّجل وأختـه، والرّجل وابنتـه، والرّجل وزوجتـه، والرّجل وعمّته، والرّجـل وجدّتـه، والرّجـل وخالتـه.. وقـوّام صيغـة مبالغـةٍ مـن قائمٍ عـلى أمورهم، فهـو مكلَّـفٌ بشـؤونهم والإنفـاق عليهـم... إلـخ، فيعـدُّ هـذا تفضيـلاً لمـن؟ الآيات يجـب أن تُفسّر بفعـل النّبـيّ ﷺ، وقد صـحّ في الأحاديث أنّـه كان ﷺ في عمـل أهله؛ أي يسـاعد زوجتـه في كلّ أمـرٍ مـن الأمـور داخـل المنـزل، وكان يقـول ﷺ: «خيركم خيركـم لأهله، وأنـا خيركم لأهـلي»[1].

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾: لأنّ الرّجـل مُكلّـفٌ بالإنفـاق عـلى زوجتـه وعـلى أمّـه وعـلى ابنتـه وعـلى أختـه وعـلى كلّ مَـن يلوذ بـه من النّسـاء.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾: الصّالحـات كـما قـال النّبـيّ ﷺ في المـرأة الصّالحـة: «الدّنيـا متـاعٌ، وخـير متـاع الدّنيـا المـرأة الصّالحـة»[2]، الزّوجـة الصّالحـة القانتـة الخاشـعة لله ﷻ التي تحفـظ زوجها في غيابـه وفي حضوره..

أصبـح موضـوع القوامـة واضحـاً، وهـو القيـام عـلى أمـور وخدمـة المـرأة؛ الأمّ والبنـت والأخـت والزّوجـة.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾: النّشـوز: الارتفـاع، مثـلاً يقـال هـذا الصّوت نَشَـزَ عـن باقـي الأصـوات؛ أي ارتفع.

هـذه حالـة إعـراض ونشـوز الزّوجـة عـن زوجهـا، معالجـة الشّـقاق بـين الـزّوج

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب المناقب، باب فضل أزواج النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٣٨٩٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الرّضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، الحديث رقم (١٤٦٧).

والزّوجة والمشكلات التي تحدث بينهما والتي تصل إلى الطّلاق، وهو أبغض الحلال إلى الله ﷻ، ولكنّه يكون أحياناً علاجاً لهذه الأسرة في آخر الأحوال بعد أن فتح الله ﷻ كلّ الأبواب للصّلح والإصلاح، ولكن لا أمل في الإصلاح بينهما، فبدأت الآية بتدرّجٍ بموضوع النّشوز والعلاقة الجنسيّة بين الرّجل والمرأة، والعلاقة التي تربط بينهما:

١- ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: الوعظ: هو النّصح برقّة.

٢- ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾: بدايةً لمعالجةِ قضيّةٍ مهمّةٍ بنشوز المرأة بالنّسبة لزوجها، وضبط العلاقة بين الرّجل والمرأة.

٣- ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾: الحالة الثّالثة كيف تُفسّر؟ هل الإسلام أمر الرّجل أن يضرب زوجته عندما تنشز؟

لنرى ذلك، فهذه الآية أمامك، قال القرآن أوّلاً: عظوهنّ، وهو النّصح برقّة، بعدها الهجر في المضاجع، وعندما نرى (اضربوهنّ)، مَن الّذي يحدّد الضّرب؟ كيف يكون؟ وما هو؟ ومن الّذي يشرّع؟

في الإسلام يُشرّع القرآن الكريم والنّبيّ ﷺ مخوّلٌ بالتّشريع؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]؛ ولأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: الآية ١٣٢]؛ ولأنّه ﷻ علّق إيمان الإنسان حتّى يُحكّم النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام ويُذعن لأوامره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النّساء: الآية ٦٥]، فالمشرّع بالنّسبة للإسلام هو القرآن الكريم والنّبيّ ﷺ، ولكنّ الفعل المتعلّق بهذه الآية كيف يتمّ؟

فهمنا من الآية أنّ العظة النّصح برقّةٍ، والهجران في المضاجع معروفٌ لكنّ الضّرب كيف يُفسّر؟ ما هو المقدار؟ ما هي الشّدّة؟ أهو عنفٌ ضدّ المرأة أم هو إشارةٌ إلى أمرٍ ما؟ من الّذي سيحدّد هذا الأمر؟

حـدّده النّبـيّ ﷺ، الـضّرب بالسّـواك الّـذي يسـتاك به عليـه الصّلاة والسّـلام، أي مثـل فرشـاة الأسـنان، لا بالعصـا ولا المسـطرةِ ولا اليـدِ، وكأنّه إشـارةُ تنبيهٍ.

إذاً: عظـةٌ بلطـفٍ، هجـرانٌ بالمضاجـعِ، وتنبيهٌ لبداية الشّـقاق، أين هـو العنف ضد المـرأة؟ أيـن هـو الـضّرب الّـذي تتحدّثـون عنـه؟ لا أحـدٌ يقـول عـلى الإطـلاق: بأنّه يسـتطيع أن يُفسّر القـرآن الكريـم عـلى غـيره، لا أحـدٌ يسـتدرك على الرّسـول ﷺ في تفسـير القـرآن الكريـم، ولا أحـدٌ يسـتخدم العنـف؛ لأنّ القـرآن الكريـم قـال ذلك، عليـك أن تـرى فعـل النّبـيّ ﷺ بـما جـاء في القـرآن الكريـم، ففعلـه ﷺ هـو الحجّـة، وهنـاك لغـةٌ، وآياتٌ متشـابهاتٌ ومُحكـماتٌ، وآياتُ خـاصٍّ وعامٍّ، وهنـاك مجملٌ، أنت تـرى كيـف فعـل النّبيّ ﷺ وفعلـهُ هو التّشريـع، فهو تشريـعٌ بفعل النّبـيّ ﷺ لا يحتاج إلى بيـانٍ، قـال تعـالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: من الآيـة ٤٤]، عندمـا يُنـزّل الله ﷻ الذّكـر من الّـذي سـيبيّنه للنّـاس؟ النّبيّ ﷺ.

فهـذا الـضّرب بالسّـواك إشـارةٌ إلى بـدء الشّـقاق، بدليـل ما جـاء بعدهـا مـن تتمّة الآيـة: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾: موضـوع النّشـوز يـؤدّي إلى الطّـلاق، فـإن أطعنكم وسـارت الأمور بشـكلٍ طبيعـيّ، ﴿فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾، لا تتّخـذوا أيّ سـبيلٍ أو طريـقٍ.

الآيـة (٣٥): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

هـو التّنبيـه الأخير قبل الشّـقاق، حركـةٌ تدلّ على أنّ الشّـقاق سـيحدث، وبدلاً من أن يقـولَ: الطّـلاقَ، قـال: الشّـقاقَ، والشّـقاقُ هـو ما بين اثنـين ملتصقين؛ لأنّـه تعالى قـال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: مـن الآية ١٨٧].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾: بمجرد أن خفتم.

﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: لمـاذا؟ لأنّ الأهـل مـن أسرتـه، أو أسرتهـا قد يريـدون الإصلاح.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾: ليس عليمٌ فقط بل وخبيرٌ، خبيرٌ بالنّوايا والأعمال وبمن يريد أن يصلح حتّى يوفّق الله ﷻ، ويتمّ الإصلاحُ بين الرّجل وبين المرأة.

فالتّحكيم هنا لما يتعلّق بين الرّجلِ والمرأةِ من أجل موضوع الإصلاح بين الزّوجين.

هذه الآية الكريمة تذكّرنا بما فعله الخوارج في بداية العصر الإسلاميّ مع سيّدنا الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في ذلك الوقت عندما قبل بالتّحكيم فقام الخوارج يزايدون بالدّين -وخوارج هذا العصر يعملون بحجّة الدّين حتّى يحقّقوا مآرب أخرى- وأخذوا على سيّدنا الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه كيف يقبل بالتّحكيم في هذا الأمر؟ وجاؤوا بآيةٍ من القرآن الكريم: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف: من الآية ٤٠]، قائلين: لا يجوز لك أن تقبل التّحكيم، فماذا قال سيّدنا الإمام عليّ كرّم الله وجهه؟ قرأ لهم هذه الآية: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ مبيّناً أنّه قَبِل التّحكيم بناءً على هذه الآية الكريمة؛ لأنّ القرآن الكريم أمر بالتّحكيم وقَبِل به.

الآية (٣٦): ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾

كلّ الأحكام التي وردت في كتاب الله ﷻ يأتي بعدها الأمر بالعبادة، والعبادة ليست كما يتوّقع بعض النّاس أنّها العبادات الفقهيّة التي حُدّدت بالصّلاة والصّيام والحجّ والزّكاة فقط، وإنّما العبادة هي في كلّ عملٍ نافع يعود على الإنسان وعلى غيره وعلى مجتمعه ووطنه وأمّته بالخير، بدليل أنّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذّاريات: الآية ٥٦-٥٨].

فالعبادة تشمل الطّاعة، طاعة آمرٍ بما أمر، ولها الكثير من المجالات. أمّا الصّلاة والصّيام والحجّ والزّكاة فهي أركان الإسلام، وهذه الأركان هي الدّعائم التي يقوم عليها الإسلام ويُبنى، لقول النّبيّ ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان»[1]، أي أنهّا جزءٌ من الإسلام وليست هي الإسلام، فالّذي يعتقد أنّ الإسلام صلاةٌ وصيامٌ وحجٌّ وزكاةٌ فقط فهو مخطئٌ؛ لأنّ الإسلام أشمل من ذلك، هو كلّ أمرٍ أمرَ الله ﷻ به، والدّليل قول النّبيّ ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس»، فالإسلام بُني عليها، وكلّ طاعةٍ لله ﷻ هي عبادةٌ، فمثلاً: عندما يقول الله ﷻ في سورة (الجمعة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة: الآية ٩-١٠]، فقد أمر الله ﷻ بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضله وجاء ذلك بفعلي أمرٍ: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾، ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾، فهو طاعةٌ لله ﷻ، كما أنّه ﷻ أمر بذكره، والقيام إلى صلاة الجمعة، عندما قال: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، فدائرة العبادةِ واسعةٌ وشاملةٌ، وهنا يبيّن الله ﷻ جزءاً مهمّاً من الأمور التي وردت في كلّ الكتب السّماويّة، وهي من الآيات المحكمة، هذه الآية الكريمة: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾: أي أطيعوا الله ﷻ، وطاعة الله ﷻ تتأتّى عن طريق الأخذ بأوامر القرآن الكريم وأوامر النّبيّ ﷺ، ولا أحدٌ يستدرك على سيّدنا رسول الله ﷺ، المعنى في هذا الكلام أنّ الله ﷻ أعطى الأوامر، وفوّض إلى النّبيّ ﷺ إعطاء هذه الأوامر، ولا يمكن أن نفهم القرآن الكريم إلّا من خلال سنّة وسلوك وهدي وأوامر النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، لذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النّحل: من الآية ٤٤].

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

فلا بدّ من بيان النّبيّ ﷺ، ولكن كيف يكون ذلك؟

من خلال سيرته ﷺ وأفعاله، وعلاقته بالمجتمع، وبزوجاته وجيرانه ووطنه وبالإنسانيّة، وبكلّ المخلوقات.

فقد قال الله ﷻ عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، وفي هذا ردٌّ صريحٌ على كلّ الانحرافات الضّالّةِ من الفكر الوهّابيّ والتّكفيريّ، وما جرى في هذه الأيّام على يد خوارج هذا العصر.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: عبادة الله ﷻ أن تطيعَه، أن تفعلَ ما أمر به وتنتهي عمّا نهى عنه، والأصل في الأشياء الإباحة ما لم يَرِد نصٌّ بالتّحريم.

مثال ما يتعلّق بالخمر، فالمشروبات التي أمام الإنسان كالعصير والمياه وغيرها كلّها حلالٌ، لكنّه ﷻ حدّد أنّ الخمر حرامٌ، فهو جزءٌ يسيرٌ بالنّسبة للحلال الواسع الّذي وسّع الله ﷻ به على عباده، كذلك بالنّسبة لِلَحم الخنزير، كلّ اللّحوم الأخرى عدا الـمَيْتَة والتي سترد معنا بالآيات القادمة حلالٌ، فدائرة الحلالِ واسعةٌ وفيها توسعةٌ على النّاس.

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾: الإشراكُ بالله ﷻ ليس فقط أن تجعل صنماً أو حجراً أو تمثالاً وتعبده، أو أن تعتقدَ وجود آلهةٍ أخرى، أو تعتقدَ عدم وجود إلهٍ، بل هو الاعتقاد بأنّ ما سوى الله ﷻ يضرّ وينفع ويعطي ويمنع ويصل ويقطع ويخفض ويرفع ويعزّ ويذلّ. عن شدّاد بن أوس أنّه بكى فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: شيءٌ سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف على أمّتي الشّرك والشّهوة الخفيّة»، قلت: يا رسول الله! أتشرك أمّتك من بعدك؟ قال: «نعم، أَمَا إنّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم»[1]، أي يُنافقون النّاس بأعمالهم لاعتقادهم أنّ النّاس يضّرون وينفعون، فهذا جزءٌ من الإشراك.

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: المجلّد الثّالث، ص ٢٥٩، الحديث رقم (٥٢٢٦).

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾: تأتي واو العطف في أكثر من موضعٍ في كتاب الله ﷻ، وهي تسترعي الانتباه والاهتمام.

هذه الآية عظيمةٌ جدّاً تعطي المعانيَ الواسعةَ، والخير العامّ، والتّربية الأسريّة الحقيقيّة في المجتمع، فالأصل في المجتمع الأب والأمّ، وهم أصل بناء الأسر، فلننظر إلى أيّة علاقةٍ اجتماعيّةٍ أخرى من العلاقات ولنقارنها بعلاقة الآباء والأمّهات مع الأولاد من الذّكور والإناث، فهذه العلاقة على قدر سموّها وعلى قدر ما تكون واضحةً ومعطاءةً ورحيمةً ينسحب ذلك على بقيّة العلاقاتِ الاجتماعيّةِ التي يريد أيُّ مجتمعٍ أن يبنيَ فيها الخير، وأن يقوم على القيم والأخلاق، فقمّة الأخلاق هو الإحسانُ للوالدين، فمن لا خير فيه لأبيه وأمّه فلا يمكن أن يكون فيه خيرٌ لوطنه وجيرانه ومجتمعه، أو لأيّ فردٍ أو جماعةٍ على وجه الأرض؛ لذلك نجد أنّ الله ﷻ عندما يريد أن يتحدّث عن عبادته يُشارك ذلك بأمرٍ عامٍّ على النّاس جميعاً وهو الإحسان للوالدين.

يقول الله ﷻ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، ويقول ﷻ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، والآية هنا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، لنلاحظ هذا الأمر المهمّ جدّاً أنّ الله ﷻ عندما يتحدّث بدأ بالسّلب: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾، لكن عندما يتحدّث عن الوالدين يتحدّث بالإيجاب، فنجد في قوله ﷻ: ﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: الآية ١٥١]، كلّها ولا.. ولا..، إلّا عند ذكر الوالدين لم يقل: لا تعقّوا الوالدين، وهنا قال: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾، لماذا؟ لأنّ الله ﷻ لا يريد أن يخطر مجرد خاطرٍ للأبناء أنّ هناك ما يسمّى بعقوقٍ للآباء والأمّهات؛ لذلك دائماً يأتي بالإيجاب عند كلامه ﷻ عن الوالدين.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾: الإحسان هو فوق ما أُمِرت به، وتعريف الإحسان بالنّسبة للإيمان وبالنّسبة للإسلام: هو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك.

أن تعبد الله ﷻ بأكثر ممّا فرض عليك، فعندما تتّقي الله ﷻ بوالديك، وتحسن معاملتهما، وتكون طائعاً وذليلاً بين يدي الوالدين فإنّك تتعبّد الله ﷻ وتتقرّب إليه بأجلّ الأعمال وأفضلها وأرحمها على الإطلاق، لذلك نجده ﷻ في أكثر من موضعٍ تحدّث عن الإحسان للوالدين، ولا يكفي ألّا تقولَ لهما: (أفّ)، قال سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: (لو علم الله كلمةً في العقوق أدنى من أفّ لحرّمها، فليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النّار)، لماذا؟ لأنّ النّبيّ ﷺ قال: «رضا الله في رضا الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين»[1]، والله ﷻ جعل الجنّة تحت قدم الأمّ ورضاها، ولا شكّ أنّ الأمّ امرأةٌ، وهذا أعظمُ تكريمٍ وأكبرُ حقٍّ من حقوق المرأة الّذي تناسته البشريّة، السّؤال الّذي يتمّ طرحه هل المرأة هي الزّوجة؟ أم هي الأمّ والزّوجة والأخت والابنة؟! المرأة كلّ هذه الأصناف، وعلى رأسها الأمّ، فهذا الحقّ للأمّ. هل يوجد تشريعٌ أرضيٌّ وُضع واستطاع أن يعطي المرأة (التي ضحّت وربّت وتعبت وسهرت وأرهقت نفسها، وجعلت من كلّ حياتها عطاءً لأولادها) حقّها كما أعطاها الإسلام؟ لنرى الإسلام عندما قام شابٌّ وحمل أمّه على كتفه في رمضاء شديدة، أي في حرٍّ شديدٍ وطاف بها سبعة أشواطٍ، فقال أمام النّبيّ ﷺ: هل أدّيت حقّها؟ قال ﷺ: «لا، ولا بركزةٍ واحدةٍ»[2]، ولا طلقةٍ واحدةٍ من الطلّق عند الولادة، فأيّ تكريمٍ وأيّ عظمةٍ وأيّ عطاءٍ من الإسلام للأمّ؟!، وعندما جاء شابٌّ إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال ﷺ «هل لك من أمّ؟»، قال: نعم، قال ﷺ «فالزمها، فإنّ الجنّة تحت رجليها»[3]، أيّ عظمةٍ

(١) شعب الإيمان: الخامس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في برّ الوالدين، الحديث رقم (٧٨٣٠).
(٢) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: المجلّد الثّامن، ص ٥٥، الحديث رقم (١٣٣٩٥).
(٣) شعب الإيمان: الخامس والخمسون من شعب الإيمان وهو باب في برّ الوالدين، الحديث رقم (٧٨٣٠).

وأيّ إسلامٍ هذا الّذي يتحدّثون عنه، ويريدون أن يلبسوه التّطرّف والإرهاب والكراهيّة والحقد والعنف، بينما هو دين اللّطف والرّحمة والعطاء ودين الخير، الإسلام الأمريكيّ والإسلام الوهّابيّ لا يسمّى إسلاماً، النّسخة المشوّهة التي أرادوها تجعل من الأبناء يقتلون الأمّهات، ويضربونهنّ، ويكفّرونهنّ، والإسلام مستقى من كتاب الله ﷻ ومن سنّة حبيب الله ﷺ وهديه.

﴿وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: ذَوُو القربى: هم مَن يصلهم بالإنسان رحم، وصلة الأرحام فرعٌ من فروع الإحسان للوالدين، وفي بداية سورة (النّساء) قال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النّساء: من الآية ١]، وهنا يقول ﷻ: بأنّه لا يكفي أن تكون دائرة الإحسان للوالدين فقط، وإنّما أيضاً للقربى، والمجتمعات العربيّة بفضل الله ﷻ، وبفضل التّمسّك بالقيم الدّينيّة والإيمانيّة ما زالت العلاقة بين الآباء والأمّهات مع الأولاد في حدودها، وما زالت مضبوطةً ضمن الضّوابط الإيمانيّة، ويخجل أيّ إنسانٍ منّا أن يُقال عنه: بأنّه عاقٌّ بوالديه، أمّا في الغرب فالأولاد لا يرون آباءهم وأمّهاتهم إلّا في المناسبات كعيد الأمّ، أو في مناسبةٍ اجتماعيّةٍ معيّنةٍ، ويضعون الوالد والوالدة في دور العجزة، وكأنّ شيئاً لم يكن. وقد بيّن لنا القرآن الكريم أنّ الأب والأمّ في نهاية حياتهما عندما يحتاجان إلى أولادهما، يجب أن يكون الأبناء عندهما.

قال ﷻ في سورة (الإسراء): ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾، عند الكبر لا يكونان في دار العجزة ولا في المأوى، فالإنسان عندما يتزوّج ويصبح عنده أولاد تسير به الحياة إلى الأمام، ولا ينظر إلى الورود التي ذبلت، وإنّما ينظر إلى الورود التي تريد أن تونع، ويريد أن يستقبل الأيّام القادمة، والأجيال القادمة فينسى والديه، فعطفه الله ﷻ عطفةً شديدة بذلك، وقال له: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾، عندك، ولا يجوز أن يكونَ الأبُ والأمّ في مكانٍ آخر.

ونحن نعلم قصّة الرّجل الكبير في السّنّ الّذي جاء إلى النّبيّ ﷺ وكان قد شكاه ولده، جاء رجلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! إنّ أبي أخذ مالي، فقال النّبيّ ﷺ: «اذهب فأتني بأبيك»، فنزل جبريل على النّبيّ ﷺ فقال: «إنّ الله ﷻ يقرئك السّلام ويقول لك: إذا جاءك الشّيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه»، فلمّا جاء الشّيخ قال له النّبيّ ﷺ: «ما بال ابنك يشكوك، أتريد أن تأخذ ماله؟». فقال: سله يا رسول الله هل أنفقته إلّا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي؟ فقال النّبيّ ﷺ: «إيه دعنا من هذا، أخبرني عن شيءٍ قلته في نفسك ما سمعته أذناك»، فقال الشّيخ: والله يا رسول الله ما يزال الله يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت شيئاً في نفسي ما سمعته أذناي، فقال: «قل وأنا أسمع»، قال: قلت:

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَعُلْتُكَ يافعاً ... تُعَلُّ بما أجني عليك وتَنهَلُ

إذا ليلةٌ ضافتك بالسّقمِ لم أَبِتْ ... لِسَقْمِكَ إلّا ساهراً أتَمَلْمَلُ

كأنّي أنا المطروقُ دُونَكَ بالّذي ... طُرِقْتَ به دوني فعَينيَ تهمِلُ

تخافُ الرَّدى نَفْسِي عليكَ وإنّها ... لَتعلَمُ أنّ الموْتَ وقتٌ مؤجّلُ

فلمّا بلغت السّنَّ والغايةَ التي ... إليها مَدى ما كُنْت فِيْكَ أُؤمِّلُ

جَعَلْتَ جَزائي غِلظةً وفَظاظةً ... كأنّكَ أنْتَ المُنْعِمُ المُتَفضِّلُ

فليتكَ إذ لَمْ ترعَ حقّ أُبُوّتي ... فَعَلْتَ كما الجارُ المجاوِرُ يَفْعَلُ

تراهُ مُعِدّاً للخلافِ كأنّه ... بِرَدٍّ على أهْلِ الصّوابِ موكَّلُ

قال: حينئذٍ أخذ النّبيّ ﷺ بتلابيب ابنه فقال: «أنت ومالك لأبيك»[1].

فأيّ دينٍ وأيّ عظمةٍ هذه، لم يكتفِ الإسلام بذلك، وإنّما أراد أن يوسّع الدّائرة من أجل الأب والأمّ، فهناك أيضاً الأقارب، وقد يكون الإنسان محسناً لوالديه، ولكنّ علاقته مع أقاربه هي تلك العلاقة التي يقولها المجتمع الآن: (الأقارب عقارب)، هذه المفاهيم من مفرزات المجتمعات وليست من تعاليم الإسلام، بينما القرآن الكريم قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [البقرة: من الآية ٨٣]، عطف أوّلاً: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فالإنسان عندما يريد أن يبذل الخيرَ فدائرة الخير بعد الوالدين تبدأ بالأقارب، ويأتي بعد ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، مباشرةً اليتامى قبل المساكين، لماذا؟ لأنّ اليتيم قد فقد أباه، فقد أهمّ دعائمِ الوجود بالنّسبة له، ويجب أن يكون المجتمعُ متضامناً متكافلاً، ولا يشعرَ أحد أفراد المجتمع باليتم وبالضّعف، وحالات الضّعف من جرّاء اليتم يسدّها الإسلام: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ [الماعون: الآية ٢]، من الّذي يكذّب بالدّين؟ مَن لا يصلّي؟ من لا يصوم؟ من لا يحجّ؟ من لا يزكّي؟ من لا...، ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون: الآية ٢]، يزجر اليتيم، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: الآية ٣]، ما هذا الدّين العظيم؟ هل هذا دينُ ذبحٍ وقتلٍ وإرهابٍ؟ هل يمكن أن نصدّق المجرمين والقتلة والإرهابيين والصّهاينة ونكذّب أعيننا؟ هذا هو القرآن الكريم وكلام القرآن الكريم وسنّة النّبيّ ﷺ لم أخرج عنهما قيد أنملةٍ من خلال تفسير القرآن الكريم، وهي واضحةٌ للعيان جميعاً، بعد الإحسان للوالدين ولذي القربى يأتي الإحسان لليتامى، وموضوع اليتامى موضوعٌ مهمٌّ جدّاً، يقول ﷻ: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾ [الفجر: الآية ١٧-١٨]، فإذا أردت رفقة النّبيّ ﷺ في مقامه الأعلى فابحث عن يتيمٍ واكفله؛ لأنّه قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»، وأشار بالسّبابة والوسطى[2].

---

(١) مجمع الزّوائد: كتاب البيوع، باب في مال الولد، الحديث رقم (٦٧٧٠).

(٢) كنز العمّال: ج٣، الحديث رقم (٥٩٩٤)، كافل اليتيم: الذي يُنفق عليه.

فجوار النّبيّ ﷺ مع الإحسان لليتيم، هذا هو الإسلام.

تبحث عن الإسلام عند المتطرّفين والإرهابيّين؟

لا، ابحث عن الإسلام هنا، ابحث عن الإسلام باليتيم، بالإحسان للوالدين، ابحث أن تكون مصدر خيرٍ وعطاءٍ، فالله ﷻ عطف ذا القربى ثمّ عطف اليتامى ثمّ المساكين، اختلف العلماء في التّفسير ما بين المساكين والفقراء، فالمساكين هم مَن يملكون شيئاً، لكنّه قليلٌ لا يسدّ رمقهم، بالنّسبة لحاجتهم من الغذاء والكساء، والمطلوب منّا للمساكين الإحسان إليهم بعد الوالدين وذي القربى واليتامى، وبعد ذلك يتابع المولى ﷻ:

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه»[1]، لقد وصّى جبريل عليه السلام النّبيّ ﷺ بالجار كثيراً.

فإن أحسن كلّ فردٍ إلى جاره أصبح المجتمع كلّه مجتمع إحسانٍ ومجتمعاً متكافلاً، لا عداواتٍ ولا مشاحناتٍ ولا طائفيّة ولا بغضاء، لم يحدّد إن كان الجار مسلماً أم لا، وإنّما لحقّ الجوار، ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إمّا أن يكونَ الجار قريباً منك؛ أي بيته قريبٌ منك بالبناء ذاتهِ أو الطّابق نفسه، أو جارٌ وقريبٌ بصلة الرّحم.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾: الجار البعيد أيضاً -ليس القريب فقط سواء بالرّحم أو بالسّكن- كما قال بعض العلماء: حتّى أربعين جاراً، فالجار الجنب أي البعيد.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: الصّاحب بالجنب هو الصّاحب بطريق السّفر، الصّاحب في العمل، الصّاحب الّذي يرافق الإنسان.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: لماذا سمّي ابن السّبيل؟ لأنّه مقطوعٌ فلا قرابةَ ولا أهلَ لهُ، انظر للتّكافل والتّضامن الاجتماعيّ، فالّذي يكون مسافراً وينقطع فهذا ابن السّبيل.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: مِلك اليمين هو حالةٌ تتعلّق بوجود الرّق، والله ﷻ وسّع مصارف الرّقّ وضيّق الخناق عليه ليصفّيه، الآن لا يوجد مِلك يمين؛ لأنّه

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، الحديث رقم (٥٦٦٩).

قد أُلغي قانون الرّقّ، تسأل لم هو موجودٌ بالقرآن الكريم؟ لأنّ القرآن الكريم صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، ما يدرينا بعد مئة عام أو مئتين أن يعود الرّقّ؟ بقانون الحروب في ذلك الوقت كان يوجد الرّقيق والجواري لذلك تحدّث القرآن الكريم عن مِلك اليمين، أمّا الإنسان فلا يأخذ كلام الله ﷻ بهواه، فكلامه ﷻ لا يخضع لهواي ولا لهواك، وإنّما يخضع لما فسّر النّبيّ ﷺ، فلا يستطيع إنسانٌ أن يعدَّ الخادمة مِلك يمين؛ لأنّ مِلك اليمين أمرٌ متعلِّقٌ بالرّقّ والعبيد والحروب والقوانين التي كانت موجودةً سابقاً في ذلك الوقت، وقد ورد هنا أنّ تصفية مِلك اليمين تُعدّ إحساناً، لأنّه كلّه جاء عطفاً على إحسانٍ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾: الاختيال يكون بالحركة، مثل الخيل عندما تتحرّك، والفخر يكون باللّسان، فالإنسان الذي يعدّد مناقبه، ويتكبّر على النّاس، قال عنه ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٣٧]، يجب أن يكون الإنسان متواضعاً مع خلق الله ﷻ، وأن يشعر بشعورهم، وليس الصّومُ إلّا مدعاةً للإحسان بشكلٍ عامٍّ، فهو صبرٌ عن الطّعام والشّراب، وهو عطاءٌ للفقراء والمساكين وإحسانٌ لهم.

الآية (٣٧): ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

الآيات السّابقة التي فسّرناها تتعلّق ببناء المجتمع، وبحركة الإنسان في المجتمع، وبالقيّوميّة التي يجب أن يعيش فيها الإنسان بالمجتمع، وعبادة ربّه، والإحسان للوالدين ولذي القربى واليتامى والمساكين والجيران الأباعد والجيران الأقارب وابن السّبيل ومِلك اليمين، بعد هذه العلاقة الاجتماعيّة الإنسانيّة هناك أمرٌ مهمٌّ يحرّك ويؤثّر سلباً أو إيجاباً على هذه العلاقة، وهو الأمر الأخطر الذي يؤثّر على علاقة الإنسان بوالديه أو إخوته أو أشقّائه أو صلة رحمه أو جيرانه أو مجتمعه، إنّه

المال، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٨]، والفتنة هي الاختبار، ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: الآية ١٩-٢٠]، لا بدّ من معالجة هذه النّزعة في الإنسان، هذه المعالجة تكون بأوامر الله ﷻ.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: تعريف البخل: هو مشقّة العطاء، أنت تجد مشقّةً في العطاء فتكون بخيلاً، تحرص على المال؛ لأنّك لا تؤمن بالله ﷻ الّذي قال لك: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: من الآية ٢٤٥]، فهو يضاعف؛ لأنّك تتعامل مع الله ﷻ ولا تتعامل مع الفقير، لذلك أقسم النّبيّ ﷺ قائلاً: «ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا»[1]، كيف يا سيّدنا يا رسول الله ما نقص المال؟ المال نخرج منه اثنين ونصف بالمئة، فإذاً هو ينقص، لا، إذا نظرت أنّك تتعامل بهذا المال مع الفقير فقد نقَص، أمّا إن كنت تتعامل مع الله ﷻ فإنّه يتضاعف أضعافاً مضاعفةً، قال النّبيّ ﷺ: «ما تلف مالٌ في بحرٍ ولا برٍّ إلّا بمنع الزكاة، فحرّزوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصّدقه، وادفعوا عنكم طوارق البلاء بالدّعاء، فإنّ الدّعاء ينفع ممّا نزل وممّا لم ينزل، ما نزل يكشفه، وما لم ينزل يحبسه»[2]، انظروا لهذا القول العظيم للنّبيّ ﷺ: «فحرّزوا أموالكم بالزكاة»، من أراد أن يحافظ على ماله فليخرج الزّكاة، وليجرّب: «وداووا مرضاكم بالصّدقه»، كيف نداوي المرضى بالصّدقة يا رسول الله؟ مثلاً: إن كان هناك إنسانٌ مريضٌ بالزّائدة ولا بدّ أن نأخذه إلى الطّبيب، أو نجري له عملاً جراحيّاً، أبالصّدقة نداويه أم بالعلاج؟ نداويه بالعلاج؛ لأنّنا مأمورون من الله ﷻ أن نأخذ بالأسباب، لكنّ الشّافي هو الله ﷻ وليس الطّبيب، ولا بدّ لنا أن نتصدّق قال ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشّعراء: الآية ٨٠].

نحن نأخذ بالسّبب؛ لأنّه علاجٌ أُمرنا به، ونتطلّع إلى الشّافي وهو الله ﷻ، كيف

---

(١) مسند البزّار: المجلّد الأوّل، مسند عبد الرّحمن بن عوف، الحديث رقم (١٠٣٢).

(٢) مسند الشّاميّين: إبراهيم بن أبي عبلة، الحديث رقم (١٨).

نتطلع إلى الشّافي؟ نتصدّق على خلق الله ﷻ، على الفقراء، فعندما نُحسِن إليهم فإنّنا نتعامل مع الله ﷻ.

فالذين يبخلون لا يتعاملون مع الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التّوبة: من الآية ٣٤]، لماذا؟ لأنّهم يكنزون ويبخلون بما فضّل الله ﷻ عليهم وبما أمرهم به، ففي المال حقٌّ للفقير والمسكين، قال ﷻ: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات: الآية ١٩]، هذا حقّ الفقير، لذلك الزّكاة تؤخذ ولا تُعطى، تقول الآية الكريمة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التّوبة: من الآية ١٠٣]، الزّكاة أخذٌ وليست عطاء، حقّ الفقير فرضه الله ﷻ، ومالُك من فضل الله ﷻ عليك.

﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾: هم لا يكتفون فقط بالبخل، بل ويأمرون النّاس أيضاً بالبخل، ويتمنّون ألّا يجدوا بين المجتمع مَن هو كريمٌ ويعطي المحتاجين؛ لأنّ البخيلَ يريد كلّ النّاس على شاكلته.

﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾: البخل لا يكون فقط بالمال، فقد يكون بالجاه، وقد يكون بالعلم، فيكتم الإنسان ما تفضّل الله ﷻ عليه به إن كان مالاً أو جاهاً أو عزّاً أو سلطاناً.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾: أعتدنا: جعلنا وأعددنا.

الآية (٣٨): ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾

ما زلنا في موضوع الزّكاة والصّدقة، والله ﷻ فرض في أموال الأغنياء ما يسع الفقراء، فلو أنّ الأغنياء في كلّ مدينةٍ من المدن أخرجوا زكاة أموالهم حقّاً، لما وُجِد فقيرٌ ولا محتاجٌ في المجتمع، وكما قال النّبيّ ﷺ: «والصّدقة برهان»[1]، هي برهانٌ

(١) صحيح مسلم: كتاب الطّهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم (٢٢٣).

على الإيمان؛ لأنّك إن قلت لأحدهم: صلِّ مئة ركعةٍ لصلّاها، ولكن إن قلت له: أخرجْ مئةَ ليرةٍ فلن يخرجها من شُحّ النّفس، فالصّدقة تصديقٌ وبرهانٌ على الإيمان.

الآن يعالج القرآن الكريم قضيّةً ثانيةً، الذين ينفقون ولكن رئاءً ونفاقاً وليس في سبيل الله ﷻ أو في سبيل الخير.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾: هناك أناسٌ ينفقون الأموال، لكنّ هذا الإنفاق يكون في سبيل السّمعة والشّهرة، والمفاخرة أمام النّاس، والنّبيّ ﷺ يقول فيما يرويه عن ربّه ﷻ: «أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عَمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1]، الله تبارك وتعالى لا يحتاج لشريكٍ، فإن أراد أحدهم أن يتصدّق على الفقراء أو المحتاجين فلا مانع لديه من الإنفاق، ولكن بالمقابل ليتكلّم وليكتب عنه النّاس -وهذا ما يعالجه القرآن الكريم- وهو بذلك يكون قد أشرك مع الله ﷻ؛ لأنّه أراد أن يُقال عنه: محسنٌ كريمٌ.

﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾: من يؤمن بالله ﷻ واليوم الآخر لا يهمّه النّاس؛ لأنّ التّعامل مع الله ﷻ، ومن يتعامل مع الله ﷻ لا ينظر لعبد الله ولا لخلق الله، وعندما تُخرج هذا المال فأنت تتعامل مع الله ﷻ، فإن كنت تعطي وتبرز زكاة مالك من أجل أن تُشيع في المجتمع الخير فهذا جيّدٌ إن كانت نيّتك هكذا، أمّا إن فعلت هذا ليُقال عنك: محسن، فأنت إذاً لا تؤمن بالله ﷻ ولا بالجزاء يوم القيامة.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾: الشّيطانُ هو المارد هو العاصي من الجنّ، فمن الجنّ مؤمنون، والجنّ مخلوقاتٌ موجودةٌ، أناقش وجودها عقليّاً وليس إيمانيّاً، نحن نؤمن بأنّها موجودةٌ؛ لأنّ القرآن الكريم أخبرنا بوجودهم: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١﴾ [الجنّ: الآية ١]، رأيناهم أم لم نرهم، أمّا إن أردت أن تناقش الأمر عقليّاً أو علميّاً نناقشك عقليّاً وعلميّاً ونقول لك: هل كلّ ما لا تراه معناه أنّه غير موجودٍ؟ هل ترى الكهرباء؟ لا تراها، لكنّك

(١) صحيح مسلم: كتاب الزّهد والرّقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، الحديث رقم (٢٩٨٥).

ترى أثرها، النّور هو أثر الكهرباء، هل ترى الجراثيم الموجودة بالغرفة التي نحن فيها؟ لا تراها، إذاً: لا تقل عن شيءٍ: إنَّه غير موجودٍ إن لم تدركه بحواسّك، فالكثير من الأشياء موجودةٌ مع أنّنا لا نستطيع أن ندركها حسّيّاً، ومع ذلك نحن نؤمن بالقرآن الكريم وبكلّ الغيب الّذي أخبر عنه الله ﷻ، لماذا؟ لأنّنا آمنّا بالله ﷻ ونحن نصدّق ما جاء في كتابه ﷻ.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾: بئس القرين الشّيطان، وهو الّذي يوسوس للإنسان بالشّرّ، والبخل، وهو الّذي يوسوس للإنسان إذا أنفق، واستمرّ على الإنفاق بإصرارٍ أن يكون في سبيل النّاس رئاءً ونفاقاً، وليس إخلاصاً لوجه الله ﷻ.

الآية (٣٩): ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

نقض الله ﷻ بهذه الآية مذهب الجبريّة وهدَمه تماماً، وهذا الدّليل ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ما كان عليك لو أنّك آمنت بالله ﷻ وباليوم الآخر؟ لا تأتي هذه الجملة إلّا إذا كنت مخيّراً بين أن تؤمن أو لا تؤمن.

وعندما نتحدّث عن الإسلام بأنّه دينٌ، والدّين لا يكون دين إجبارٍ وإنّما هو دين اختيارٍ، دين عقلٍ وحجّةٍ وبرهانٍ؛ وسلطان الدّين يأتي من الحجّة والدّليل والبرهان، ولا يأتي بالسّيف والقتل والإرهاب، لأنّك أمام قالبٍ وقوالبَ، فالقالب ممكنٌ أن تخضعه بالقوّة، وقد يسجد القالب أمامك خوفاً منك ومن سلاحك. لكن هل تستطيع أن تَدْخُل القلب وتسيطر عليه؟ لن تستطيع أن تسيطر على قلبٍ إلّا بالإقناع والحجّة والبرهان، هذا هو سلطان الدّين، سلطان الحجّة والبرهان والدّليل، وليس سلطان القوّة والقهر والإجبار كما حوّلته الحركات التّكفيريّة والمتطرّفة.

﴿لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾: ماذا كان عليهم لو أنّهم آمنوا بالله ﷻ واليوم الآخر وأنفقوا ممّا رزقهم ﷻ. وهو ﷻ عليمٌ بهم.

إذاً: كان هناك اختيارٌ لهم، وهم اختاروا عكس ذلك.

الآية (٤٠): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾

نحن نعلم أنّ الله ﷻ هو العدل المطلق، لا يظلم البشر، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصّلت: من الآية ٤٦]، ولكنّ الإنسان إمّا أن يظلم نفسه بتقديم متعةٍ عاجلةٍ على نعيمٍ دائمٍ، أو يظلم غيره، والله ﷻ في الحديث القدسيّ يقول: «يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً»[1]، ونعلم أنّ من الدّعوات المستجابة -مثلُ دعوة الصّائم حين يفطر- دعوة المظلوم، فليس بينها وبين الله ﷻ حجاب، وكما أخبرنا النّبيّ ﷺ: «يرفعها فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السّماء، ويقول الرّبّ ﷻ: وعزّتي لأنصرنّك ولو بعد حين»[2]، والله ﷻ لا يظلم أحداً.

وفي هذه الآية الكريمة يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، توقّف بعض النّاس من الذين لا يعلمون كتابَ الله ﷻ، ولا يتدبّرون القرآن الكريم فقالوا: إنّ الذّرّة ليست أصغر عنصرٍ في الكون، فمنذ سنواتٍ عدّةٍ تمّ تحطيم الجوهر الفرد بألمانيا، وحُطّمت الذّرّة وفُتِّتَتْ إلى ما هو أصغر منها نترونات وإلكترونات.. إلخ، والله ﷻ يقول في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ ويقول في سورة (الزّلزلة): ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة: الآية ٧-٨]، صحيحٌ أنّه تمّ تحطيم الجوهر الفرد، وحُطّمت الذّرّة ومنها خرج النّوّوي و.....إلخ، لكنّهم لم يقرؤوا قول الله تبارك وتعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ [يونس: من الآية ٦١]، لقد ورد في القرآن الكريم ذكر ما هو أصغر من الذّرّة، وعندما تحدّث الله ﷻ عن العدل قال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة الجنّة، باب صفة الجنّة ونعيمها، الحديث رقم (٢٥٢٦).

[الأنبياء: الآية ٤٧]، وقال ﷻ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾ [لقمان: الآية ١٦]، فالله ﷻ يحاسب الإنسان حتّى في أدقّ الأمور وهي الذّرّة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾: ﴿ مِثۡقَالَ ﴾: تعني الوزن، وتأتي من الثّقل، وترتبط بالجاذبيّة، فإن كان شيءٌ ما ثقله كبيرٌ فإنّه يسقط على الأرض بسرعةٍ، وإن كان وزنه أقلّ يكون أبطأ عند السّقوط؛ لأنّ الجاذبيّة هي التي تؤدّي إلى ما يسمّى مثقال.

والله ﷻ لا يظلم النّاس مثقال ذرّةٍ، فإن كانت مثقال ذرّةٍ من خيرٍ فإنّه ﷻ يقول:

﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا ﴾: ليس فقط يضاعفها مرّةً، بل وسبعمئة ضعفٍ وأضعافاً مضاعفة.

﴿ وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾: الله ﷻ يضاعف كما في قوله ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ﴾ [البقرة: الآية ٢٦١]، ففي عام المجاعة والقسوة الّذي مرّ على المسلمين في المدينة المنوّرة في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أتت قافلةٌ إلى المدينة، ولم يكن لأهل المدينة غذاءٌ أو طعامٌ نتيجةَ الجفاف الّذي حلَّ بهم بعد أن حُبست عنهم الأمطار، فجاء التّجّار ليشتروا تلك القافلة ثمّ ليبيعوا النّاس بأسعارٍ مرتفعةٍ، فأخذ عثمان بن عفّان رضي الله عنه القافلة بأكملها رضي الله عنه واشتراها، فجاءه التّجّار: يا عثمان، لقد اشتريت القافلة بأكملها، ونحن نريد أن نبتاع منك، ندفع لك ضعف ما دفعت في هذه التّجارة، فقال سيّدنا عثمان: لقد زادني، فقالوا له: ندفع لك ثلاثة أضعاف، فقال لهم: لقد زادني، قالوا: من الّذي زادك عن ثلاثة أضعاف؟ ندفع لك خمسة أضعاف يا عثمان، فقال عثمان: إنّ الله ﷻ زادني عشرة أضعاف، والحسنة بعشر أمثالها، وإنّني أُشهد الله بأنّني اشتريت هذه القافلة لأهبها لفقراء المسلمين بلا حسابٍ وبلا منٍّ.

علّمنا الإسلام كيف نحارب الاحتكار، احتكر سيّدنا عثمان رضي الله عنه لصالح

الفقـراء، فاشـترى القافلة كلّهـا ليمنع الاحتـكار وليتصدّق على الفقـراء، هنا يضاعف الله ﷻ الحسـنة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقـرة: الآية ٢٤٥]، لا تسـأل عـن هذه الأضعاف؛ لأنّـك تعطـي بقدرتـك، والله ﷻ يعطـي بقدرته، وعطـاء الله ﷻ ليس كعطـاء خلقه.

﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾: فـالله ﷻ فـوق هـذا العطـاء، ومـع مضاعفـة الحسـنات، سـيعطيك أجـراً عـلى هـذا العمـل، أجـراً عـلى قـدر عظمتـه، فخـذ بهـذا المقيـاس تـرى مـدى العظمـة.

الآيـة (٤١): ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

هـذه الآيـة آيـةٌ عظيمـةٌ جـدّاً، كان لعبـد الله بـن مسـعود ﷺ صـوتٌ جميـلٌ في قـراءة القـرآن الكريـم، وكان النّبـيّ ﷺ يقـول: «مـن أحـبّ أن يقـرأ القـرآن غضّاً كما أُنـزل فليقـرأه عـلى قراءة ابـن أمّ عبـد»[1]، عن عبـد الله ابن مسـعود ﷺ قـال: قال لي رسـول الله ﷺ: «اقـرأ عـليّ القـرآن»، قال: فقلـت: يا رسـول الله! أقرأ عليـك وعليك أنـزل؟ قـال: «إنّي أشـتهي أن أسـمعه مـن غيري»، فقـرأت (النّسـاء) حتّـى إذا بلغت: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ رفعـت رأسي، أو غمـزني رجـل إلى جنبـي فرفعـت رأسي، فرأيـت دموعـه تسـيل[2].

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾: جئنـا مـن كلّ أمّـةٍ بشـهيدٍ عليهـا وهـو رسـولها، جئنـا بالرّسـل كلّهـم، وبـكلّ الأمـم يـوم القيامـة، وجئنـا بـك يا محمّـد شـهيداً عـلى هـؤلاء جميعـاً، الشّـهيد عليهـم ﷺ بكـى، فكيـف بالمشـهود عليهـم؟! مـاذا علينـا أن نفعـل؟

---

(١) صحيح ابن حبّان: كتاب التّاريخ، باب إخباره: عن مناقب الصّحابة، الحديث رقم (٧٠٦٧).

(٢) صحيـح مسـلم: كتـاب صـلاة المسـافرين وقصرهـا، باب فضـل اسـتماع القـرآن وطلب القـراءة مـن حافظ للاسـتماع والبـكاء عنـد القـراءة والتّدبّـر، الحديـث رقـم (٨٠٠).

الآيـة (٤٢): ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

في هـذه السّـاعة التـي سيشـهد فيهـا النّبـيّ ﷺ عـلى الأمـم. وقـد جـاء في سـورة (البقـرة): ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقـرة: مـن الآية ١٤٣]، وتأتي هـذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ تتمّـة لهـذه الآيات، أي أنّ الله ﷻ سـيأتي بالرّسـل والأنبيـاء شـهداء عـلى كلّ الأمم يـوم القيامة، ويـأتي بالنّبيّ ﷺ وهو الشّـهيد الّـذي سيشـهد عـلى الأنبيـاء كلّهـم وعـلى الأمـم كافّـة وعـلى الخلائـق في ذلـك اليوم العظيـم، وحينئـذٍ يـودّ الذين كفـروا وأشركوا بالله ﷻ، وعصـوّا الرّسـول، وخالفوه، وحاربـوه، ونابـذوه، وآذوه: ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أن تسـوّى؛ أي أن يكونـوا تحـت الأرض، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ولا يسـتطيعون كتـمان ما فعلـوا؛ لأنّ الله ﷻ مطّلعٌ عـلى الأعـمال والسّرائر.

بعد ذلك تأتي آيةٌ تتعلّق بالأحكام المتدرّجة في تحريم الخمر:

الآيـة (٤٣): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

علينـا أن ننتبـه لأمـرٍ، عندمـا يحـرّم القـرآن الكريم أمـراً ما، فـإن كان الأمـر عقديّاً لا يـأتي بالتّدريج، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة: الآية١٦٣]، ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النّسـاء: من الآيـة ٣٦]، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ [الصّمـد: الآيـة ١-٢]، الأمـور المتعلّقـة بالعقيـدة تـأتي مبـاشرةً لا تدريج فيهـا، أمّـا ما ألِفـه النّاس فيـأتي تحريمه تدريجيّـاً حتّى يُخـرجَ النّاس من إلـف ما اعتادوا عليـه، فكان الخمر بالنّسـبة إليهم كالمـاء فجاء قولـه ﷻ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ

﴿وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٩]، أوّل الأمر بيّن أنّ فيهما إثماً كبيراً، ترك الأمر، كلفت نظرٍ للنّاس، بعد ذلك وبعد أن فُرضت الصّلاة جاءت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، إذاً: العلّة التي بيّنها القرآن الكريم سبباً لتحريم الخمر تحريماً مشدّداً هي ذهاب العقل؛ لأنّ الإنسان لا يعلم ما يقوله عندما يشرب الخمر، وبعد ذلك نُسخت هذه الآية وجاءت آية التّحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: الآية ٩٠]، والاجتناب أشدّ من التّحريم؛ لأنّه عندما أقول لك: اجتنب أمراً، يختلف ذلك عن قولي: حرّمت عليك هذا الأمر، فحرّمت عليك هذا الأمر يمكن أن يكون الأمر أمامك، أمّا إن قلت: اجتنب هذا فأنت لا تسير حتّى في الطّريق الّذي يوجد فيه، تجتنب كلّ الوسائل والأساليب الموصلة إليه، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: من الآية ٩٠]، أي ابتعدوا عن كلّ الطّرق والسّبل المؤدّية إليه، وهو محرّمٌ كما حرّم الرّجس من الطّاغوت.

الآية هنا كانت آية تدرّجٍ في تحريم الخمر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾: هي بدايةُ تعويدِ النّاس على ترك الخمر قبل أن ينزلَ التّحريم القاطع باجتنابه.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾: عابرو سبيلٍ أمام المسجد؛ أي لا يجوز أن تدخلوا المسجدَ وتقربوا الصّلاة وأنتم في حالة جنابةٍ حتّى تغتسلوا، هذا من النّظافة ومن الطّهارة التي أمر بها الإسلام.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: ومن هذه الآية نأخذ أحكام التّيمّم.

الآية (٤٤): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

هـذه الآية بـدأت الحديث عـن اليهود في المدينـة الذين واجهوا الإسـلام، وواجهوا النّبـيّ ﷺ بالمكـر والتّآمر والخداع وكلّ أنواع الغبن والإسـاءة للمسـلمين وللنّبيّ ﷺ.

سـيقول القائـل: إنّ الآيات الثّلاث والأربعـين الأولى كانت تتحـدّث عن الأحكام المتعلّقـة بالمرأة والمـيراث والأيتام وحرمة النّسـب وحرمـة الرّضَاعة وحرمـة المصاهرة بالنّسـبة للزّوجـات.. وكلّ هـذه الأمـور، فما الّـذي أتى مبـاشرةً إلى موضـوع اليهود؟ إنّـه المثـال، فـالله ﷻ عندمـا تحـدّث عن الأحـكام، وعـن الشّرائـع فإنّـه يقـدّم للنّاس المثـال عـن الّـذي عـصى، الّـذي نـزل عليـه التّـوراة ونـزل عليـه كلام الله ﷻ فمكـر وغـدر ولم ينفّـذ أوامـره ﷻ، هـذا المثـال عـن العـاصي لأوامـر الله ﷻ، وما جـاء من أحـكامٍ لهـم في ذلـك الوقت.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الحديث للنّبيّ ﷺ.

﴿نَصِيبًا﴾: جزءاً، أي أخذوا جزءاً منه وليس كلّه، فبعضهم أسلم مثل عبد الله بن سلام وكعب الأحبار؛ لأنّهم وجدوا كلّ صفات الرّسول في التّوراة.

وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ من المولى ﷻ للنّبيّ ﷺ، وقد ذكرنا سابقاً أنّ الرّؤيا تُطلَق على الأمر الحسّيّ لرؤية العين، كقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: الآية ١]، النّبيّ ﷺ كان في بطن أمّه السّيّدة آمنة عندما حدثت حادثة الفيل، هو لم ير بعينه، لكنّ الله ﷻ هو الّذي أخبره، وإخباره ﷻ أصدق من الحواسّ، التي هي مخلوقات الله ﷻ، يُقَال: «ليس مع العين أين»، ومعنى ذلك: فإنّك عندما تقول: رأيت فلاناً وهو يسرق، الرّؤية لا تحتاج إلى دليلٍ وشاهدٍ، فهي دليلٌ قاطعٌ، لكن إن قلتَ: سمعت، فالسّمع يحتاج إلى التّأكيد والتّوثيق، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فكأنّ الله ﷻ يقول: كأنّك رأيت يا محمّد، وكأنّك شاهدت؛ لأنّ القول جاء من الخالق ﷻ الّذي لا تخفى عنه غائبةٌ في السّماوات ولا في الأرض.

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: لماذا اشتروا الضّلالة؟ لأنّهم باعوا الإيمان والتّوراة وما ورد فيها، وأوامر الله ﷻ التي طَلبت منهم أن يؤمنوا بالنّبيّ محمّد ﷺ، باعوها واشتروا مقابلها الضّلالة، لذلك اختصرها المولى ﷻ مباشرةً فقال: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، والضّلال يعني أن يحيد الإنسان عن الطّريق السّويّ، وهم لم يكتفوا فقط بأنّهم اشتروا الضّلالة وباعوا الإيمان، لكنّهم يريدون أيضاً أن تضلّوا السّبيل؛ أي فوق ضلالهم يريدون أن يُضِلّوا الآخرين وأن يشكّكوا بالإيمان والإسلام وبأحكام الشّريعة وبما جاء به محمّد ﷺ، هذا ما فعله اليهود.

الآية (٤٥): ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

اليهود كانوا يظهرون الودّ والتّحالف مع المسلمين من خلال دستور المدينة الّذي تمّ وضعه عند دخول النّبيّ ﷺ إلى المدينة المنوّرة، وهذا الدّستور احترم أهل الكتاب وكلّ العقائد الأخرى لكن شريطة ألّا يتآمروا مع المشركين، ولكنّهم فعلوا ذلك في غزوة الأحزاب.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ﴾: قد يبدو لك أنّه صديقٌ ومحبٌّ، لكنّ الله ﷻ أعلم بمن هو العدوّ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾: كفى بالله وليّاً إن تولّاك، والوليّ هو الّذي يقوم مقامك، ويدافع عنك، وكفى به نصيراً ﷻ.

الآية (٤٦): ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: هادوا أي اليهود.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: الكلام الّذي كان النّبيّ ﷺ يقوله، أو الّذي ورد في التّوراة يحرّفون معناه، أو يأتون بكلامٍ ملتبسٍ يحتمل أكثرَ من معنى، فالإنسان الّذي

يستخدم دائماً كلماتٍ ملتبسة يصبح أمامه مجالٌ ليقول: أقصد هذا ولا أقصد هذا.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: انظروا لدقّة القرآن الكريم، هل هم قالوا: سمعنا وعصينا؟ لا، قالوا: سمعنا، لكن في قلوبهم قالوا: عصينا، والقائل هنا هو الله ﷻ، هذه الآية معجزةٌ! لماذا؟ لأنّه لو كان الّذي يكتب القرآن بشراً فلن يستطيعَ أن يأتي إلّا بالقول الظّاهر المسموع، أمّا القول الباطن فلا يستطيع أحدٌ أن يأتي به إلّا عالم السرّ والخفايا.

فقد أخذوا الكلام الّذي يقوله النّبيّ ﷺ وقالوا أمامه: سمعنا، ولكن في قلوبهم قالوا: عصينا، فقال الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾؛ لأنّه ﷻ يعلم ما في القلب، ولا يمكن لأحدٍ غيره قول هذا.

﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾: أي غير مسموعٍ، ولن يُسمَع هذا الكلام ولن يؤخذ به، هذا ما كانوا يقولونه في قلوبهم.

﴿وَرَٰعِنَا﴾: من الرّعونة والطّيش.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾: استخدموا كلاماً يحمل أكثر من تأويلٍ وأكثر من معنىً.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: أي قولوا: كلاماً واضحاً وصريحاً، سمعنا وأطعنا بقلوبنا، وليس سمعنا وعصينا في القلب.

﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾: وانظرنا: أي أمهلنا، وليس راعنا، ويأخذونها بمعنى الرّعونة، يأخذون بين هذا وبين ذاك.

﴿لَّكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: لو قالوا هذا بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ دون أن يحتمل أكثر من معنى، لكان خيراً لهم وأقوم، لكن لعنهم الله ﷻ وطردهم من رحمته، لماذا؟ بكفرهم، كما قال ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٨].

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أي قليلٌ منهم، كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار... وغيرهما.

الآية (٤٧): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

نحن نزّلنا القرآن الكريم مصدّقاً لما معكم؛ لأنّ الله ﷻ واحدٌ، قال ﷻ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣].

﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾: آمنوا بما نزّلنا في القرآن الكريم، مصدّقاً لما معكم.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: هنا وعيدٌ وتهديدٌ، نمحي هذه الوجوه فنردّها على أدبارها فتصبح مقلوبةً.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ﴾: من هم أصحاب السّبت؟ هم من اليهود -وستأتي آيات تتعلّق بأصحاب السّبت- وقد منعهم الله ﷻ من العمل في هذا اليوم، أي يوم السّبت، ليبتليهم بسبب كثرة جحودهم، فكانت حيتانهم تأتي شرّعاً يوم سبتهم من أجل أن يغريهم الله ﷻ في يوم راحتهم، فأرادوا أن يحتالوا على شرع الله ﷻ فوضعوا أسلاكاً لتحجزَ الأسماك التي تأتي يوم السّبت، وفي اليوم التّالي تكون موجودةً فيصطادونها، هذا احتيالٌ على شرع الله ﷻ، وكان من الأفضل لهم لو أنّهم التزموا أوامر الله ﷻ وصبروا عليها، ولم يصطادوا يوم السّبت لكان الله ﷻ رزقهم يوم الأحد، لكنّهم كانوا بقيّة أيّام الأسبوع لا تأتيهم الأسماك ابتلاءً لهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: الله ﷻ وحده أمره مفعولٌ، وهو الفعّال لما يريد بمجرد أن أمرَ، يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: الآية ٨٢]، إذاً أمره مفعولٌ ومنتهٍ؛ لأنّه ﷻ لا يتغيّر، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: من الآية ١١].

الآيـة (٤٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

هذه الآية من الآيات الثّماني التي ذكرها عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، وذكرناها سابقاً.

يقـول النّبـيّ ﷺ: «من قال: لا إلـه إلّا الله دخل الجنّـة»[1]، انظر لعظمة هـذا الدّين، فـلا يجعـل أحدٌ من نفسـه قاضيـاً على النّـاس ويقـول لهذا أنـت كافرٌ، وأنت سـتدخل الجنّة، وأنـت إلى النّار.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾: لأنّ قمّة العقيدة قول: لا إله إلّا الله.

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾: يجـب عـلى الإنسـان ألّا يقنط من رحمـة الله ﷻ مهما فعـل مـن الذّنوب، ومهـما ارتكب من الآثـام والمعـاصي، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزّمـر: الآيـة ٥٣]، فـالله ﷻ قريـبٌ يُجيـب دعـوة الداعـي، لكنّ المهـمّ أن يعزم الإنسـان عـلى ألّا يعـود لمقارفـة الإثـم، فقد قـال أبو الأسـود الدّيـلي: إنّ أبـا ذرّ رضي الله عنه حدّثه قال: أتيـت النّبـيّ ﷺ وعليـه ثـوبٌ أبيضُ وهـو نائمٌ، ثـمّ أتيته وقد اسـتيقظ فقـال: «ما من عبـدٍ قـال: لا إلـه إلّا الله ثـمّ مـات عـلى ذلـك إلّا دخل الجنّـة»، قلـت: وإن زنـى وإن سرق؟ قـال: «وإن زنـى وإن سرق»، قلـت: وإن زنى وإن سرق؟ قـال: «وإن زنى وإن سرق»، قلـت: وإن زنـى وإن سرق؟ قـال: «وإن زنـى وإن سرق عـلى رغـم أنـف أبي ذرّ»، وكان أبـو ذرّ إذا حـدّث بهـذا قـال: وإن رغم أنـف أبي ذرّ[2]، ومعنى هذا الحديث بأنّـه: إن زنـى وإن سرق، وتـاب مـن الزّنـى ومـن السّرقـة فـإنّ الله ﷻ يقبـل التّوبـة عـن عبـاده؛ لأنّـه ﷻ فاتحٌ بـاب التّوبـة أمامهم، فلا يتشـدّد إنسـانٌ ويجعل من نفسـه قاضيـاً عـلى النّـاس ليحاكمهـم بأفعالهـم وأعمالهـم، فـلا تـدري لعـلّ هـذا الشّـخص يكـون أقـرب إلى الله ﷻ منـك، وقـد يتـوب بعـد يـومٍ أو يومـين، لا أحـد يعلـم إلّا

(١) صحيح ابن حبان: كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، الحديث رقم (١٦٩).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الثّياب، باب الثّياب البيض، الحديث رقم (٥٤٨٩).

الله ﷻ. وهو غفورٌ رحيمٌ، ورحمته سبقت غضبه ووسعت كلّ شيء، وديننا دين الرّحمة، فنحن نبدأ القرآن ببسم الله الرّحمن الرّحيم، وبقوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: الآية ٢]، فهو ربّ كلّ البشريّة وكلّ النّاس، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧].

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾: ذنباً كبيراً وعظيماً، وهذا إثمٌ كبيرٌ ليس معه توبة إلّا أن يجدّد إيمانه بالله ﷻ ويلغي الشّرك الّذي يشركه به.

الآية (٤٩): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾

وهذه آيةٌ عامّةٌ لكلّ النّاس، وليست فقط لليهود والمنافقين الذين كانوا في المدينة المنوّرة، فالله ﷻ يخاطب نبيّه الكريم بألّا تزكّوا أنفسكم، ويجب على الإنسان ألّا يُعجبَ بنفسه وبعمله ويزكّي نفسه، ويتألّى على الله ﷻ بأنّي فعلت هذا وفعلت ذلك، أنت لم تفعل لله ﷻ، فصيامك وصلاتك وصدقتك لا تزيد من ملك الله ﷻ ولا تنقص من مُلكه شيئاً، والله ﷻ يقول في الحديث القدسيّ: «يا عبادي، إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»[1]، فلا يزكّي أحدٌ نفسه على الله ﷻ ويتألّى عليه، وهناك دائمًا أعمالٌ خالصةٌ لوجه الله تبارك وتعالى، فلنكثر من الأعمال التي تزكّينا عند ربّنا ﷻ ولا نزكّي أنفسنا أمام النّاس ونعمل العمل ليقال عنّا: قد فعلنا كذا.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: الله ﷻ هو العدل المطلق، ولا يظلم إنساناً شيئاً، يقول تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: الآية ٧-٨].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

الآية (٥٠): ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

هؤلاء الذين يفترون ويكذبون على الله ﷻ هم اليهود والمنافقون.

الإثم المبين: أنّهم كانوا يكذّبون ويحرّفون الكلم عن مواضعه، ويحرّفون أوامر الله ﷻ، ويكذّبون ويبدّلون ويحرّفون في آياته ﷻ، وهذا إثمٌ عظيمٌ ومبينٌ.

الآية (٥١): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: القرآن الكريم يتحدّث عن اليهود، وما فعلوه وما تآمروا عليه عبر تاريخهم وزمانهم، ويخبرنا عن حقدهم على دعوة رسول الله ﷺ، وعلى الخير لكلّ البشر، فهم ناصبوا السّيّد المسيح عليه السلام العداء، كما ناصبوا الرّسول محمّد ﷺ وكلّ دعوات الخير العداء كما قال ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٨]، العلّة دائماً هي العدوان والمعصيّة، وهذا هو سلوك اليهود منذ بدء البعثة المحمّديّة، وأكثر التّآمر الّذي حدث في تاريخ هذه الأمّة، والذي مزّق أوصالها إنّما هو من فعل اليهود منذ الفترات الأولى، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الأمور ورصدها، ونحن هنا نتحدّث عن دينٍ، وليس عن وقائعَ سياسيّةٍ أو تاريخيّةٍ؛ وإنّما هو دينٌ يُدان به، وعقيدةٌ نؤمن بها، فهم الذين اعتدوا وهم الذين نكثوا كلّ العهود والمواثيق مع سيّدنا رسول الله ﷺ، فعندما يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: ومع أنّهم يُعدّون مؤمنين بالله ﷻ؛ لأنّهم أهل كتابٍ سماويٍّ، إلّا أنّهم كانوا يتحاكمون إلى التّماثيل والأصنام التي كانت تؤمن بها قريش؛ مسايرةً لهم، ومن أجل الحرب على سيّدنا رسول الله ﷺ.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: فقد كان في قريش صنمان؛ أحدهما يُدعى الجبت، والثّاني الطّاغوت، فأصبح اليهود يعبدونهم، ويُقال أيضاً: الجبت:

كلّ ما يتعلّق بالإشراك بالله ﷻ، والطّاغوت: كلّ ما يتعلّق بالطّغيان وزيادة الطّغيان والظّلم.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾: هذا حال المنافقين واليهود والّذين كانوا يؤمنون بالجبت والطّاغوت، يشركون بالله ﷻ بعبادتهم لهم أو بعبادة شهواتهم وأهوائهم واعتقادهم بأنّ فلاناً ينفع ويضرّ، وهذا إشراكٌ بالله ﷻ، كما قال النّبيّ ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمّتي الشّرك والشّهوة الخفيّة»، قلت: يا رسول الله! أتُشرك أمّتك من بعدك؟ قال: «نعم، أَمَا إنّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم»[1]، فأحياناً يدخل الإنسان في هذا الأمر عندما يرائي ويُنافق ويعمل العمل لغير وجه الله ﷻ، وإنّما ليُزكّي نفسه، أو أنّه يعتقد أنّ فلاناً يضرّ وينفع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحيي ويميت... إلخ.

ونحن نكرّر دائماً هذا الحديث الشّامل النّافع الحاوي كلّ عوامل الإيمان والاطمئنان والأمن والسّلام لراحة وسكينة المؤمن والإنسان بشكلٍ عامٍّ، عندما أردف النّبيّ ﷺ خلفَه ابن عمّهِ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما وقال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرّخاء يعرفك في الشّدّة، واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أنّ الخلائق لو اجتمعوا على أن يُعطوك شيئاً لم يُرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئاً أراد الله أن يُصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يُسراً، واعلم أنّ القلم قد جرى بما هو كائنٌ»[2]، ما أعظم هذه الكلمات التي تبعث الطّمأنينة والرّاحة والسّكينة والهدوء والسّلام النّفسيّ والدّاخليّ للإنسان الّذي يعيش في ظلال القرآن الكريم، وفي ظلال الإيمان والرّحمة والعطاء الإلهيّ الدّائم، ما أحوجنا إلى كتابنا وإلى قرآننا وإلى هديّ رسولنا ﷺ وسنّته.

---

(١) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: المجلّد الثّالث، ص ٢٥٩، الحديث رقم (٥٢٢٦).

(٢) المعجم الكبير للطّبرانيّ: أحاديث عبد الله بن عبّاس، الحديث رقم (١١٢٦٥).

فاليهود اتّخذوا سبيل المشركين، ومالؤوا المشركين واتّفقوا معهم في مكّة، وكان مركزهم الأساسيّ في المدينة المنوّرة.

الآية (٥٢): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

أولئك هم المشركون من قريش ومن الجزيرة العربيّة ومن اليهود الذين لعنهم الله ﷻ، ولعنته ﷻ تعني الطّرد من رحمته ﷻ والخزي والإهلاك.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ﴾: أخزاهم الله ﷻ وطردهم من رحمته بمعصيّتهم واعتدائهم على النّاس وكذبهم على التّوراة وتحريفهم لها، وإشعال نيران الحروب التي أطفأها الله تبارك وتعالى من جرّاء حقدهم على رسالة سيّدنا رسول الله ﷺ، ومن ثمّ على العرب جميعاً.

﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾: لأنّ الله ﷻ إذا طرد أحداً من رحمته وأخذه بذنوبه فلن يستطيع أحدٌ الوقوف في وجه قدرة الله ﷻ.

متى يكون الوقوف في وجه القدرة؟ عندما تكون القدرة بشريّةً، يمكن أن تستعين بأحدٍ عليها، أمّا إن كانت القدرة إلهيّةً فمن يلعنه الله ﷻ ويطرده من رحمته ويخزيه فلن تجد له نصيراً.

الآية (٥٣): ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

يتحدّث الله ﷻ هنا عن بخلهم وعن إمساكهم عن أيّ عملٍ خيّرٍ أو عملٍ فيه معروفٌ، ولو أعطاهم الله ﷻ نصيباً من المُلك والمال والعطاء فلن يؤتوا النّاس نقيراً، والنّقير: هو الشّيء التّافه، يقول جلّ وعلا: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: الآية ٥٣]، حتّى لو كانت خزائن الله ﷻ بين أيديهم لبخلوا؛ لأنّهم جُبلوا على حبّ المال الّذي هو ديدنهم، وهذا ما نراه من اليهود شعب بني إسرائيل عبر كلّ التّاريخ، لذلك فالله ﷻ بيّن للنّاس جميعاً بأنّ المعيار ليس هو المعيار الماليّ، وإنّما هو المعيار الّذي يكون فيه الإنسان بخيرٍ أو بشرٍّ؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ [الفجر: الآية ١٠٠]، أوّل كلمةٍ في الجواب على هذا: ﴿كَلَّاۖ﴾، ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر: الآية ١٧-٢٠]، إذاً: أربعة أمورٍ ليست هي المعايير: الحالة الأولى: أنّ الله ﷻ أعطاني المال -انظروا لدقّة الأداء القرآنيّ- يقول ﷻ: ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ أي أنّ العطاء ابتلاءٌ؛ لأنّ الله ﷻ يريد أن يرى أثر هذه النّعمة على خلقه، فإذا ميّز وفضّل إنساناً أو أعطاه فلا يعتقدنّ أنّ هذا تكريمٌ من الله ﷻ له، وأمّا الحالة الثّانية: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ قتّر عليه رزقه وكان فقيراً: ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ هو لم يهنه، والجواب ﴿كَلَّاۖ﴾؛ لأنّ المعايير والمقاييس التي قستم بها معايير خاطئة وغير صحيحةٍ وغير دقيقةٍ؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ إذا أعطاكم؛ لأنّ العطاء يكون بإكرام اليتيم، ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ وبإعطاء المسكين والحضّ على إطعامه. لا يكفي أنّك تعطي الفقير بل يجب عليك أن تكون عنصراً فاعلاً تحضّ النّاس على إعطاء الفقراء، والمساواة بين النّاس، وتوزيع الثّروة بينهم، التي أرادها ﷻ أن تكون لكلّ البشر، فخلق هذا غنيّاً وخلق هذا فقيراً، وفرض في مال الغنيّ ما يسع الفقير، وهذا من ابتلاء الله ﷻ، فعندما يقول: ﴿كَلَّاۖ﴾، فالمراد أنّ المعيار الذي قستم به الأمور خاطئ، ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، ونحن نجد -وخصوصاً في المحاكم الشّرعيّة- مشكلات الميراث هي أكثر المشكلات الموجودة في المجتمع، بسبب وجود أناسٍ يحبّون أن يأكلوا المال وحِصص البنات والأخوات والأمّهات، وقد حدّد الله ﷻ المواريث في أول سورة (النّساء)، وحدّد حصّة المرأة.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾، الحبّ: هو تعلّق القلب بشيء، وعبّر عنه القرآن الكريم بهذا الشّكل، بالحبّ العظيم للمال، فالإنسان بخيلٌ لا يعطي، والله ﷻ يريد أن يرى أثر النّعمة، ويريدُ إذا أعطاك أن تعطي المحتاجين، وأن يشعر الإنسان بشعور الفقراء والأيتام والمساكين والمحتاجين في مجتمعه، وليس أن يعيش متنعّماً في قصرٍ ويرى الآخرين في حاجة، لذلك علّق النّبيّ ﷺ الإيمان على أمرٍ خطيرٍ ومهمٍّ،

وقد بيّنته سابقاً في حادثةٍ رواها لي أحد الأشخاص، حيث تقول هذه الحادثة: بأنَّ شخصاً يقوم اللّيل دائماً، ويقرأ القرآن الكريم، ويتمنّى أن يرى النّبيّ ﷺ في الرّؤيا، وفعلاً رأى في الرّؤيا مكاناً عظيماً يجلس فيه وقيل له: إنّ النّبيّ آتٍ، لكنّه لم يأت، وإنّما سمع صوتاً يقول له، قال النّبيّ ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به»[1]، الصّلاة وحدها لا تكفي، والمحبّة بلا عملٍ لا تُفيد، هذا يحتاج إلى ترجمانٍ.

هذا تفسير هذه الآية، والحديث عن اليهود، عن أولئك المجرمين القتلة المعتدين الذين كانوا في المدينة المنوّرة.

الآية (٥٤): ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

يحسدون المؤمنين والمسلمين على ما آتاهم الله ﷻ من نعمة الرّسالة المحمّديّة، فما هو الحسد؟ هذا موضوعٌ يؤمن به كلّ النّاسِ، حتّى لو لم يؤمنوا بالإسلام ولا بما ورد في القرآن الكريم، وهم دائماً يخافون منه، ويقول أحدهم: أصابتني عين.. وكلّ هذا الكلام صحيحٌ، وسأتعرّض له علميّاً وليس فقط إيمانيّاً.

كان النّبيّ ﷺ لا ينام حتّى ينفث بـــ (المعوّذتين) وسورة (الإخلاص) وهي علاجٌ من الحسد.

وفي الآية السّابقة كنّا نتكلّم عن شعب بني إسرائيل، الّذين كانوا يتعلّقون بالمعنويات والقيم والماديّات، ويحبّون أن تكون النّعمة لديهم، والحسد: هو تمنّي زوال النّعمة عن الغير حتّى لو أنّها لم تعد إليك، وهذا مرضٌ، فما تحليل مرض الحسد؟

كلّ العداوات قد تُرجى سلامتها
إلَّا عداوة من عاداكَ من حسد

لماذا؟ لأنّه عبارةٌ عن حقدٍ وتمرّدٍ على المُنعِم وعلى الخالق ﷻ.

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾: النّعمة التي تأتي للإنسان هل هي إلّا من عطاء الله ﷻ وفضله ﷻ؟

يقول جلّ وعلا: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النّحل: من الآية ٥٣]، الحسد هو نتيجةٌ للحقد، وتحليله من النّاحية العلميّة أنّ الإنسان عندما يختلج في صدره حقدٌ على نعمةٍ عند أحدٍ، يرى عنده مالاً أو جاهاً أومنصباً أو نجاحاً أو تميّزاً فيحقد عليه، ممّا يُحدث في جسمه تفاعلاتٍ كيميائيّةٍ -تماماً مثل الحزن وهو أمرٌ معنويٌّ، وبنتيجته يرتفع ضغط الدّم ومعدّل السّكّر في الجسم- فتخرج من العين نتيجة هذه التّفاعلات إلكترونات أو ما شابه، فتصيب المحسود، لكن ما ذنب المحسود؟ الحسد مثل داءٍ أو مرضٍ مُعدٍ (كوليرا أو غير ذلك)، يُصيب الإنسان ثمّ ينقل العدوى لآخر، فأوّل ما يصيب الحسد صاحبه كما يقولون في المثل: (لله درّ الحسدِ ما أعدلَه بدأَ بصاحبهِ فقتَله).

فاختلاج الحقد داخل النّفس والصّدر يميت هذا الحسود المبغض الحاقد غيظاً وكيداً، لذلك فالعلاج الإيمانيّ للإنسان من أجل ألّا يحسد هو قوله: «ما شاء الله لا قوّة إلّا بالله»، أمّا علاج المحسود فهو قراءة (المعوّذتين) وسورة (الإخلاص).

والحسد أمرٌ واقعٌ، وخطره يكمن في أنّه ردٌّ لقدر الله ﷻ في خلقه، وذكرنا أنّ اليهود حسدوا المؤمنين؛ لأنّ الرّسالة نزلت في العرب ومن نسل سيّدنا إسماعيل عليه السلام وعلى قلب رسول الله ﷺ.

﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾: هذا جوابٌ لليهود، فمن هم آل إبراهيم؟ سيّدنا إبراهيم عليه السلام عنده ولدان إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، أتاه من إسحاق يعقوب، ومن يعقوب يوسف والأسباط، ومنهم جاء سليمان وداود وموسى وعيسى عليهم السلام، كلّ الأنبياء أتوا من هذا الفرع، فرع آل إبراهيم، لذلك يقال: الدّيانات الإبراهيميّة، من آل إبراهيم فرع إسحاق، وعندما جاء النّبيّ محمّد ﷺ من العرب ساء ذلك اليهود، لذلك عندما نتحدّث عن القوميّة العربيّة وعن ارتباط العروبة بالإسلام، وأنّ القرآن الكريم هو الّذي حفظ اللّغة العربيّة والقوميّة العربيّة، فهذا الأمر واضحٌ وصريحٌ في كتاب الله تبارك وتعالى.

﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ : فقد أعطي الزّبور لداود عليه السلام، والإنجيل لسيّدنا عيسى عليه السلام، والتّوراة لسيّدنا موسى عليه السلام.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: هي أقوال وأفعال الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾: كسليمان وداود عليهما السلام، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النّمل: الآية ١٥]، ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ: الآية ١٠]، هؤلاء كلّهم من نسل سيّدنا إبراهيم عليه السلام، نسل إسحاق ويعقوب أي إسرائيل، كلّ هذا المُلك العظيم أُعطي لهذا الفرع، لكنّ القرآن الكريم ونزوله على قلب النّبيّ ﷺ هو أكبر عطاءٍ للبشريّة إلى أن تقومَ السّاعة، وهو من الفرع الآخر، أي فرع سيّدنا إسماعيل عليه السلام.

الآية (٥٥): ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾

بعضهم مؤمنون، وهذا قانون صيانة الاحتمال؛ لأنّ كعب الأحبار وعبد الله بن سلام من اليهود لكنّهم أسلموا وآمنوا وكانوا مع النّبيّ ﷺ.

﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾: انظر لهذا التّقريع وهذا الوعيد، فهم لم يكتفوا بعدم الإيمان، بل وصدّوا عن رسالة سيّدنا رسول الله ﷺ، وكلّ ما يجري من جرائم وقتلٍ، هو للصدّ عن هذه الرّسالة، رسالة الرّحمة، وللصّدّ عن سبيل الله سبحانه وتعالى، وهذا منذ زمن اليهود في المدينة المنوّرة حتّى هذه اللّحظة، ففي كتاب الله سبحانه وتعالى مساحةٌ واسعةٌ تتعلّق بشعب بني إسرائيل، وبموسى عليه السلام، الّذي هو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم، شيخ أنبياء بني إسرائيل. لماذا؟ لأنّنا يجب أن نعلم جميعاً أنّ بلاء الأمم من شعب بني إسرائيل حتّى هذه اللّحظة.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾: هو تهديدٌ ووعيدٌ لأولئك الذين وقفوا في وجه الرّسالات السّماويّة التي هي إشعار الخير للبشريّة جمعاء.

الآيـة (٥٦): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾

يجب أن نتوقّف عند هذه الآية علميّاً، ويجب أن نحلّلها وعندما نزلت هذه الآية كيف كانت العلوم الطّبيعيّة والفيزيائيّة والكيميائيّة والتّشريح المرضيّ؟ وكيف أصبحت؟ القرآن الكريم معجزٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وهو كتاب هدايةٍ للبشريّة، وفيه إشاراتٌ علميّةٌ مكتنزةٌ لا تتصادم مع العقول البشريّة وقت النّزول، وإنّما تستوعب العلم عندما يتطوّر، فلا يوجد تناقضٌ مع العلم، وهذه الآيات تدلّل على ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾: سيكون مآلهم إلى جهنّم ويصليهم المولى ﷻ النّار، لكن لماذا قال ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؟ وكأنّ الإشارة القرآنيّة إلى أنّ الألم يأتي للنّفس الواعية من الجلد وليس من المخّ، فعندما يُخدّر المريض يتمّ إجراء العمل الجراحيّ للعضو المصاب دون أن يشعر بالألم؛ لأنّ التّخدير تمّ للنّفس الواعية، فالإحساس بالألم يكون من جرّاء شعيراتٍ حسيّةٍ موجودةٍ في الجلد، هذا ما أثبته العلم، بدليل أنّه في بداية الحقن تشعر بوخزة الألم بسبب تلك الشّعيرات، فالجوارح آلاتٌ توصل الألم للنّفس الواعية، وهذا لم يكن معروفاً علميّاً إلّا في العصر الحديث، لاحظوا الإشارة العلميّة، والدّقّة في القرآن الكريم عندما قال: ﴿بَدَّلۡنَـٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ ليشعروا ويذوقوا الألم، وذلك لا يكون إلّا من خلال الجلد، فإذا احترق الجلد ذهبت هذه الشّعيرات باحتراقه فتُبدَّلُ الجلودُ جلوداً غيرها، وهذا سبقٌ علميٌّ مُكتَنزٌ في كتاب الله ﷻ، لكنّه وقت النّزول لم يصادم العقل البشريّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾: العزيز: الذي لا يُغلب، وهو حكيمٌ: لأنّه يضع الأمور في نصابها، فعندما يُعذَّبُ الإنسان لا يُعذَّب إلّا بما ظلم وكفر، وبما ارتكب، فلا يُعذَّب الإنسان في الآخرة إلّا بمقتضى الحساب العادل، كما

قال جلّ وعلا: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧]، وفي مقابل ذلك دائماً توجد الصّورة المشرقة.

الآية (٥٧): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

عندما تحدّث المولى ﷻ عن جهنّم والّذين كفروا قال: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾، بينما عندما تحدّث عن الجنّة قال جلّ وعلا: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، فاستخدام ﴿سَوْفَ﴾، أي كأنّ هناك وقتاً، أمّا استخدام (السّين) ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ فهذا يعني أنّها قريبةٌ؛ لأنّ الجنّة دائماً تكون قريبةً من المؤمن، بينما يشعر الكافر والذي يُمارس الشّرور على الأرض بأنّ هناك أمداً طويلاً، وكأنّ الموت لن يطرق بابه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿جَنَّٰتٍ﴾: الجنّة: من جنّ أي ستر، وهي غابةٌ كثيفةٌ من الأشجار تستر ما تحتها من كثافة أغصانها، هذا المعنى اللّغويّ لكلمة الجنّة، وعادةً عندما تُوضع كلمةٌ في اللّغة العربيّة أو في أيّ لغةٍ في العالم اسماً لشيء ما يكون هذا الشّيء معروفاً وموجوداً، ويعيه الإنسان، ولكن عندما توضع العبارة لأمرٍ غيبيٍّ لا يُعرف يقول الله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرّعد: من الآية ٣٥]، فمثلاً لو قلت كلمة التّلفاز، ولم يكن قد اختُرع بعد، لا يمكن أن تتصوّر ما هو التّلفاز، وعندما تقول: جنّة، فالنّبيّ ﷺ قال عن الجنّة: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ»[1]، طالما فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، فإذاً الاسم مثل الجنّة وليست هي الجنّة بذاتها، لذلك نردّ على أولئك الذين يتحدّثون عن الحور العين وعن الأزواج المطّهرة -هذه التّفاصيل الغيبيّة- بقولنا: إنّنا نؤمن بما جاء في القرآن الكريم، وهو يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ فهي ليست كما تتصوّرها بتصوراتك الدّنيويّة، فهذه

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقة، الحديث رقم (٣٠٧٢).

التّصوّرات هي لما رأته عينك وسمعته أذناك وخطر على قلبك، أمّا الجنّة ففيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، فلا تتحدّث وتناقش الآن إلّا بما ورد في كتابه ﷻ وكما أخبرنا ﷺ؛ لأنّها غيبٌ ولم يطّلع أحدٌ على الجنّة ثمّ عاد إلى الدّنيا وأخبر النّاس عنها فأصبحوا يتصوّرونها، لا يوجد تصوّراتٌ.

﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾: الظّلّ أي مظلّل، أيضاً كيفيّة هذه الأمور هي كيفيّةٌ غيبيّةٌ يقرّبها الله ﷻ إلى العقل البشريّ وإلى ما يشبهه في الدّنيا، لكن هل هي ذات ما يعيه الإنسان ويراه في هذه الدّنيا؟ قطعاً لا؛ لأنّ القرآن الكريم يمثّل هذه الجنّة ويقرّب الأمر للعقل البشريّ.

وبعد أن بيّن الله ﷻ الآيات والأنبياء الذين جاؤوا من نسل سيّدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، يأتي بآيةٍ محكمةٍ من آيات القرآن الكريم:

الآية (٥٨): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾

أمرٌ إلهيٌّ عامٌّ ومطلقٌ أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلها، فما هو تعريف الأمانة؟

الأمانة بشكلٍ مبسّطٍ ما يكون لغيرك عندك من حقوقٍ وتستطيع أن تؤدّيها أو لا تؤدّيها، مثلاً: أحدهم وضع عندي أمانةً لم يوثّقها ولم يكتبها ولم يُشهد عليها شهوداً، فهي أصبحت بأمانتي، هذه تسمّى أمانة بين النّاس، أمّا الأمانة الأعظم فهي أمانة الإيمان بالله ﷻ؛ لأنّه ﷻ قال: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢]، ما هي الأمانة التي حملها الإنسان؟ هي أمانة الاختيار؛ أي أنّه يستطيع الاختيار بين أن يؤمن وبين ألّا يؤمن، لذلك نقول لكلّ النّاس: إنّ الدّين هو دين اختيارٍ، وهو دين أمانةٍ، قال ﷺ: «لا دين لمن لا أمانة له»[1]، فأوّل الأمانات الواجبة الأداء وأوّل حقٍّ من حقوق الأمانة هو أمانة اختيار الإيمان، هذه الأمانة

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الصّاد، صدي بن العجلان، الحديث رقم (٧٩٨٨).

التي تحدّث الله ﷻ عنها بأنّ الجبال والسّماواتِ والأرض رفضت إلّا أن تأتي طائعةً من دون اختيار، أمّا الإنسان فقد حمل هذه الأمانة، فله الحريّة في أن يختار الإيمان أو الكفر، بدليل أنّ آياتٍ أخرى تقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، لماذا؟ لأنّه أمانة، هذه الأمانة التي عرضها الله ﷻ على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنّه كان ظلوماً جهولاً.

وأمّا الأمانة التي هي حقٌّ للغير عندك، فلا يوجد دليلٌ عليها إلّا الضّمير والدّين والأخلاق، وقد كان النّبيّ ﷺ يسمَّى محمّداً الأمين لأمانته، حيث وَثِق النّاس بخلُقه وبأمانته ﷺ، وعندما هاجر من مكّة إلى المدينة المنوّرة كانت الأمانات عنده.

فالدّين هو الأخلاق، وقد قال النّبيّ ﷺ: «إنّ أحبّكم إليّ وأقربكم منّي يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[1]، الدّين أخلاقٌ، الدّين أمانةٌ، وتأدية الأماناتِ هي أحد الأسس التي ركّز عليها الإسلام والقرآن الكريم، فالإنسان المتمسّك بدينه يكون أميناً مع ربّه بإيمانه، أميناً مع وطنه فلا يخرّبه، أميناً مع النّاس يؤدّي الأمانات إلى أهلها، والتي هي بالمفهوم العامّ تشمل الكثير من الأمور.

﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: لم يحدّد للمسلمين أم لغير المسلمين.

إذاً: للنّاس جميعاً، وهذه هي دعوة الخير للغير، ليست مختصّةً بالمسلم.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: ولم يقل وإذا حكمتم بين المسلمين، بل بين النّاس.

﴿أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾: العدل يقتضي خصومةً وتقاضي، ويقتضي تجاوزاً في حقٍّ على حقٍّ، حقّ إنسانٍ على حقّ الآخر، والدّين يأمرك أن تؤدّي الأماناتِ لكلّ النّاس بغضّ النّظر عن عقيدتهم وانتماءاتهم، ويأمرك أن تحكم بالعدل عند وجود نزاعٍ؛ لأنّ استقرار أيّ مجتمعٍ من المجتمعات لا يقوم إلّا على العدل، مثالٌ على ذلك إذا وجدت مباراة كرة قدم -وهي لعبةٌ- تجد الملايين من النّاس يشاهدون المباراة

(١) مصنّف ابن أبي شيبة: كتاب الأدب، ما ذكر في حسن الخُلق وكراهية الفحش، الحديث رقم (٢٥٣٢٠).

ويراقبونها، فإن أعطى الحَكَمُ ضربة جزاءٍ أو أغفل ضربة جزاءٍ أو تسلُّلاً للاعب يقوم النّاس جميعاً ولا يقعدون؛ لأنّه لم يحكم بالعدل، هذا في اللّعب فكيف يكون الحال في الجدّ؟ فطرة النّاس فُطِرَت على العدل والمساواة بينهم جميعاً، ولا تفريق بينهم لا على أساسٍ دينيٍّ ولا مذهبيٍّ ولا عرقيٍّ ولا إقليميٍّ ولا على أيّ أساسٍ، وإنّما على أساس البشريّة جمعاء، لذلك قال ﷻ مُخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، فلا يمكن لدينٍ يأمر بأداء الأمانات وإقامة العدل بين النّاس جميعاً أن يكون فيه أشخاصٌ أو مجموعاتٌ يقولون إنّ هذا الدّين يأمر بالقتل والذّبح وتدمير الكنائس ويسيء إلى الدّيانات الأخرى، ويجبر النّاس بسياط التّعذيب على الصّلاة، فهذا مناقضٌ للآيات المحكمة الأساسيّة في كتاب الله ﷻ، والتي تُردّ الآيات المتشابهة إليها؛ لأنّ مقاصد التّشريع الإسلاميّ فيها هو قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾.

• **سبب نزول:** ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾:

سبب النّزول يكون دائماً لحادثةٍ ما، لكن هناك عموميّة للمعنى وللحكم الشّرعيّ، فعندما فتح النّبيّ ﷺ مكّة أتي له بمفتاح الكعبة، أتى به الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه، أو العبّاس رضي الله عنه وأعطاه إيّاه، وسابقاً كان مفتاح الكعبة والسّقاية وغيرها من الأمور تُعطى لقبائل معيّنة، فبنو طلحة كانوا يتناقلون مفتاح الكعبة، وعثمان بن طلحة صاحب مفتاح الكعبة حينئذٍ، كان مشركاً حين دخل النّبيّ ﷺ مكّة فاتحاً -حيث لم يجبر أحداً على الإسلام- وبعد أن فتح النّبيّ ﷺ باب الكعبة ودخل نزلت هذه الآية الكريمة على أغلب الأقوال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، فخرج النّبيّ ﷺ من داخل الكعبة، ودفع المفتاح إلى عثمان بن طلحة وقال: «خذوها يا بني طلحة بأمانة الله ﷻ لا ينزعها منكم إلّا ظالم»[1]، وقصص العدل في السّيرة الشّريفة وحياة الصّحابة الكرام كثيرةٌ جدّاً، إحدى هذه القصص كانت بين يهوديّ وبين سيّدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث

(١) المقاصد الحسنة للسّخاويّ: ج١، ص٣٢٠، الحديث رقم (٤٣١).

تخاصم اليهوديّ واشتكى على سيّدنا عليّ بن أبي طالب في عهد سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من أجل درعٍ، فقام سيّدنا عمر بن الخطّاب ليقاضي وينظر بهذا الموضوع فقال: يا أبا الحسن، واستدعى اليهوديّ، فغضب الإمام عليّ كرّم الله وجهه، فقال له سيّدنا عمر: أحزنت وغضبت يا أبا الحسن؛ لأنّني استدعيتك لمقام القضاء؟ فقال: لا والله يا عمر، وإنّما لأنّك فرّقت بيني وبينه فعظّمتني وقلت: يا أبا الحسن، يجب أن تناديني باسمي، كما ناديته باسمه، انظروا لهذه العظمة في العدل التي زرعتها هذه الآية في نفوس الصّحابة رضوان الله عليهم، يرفض الإمام عليّ بن أبي طالب أن يُكرّم أثناء القضاء حتّى بكلمة أبي الحسن، ومع من؟ مع يهوديّ، القضيّة ليست مع مسلمٍ وإنّما مع يهوديّ، هكذا العدل.

وعدل سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مشهورٌ، ومنه قصّة القبطي المسيحيّ الذي كان بمصر عندما كان يحكمها عمرو بن العاص رضي الله عنه -القصّة معروفةٌ لكنّ التّدليل عليها مهمّ جدّاً- فقد تسابق ابن عمرو بن العاص والي مصر مع أحد الأقباط بالخيل فسبقه القبطيّ، فضربه ابن عمرو ابن العاص بالسّوط وقال: أتسبقني وأنا ابن الأكرمين؟! فحزن القبطيّ وتألّم كثيراً، وخرج من مصر إلى المدينة المنوّرة ليشتكي إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ما فعل ابن الوالي عمرو بن العاص، ولو كان يشكّ للحظةٍ واحدةٍ أنّه لن يأخذ العدل ما كان ليذهبَ من مصر إلى المدينة المنوّرة ليشتكي على ابن الوالي، وعندما وصل وروى القضيّة أمام عمر بن الخطّاب استدعى سيّدنا عمر رضي الله عنه عمرو بن العاص وابنه، وعندما جاءا وبعد أن دقّق سيّدنا عمر رضي الله عنه بالقضيّة أخذ الدّرّة وأعطاها للقبطيّ وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك، فضرب القبطيّ ابن عمرو بن العاص مثل ما ضربه، وعندما ضربه قال: اكتفيت يا أمير المؤمنين، فقال: لا، اجعلها على صلعة عمرو بن العاص، فوالله ما ضربك إلّا بسلطان أبيه، قال: يا أمير المؤمنين، لقد ضربتُ من ضربني، فقال: لا، اضربْ صلعة ابن العاص، فلقد ضربك بسلطان أبيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: نِعم هذه العظة، ما أعظم هذه العظات التي يعظ

الله ﷻ بها، ويوجّه المؤمنين لفعلها، بالنّسبة لأداء الأمانات وللحكم بالعدل بين النّاس مع اختلاف صنوفهم وانتماءاتهم، لمجرّد أنّهم بشرٌ، هذه هي دعوة الإسلام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾: فهو يسمع ويرى، لم يقل: إنّ الله سامعٌ وباصرٌ، بل سميعٌ بصيرٌ؛ لأنّه سميعٌ قبل أن يُوجد من يُسمَع له، وهو بصيرٌ قبل أن يُوجَد من يُبصَر إليه، فالله ﷻ سميعٌ بصيرٌ، يسمع أقوالكم ويرى أفعالكم، وهذه الآية المحكمة والعظيمة عمل بها المسلمون الأوائل صحابة سيّدنا رسول الله ﷺ، فأعطوا القدوة والمثل كسيّدنا عليّ كرّم الله وجهه، وسيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، نرى كيف تعاملا، ونفّذا وطبّقا هذه الآية الكريمة، فكانا المثل لكلّ مؤمنٍ، ونحن نقرأ القرآن الكريم، وننظر لسنّة النّبيّ ﷺ، ولفعل أصحابه الكرام كيف فسّروا بأفعالهم وأعمالهم، والتزموا بأوامر ربّهم، فكانت الحضارة الإسلاميّة الرّائدة التي نشرت لواء الأمن والسّلام والعلم في ربوع أوربّة والعالم الّذي كان يضجّ بالظّلم والظّلام والجهل والجاهليّة.

الآيـة (٥٩): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾: نحن الآن أمام حكمٍ وأمام فرضٍ من الله ﷻ، الـمُخاطب في هذا الأمر المؤمن، وأيُّ حكمٍ يصدر في الدّنيا يكون له حيثيّات، والحيثيّات تأتي تبعاً أو بعد الحكم، أمّا بالنّسبة للحكم الشّرعيّ والحكم الإلهيّ فإنّ الحيثيّات هي الإيمان بالله ﷻ، طالما أنّك آمنت بالله ﷻ فأنت مطالبٌ بأنّ تطيع، لم يقل: يا أيّها النّاس، هنا المأمور بالطّاعة لله وللرّسول ولأولي الأمر هم الذين آمنوا، والذين ربط بينهم وبين ربّهم ميثاقٌ وعهدٌ هو عهد الإيمان بالله ﷻ، علمنا العلّة أم لم نعلم، فهذا بالنّسبة لنا إيمانُ الطّاعة، قد يقول قائلٌ: ما هي العلّة أو ما هي الحكمة بأنّ تكون صلاة الظّهر أربع ركعاتٍ، بينما صلاة المغرب ثلاث ركعاتٍ فقط؟ عندما تسأل عن العلّة أو هذه الحكمة في الأمور التّعبديّة، أو في الأمور الشّرعيّة فهناك الكثير من الأمور بيّن الله ﷻ فيها الحكمة والعلّة بالنّسبة للإنسان، وأغمض أموراً أخرى حتّى

تكون الطّاعة إيماناً، وحتّى يكون التّنفيذ تعبّداً لله ﷻ، فأنا أنفّذ أمر الآمر طاعةً للآمر، علمت الحكمة أم لم أعلم، ومن المفيد أن أعلم الحكمة، لكن إن لم أعلم الحكمة فيكفي بأنّني أطيع لأنّني آمنت، وعلّة الإيمان تتعلّق بالعقل وليست بالطّاعة، الأمر دقيقٌ، طالما أنّك آمنت فهذا الحكم من الله ﷻ، أمّا عندما تريد أن تؤمن بالله ﷻ فأنت حرٌّ كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩]، هناك عقلٌ هو الّذي يستنبط، وينظر بالأدلّة، ويرى أنّ هذا الكون له خالقٌ، والآيات الكونيّة الموجودة كالسّماوات والأرض والجبال والحياة والتّرتيب والنّظام الكونيّ والماء والبشر والحجر.. وغيرها، عندما تستقرّ عقليّاً بالنّسبة للإنسان يؤمن بأنّ هناك إلهاً خالقاً، وطالما أنّ الإله هو الخالق فهو أدرى بمصلحة المخلوق، وعلى المخلوق طاعة الخالق. وبعض النّاس يريد التّشكيك بالدّين الإسلاميّ وبالأديان السّماويّة، وأن يخلط الأمور عن قصدٍ، فيدّعي أنّ المسلم أو المؤمن يطيع وينفّذ الأوامر ويُلغي العقل، بينما نجد في كتابنا العزيز علّة كلّ الأحكام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، في كلّ الأحكام والأمور طُلب منك أن تُعمل العقل، وفي أصل الإيمان لا بدّ من العقل حتّى تصل لحقيقة الإيمان، وعندما تؤمن بعد ذلك فإذا ثبت لك بالدّليل أنّ الله تبارك وتعالى هو الّذي أمر فعليك طاعة الآمر حتّى ولو لم تتبيّن الحكمة لك؛ لأنّ الحكمة قد تكون لأسبابٍ تتعلّق بالعقل البشريّ، والله ﷻ قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٦]، فلا يكلّفك ﷻ إلّا بما تستطيع، فإذا كان فوق طاقتك فإنّه ﷻ يعطي الرّخصة: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٤]، مثلاً الصّلاة إن لم تستطع قائماً فصلِّ قاعداً، وإن لم تستطع قاعداً فصلِّ نائماً، وهناك رخصٌ، عندما لا تستطيع طاقة الإنسان أن تتحمّل التّكليف؛ لأنّ أصل الأحكام في الشّريعة الإسلاميّة هي اليسر والتّيسير، «يسّروا ولا تُعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا»[1]، كما قال نبيّنا ﷺ.

طالما أنّ حيثيّة الحكم هي الإيمان بالله ﷻ، فيا مَن آمنت بالله ﷻ عليك أن

(١) صحيح البخاريّ: كتاب العلم، باب ما كان النّبيّ ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم، الحديث رقم (٦٩).

تطيعه فيما أمر، وفيما أَنزل في القرآن الكريم المُنزّل على عبده سيّدنا محمّد ﷺ، وفي كلّ أمرٍ تكليفيٍّ؛ افعل ولا تفعل، هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، عليك أن تطيعه بالإجمال، لكنّه ﷻ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾، طاعة الرّسول ﷺ في التّفصيل، وطاعة الله ﷻ في الإجمال، مثال: في الإجمال قوله ﷻ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾، هذه آيةٌ في القرآن الكريم، فقوله ﷻ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي أقيموا الصّلاة، لكن كيف أُقيم الصّلاة؟ إذاً: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ لأنّ مَن أخبرني أنّ الصّلاة خمسةُ أوقاتٍ، وأنّ صلاة الفجر اثنتان، والظّهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، هو النّبيّ ﷺ، وهو مَن قال لي كيف تُقام الصّلاة؟ وما هي أركانها، وواجباتها، ونواقضها؟ وأخبرني أنّ من شروطها التّوجّه إلى القبلة وستر العورة، وأنّ أركانها القيام والرّكوع والسّجود والتّشهّد. إذاً: لا يستطيع إنسانٌ القول: اقرأ القرآن فقط، وخُذ به ودعْ ما سواه، ماذا ستأخذ من القرآن؟ كيف ستفسّره؟ إذا قرأت قوله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: من الآية ٩٧]، مَن الّذي سيعلّمك كيف يكون الحجّ؟ والنّبيّ ﷺ قال لنا: «خذوا عنّي مناسككم»، والله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، إذاً: الوحيد المخوّل بالتّشريع هو الرّسول ﷺ، فكيف فُوّض؟

فوّض بأمرٍ من الله تبارك وتعالى، ونحن مُطالبون بطاعة الرّسول ﷺ، نحن نطيع الله ﷻ في الإجمال، ونطيع الرّسول ﷺ في التّفصيل.

بالنّسبة للزّكاة، ما هو نصاب الزّكاة، وما الحول بالنّسبة للزّكاة؟ وكيف تكون الزّكاة؟ من الّذي علّمنا إيّاها؟ الرّسول ﷺ.

يجب أن نفرّق أيضاً ما بين الدّليلِ وما بين سنّةِ النّبيّ ﷺ، الدّليل يكون من هدي النّبيّ ﷺ، فعندما أقول: ركعتان قبل فرض الظّهر سنّةٌ عن النّبيّ ﷺ فليس لها علاقةٌ بصلاة أربع ركعاتٍ، وهي مفصولةٌ تصلّى وحدها، لكن مَن أخبرنا أنّ صلاةَ الظّهر أربع ركعاتٍ، هو حكمٌ من الرّسول ﷺ، فهل تقول: هذه سنّةٌ عن النّبيّ ﷺ وأنا لا آخذ إلّا

من القرآن الكريم؟! هذا حكمه حكم القرآن الكريم، وإلّا لن تقيم صلاةً ولا زكاةً ولا حجّاً ولا صوماً ولا أيّ أمرٍ من الأمور إذا لم تتّبع الرّسول ﷺ، الآيات واضحةٌ ودقيقةٌ، يجب أن أفرّق إن كان هناك دليلٌ، فهذا الدّليل إمّا دليلُ تفصيلٍ عن الله ﷻ جاء من رسول الله ﷺ، أو دليلٌ يتعلّق بسنّةِ النّبيّ ﷺ، كصلاة قيام اللّيل، وصلاة ركعتين بعد المغرب، وهذا شيءٌ يُكمِّل الفرضَ، أمّا بالنّسبة لكلّ تفصيلٍ من رسول الله ﷺ بالفرائض التي أمر بها الله ﷻ، فلا تقل: إنّه ليس من القرآن الكريم ولأنّه سنّةٌ لا آخذ به؛ لأنّ طاعة رسول الله ﷺ مكتنزةٌ ضمن طاعة الله ﷻ، فأنت عندئذٍ قد تركت الدّين؛ لأنّ كلّ الأمور الدّينيّة والتّشريعيّة وتفسير القرآن الكريم والأحكام الشّرعيّة وبيانها جاءت من سيّدنا رسول الله ﷺ، لذلك جاءت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي أطيعوا الله ﷻ فيما ورد في القرآن الكريم مجملاً، وتفصيلها: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾: انظروا لعظمة هذا الإسلام، ارجعوا وأطيعوا أهل الاختصاص في كلّ أمرٍ، وفي اللّغة العربيّة كلمة (أولي الأمر) مجملة، مثلاً: عندي قضيّةٌ تتعلّق بالرّياضيّات فأطيع الإنسان المتخصّص بالرّياضيّات، عندي أمرٌ متعلّقٌ بالدّين فآخذ الحكم من المتخصّص بالأمور الدّينيّة والمتعلّقة بالقرآن الكريم وبسنّة رسول الله ﷺ، عندي أمرٌ اقتصاديٌّ آخذه من المختصّين، وهكذا..، إذاً: هي كلمةٌ مجملةٌ تعطي حقيقةَ هذا الدّين، وضوابط للمجتمع، فلا يتمّ استقرار أيِّ مجتمعٍ بشريٍّ إلّا إذا كانت هناك طاعةٌ لله ﷻ وطاعةٌ لرسول الله ﷺ فيما يتعلّق بالأمور والأحكام الشّرعيّة، وطاعةٌ لأولي الاختصاص فيما يختصّون به، وتشمل أيضاً ولاة الأمور بالنّسبة للسّياسة والحكم، فطالما أنّ هناك وليّ أمرٍ يُرجَع الأمر إليه فسوف تضمن استقرار أمن أيّ مجتمعٍ من المجتمعات.

فالإسلام وضع قواعدَ الاستقرار والأمن للمجتمعات في هذه الآيات العظيمة، ولم يتركها فوضى ومشاعاً للنّاس، فهذا الّذي يريد أن يعالج نفسه هل يذهب للحلّاق ويسأله عن الدّواء الذي عليه أن يأخذه؟ أُولو الأمر هنا هو الطّبيب.

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: قال بعض المفسّرين: هذه الآية تشير إلى أنّ هناك وليّ أمرٍ فيما يتعلّق بالأحكام الشّرعيّة، فإن حصل خلافٌ أو تنازعٌ فعليك أن تردَّ الأمر إلى أصله، والأصل هو ما ورد في كتاب الله ﷻ وسنّة سيّدنا رسول الله ﷺ، فكيف نردّه إلى الله ﷻ وإلى رسول الله ﷺ؟

لم يأمر الله ﷻ ببرنامجٍ سياسيٍّ ولا اقتصاديٍّ ولا علميٍّ ولا كيميائيٍّ ولا اجتماعيٍّ، إنّما وضع ضوابط عامّةً هي لمصلحة البشريّة كما مرّ بنا في الآية التي سبقتها: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النّحل: الآية ٩٠]، ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشّورى: من الآية ٣٨]، إذاً تَردُّ الأمر إلى الله ﷻ وإلى تفصيل رسول الله ﷺ، من خلال هذا الفهم وليس كما أدخل بعضهم الإسلام في المصالح الخاصّة للتّنظيمات الإرهابيّة والسّياسيّة التي ادّعت أنّها إسلاميّةٌ والإسلام بريءٌ منها، الإسلام لا يضع على الإطلاق قوالبَ جامدةً للنّاس وتأتي مجموعةٌ وتقول: نحن نمثّل الإسلام ونطبّقه، ونحن الخلافة الإسلاميّة، هذا الكلام مرفوضٌ في الإسلام؛ لأنّه عامٌّ لكلّ النّاس وللمجتمع بأكمله، وليس حكراً على حزبٍ أو مجموعةٍ، ولا يمكن أبداً أن نحجّمَ الإسلامَ ونجعله لفئةٍ معيّنةٍ، وإنّما يقول ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠٧]، هو علاقةٌ مع المؤمنين، مع الوطن والمواطن، هو خيرٌ وعدلٌ ومحبّةٌ وإحسانٌ، وبرٌّ للوالدين وصلة أرحام، هو حسن المعاملة وعدم الكذب والغشّ وعدم الاحتكار وأداء الأمانة، وهذا مطلوبٌ لكلّ النّاس، فلا تقل: أنا المسؤول عن تطبيق الإسلام، هذا لا يتمّ أبداً؛ لأنّه تحريفٌ لما أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ، ولقد شاهدنا هذه الفئات التي استغلّت الشّعارات الإسلاميّة كيف ارتكبت كلّ الموبقاتِ والجرائمِ، وهي تدّعي تطبيق القرآن الكريم والأحكامِ، والسّير على نهج رسول الله ﷺ وسنّته. والله ﷻ ورسوله الكريم: والمؤمنون بريئون منهم ومن أفعالهم وإرهابهم وجرائمهم، فالإسلام هو خيرٌ عامٌّ للنّاس جميعاً، المسلم وغير المسلم، يقول ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ،

وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[1]، فإذا تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الأصل، ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أي لسنّته ﷺ.

هـذا: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فالّـذي لا يؤمـن بـالله ﷻ واليـوم الآخر لن يـردّ أيّ أمـرٍ لا إلى الله ﷻ ولا إلى رسـوله ﷺ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: أحسـن تأويـلٍ وأفضـل خـيرٍ أن تطبّـق هـذه الآيـة القرآنيّـة العظيمـة.

الآيـة (٦٠): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾: الزّعم: هو مطيّة الكذب.

ما هو سبب نزول هذه الآية؟

هـذه الآيات تتعلّق باليهـود، فقد كان في مجتمـع المدينة المنـوّرة المنافقون والمشركون واليهـود والمسـلمون، والمنافقون كانـوا يزعمون أنّهم آمنوا، والإيـمان لم يدخل قلوبهم.

﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: من الكتب السّابقة.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾: الطّاغـوت: هـو مبالغـةٌ مـن الطّغيـان والظّلم وتجـاوز الحدّ، وتطلـق هذه الكلمـة دائماً على عمـل الشّرّ وعمـل الشّـيطانِ والأمـور التـي فيهـا تجـاوزٌ عـلى حقـوق النّـاس، والطّاغـوت مفرد و مثنى .

- **سبب النّزول:**

كان هنـاك رجـلٌ منافـقٌ في المدينة اسـمه بِشْر هـذا الرّجل اختصم مع يهـوديّ فقال اليهـوديّ نحتكـم إلى محمّـد في الخـلاف، فرفـض المنافـق بِشْر وقـال: بـل نحتكـم إلى

(١) مسند البزّار: المجلّد الثّاني، مسند فضالة بن عبيد، الحديث رقم (٣٧٥٢).

كعب بن الأشرف وهو من أحبار اليهود، لماذا؟ لأنّه مُنافقٌ، وطالما أنّه منافقٌ فلم يكن الحقّ معه بل عليه، والحقّ مع اليهوديّ الّذي اختصم معه، والإسلام يأمر بالعدل، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النّساء: من الآية ٥٨]، وكما ذكرت سابقاً عندما اشتكى يهوديّ وتحاكم بدرعٍ مع سيّدنا الإمام عليّ كرّم الله وجهه رفض الإمام عليّ بن أبي طالب أن يقول له سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: يا أبا الحسن؛ لأنّه يجب أن يساويه مع اليهوديّ بالنّداء في مجلس القضاء، هذا هو الإسلام، الّذي يؤخذ من تطبيق الصّحابة، من تطبيق سيّدنا عمر وسيّدنا عليّ رضي الله عنهما، فهذا الرّجل رفض أن يحتكم إلى رسول الله ﷺ، وطلب أن يحتكم إلى كعب بن الأشرف، فنزلت الآية.

فهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت؛ لأنّهم يعرفون أنّ الطّاغوت سيكون مع الإنسان الطّاغي والظّالم، فكعب بن الأشرف سيحكم وفق المصلحة وليس وفق العدل والحقّ.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: هؤلاء أولياء الشّيطان.

الآية (٦١): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

كلمة ﴿تَعَالَوْا۟﴾ جاءت من أنك عندما تطبّق ما أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ فأنت ترتفع إلى الأعلى.

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾: المنافقون يُعرفون بسرعةٍ، فهم يبتعدون عنك ويصدّونك عن إعطاء الحكم والنّتيجة؛ لأنّهم يعرفون أنّك لن تحيد قيد أنملةٍ عن الحقّ والعدل، حتّى لو كان هذا العدل يتعلّق بخلافٍ بين مسلمٍ ويهوديٍّ، فإن كان الحقّ مع اليهوديّ ينصره، وإن كان بين مسلمٍ ومشركٍ والحقّ مع المشرك يأخذ له هذا الحقّ، هذا هو عدل الإسلام كما أمر الله ﷻ، لذلك إذا قيل لهم: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾؛ لأنّ حكم الله ﷻ يبيّنه رسول الله ﷺ.

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾: والحقيقة بأنّ المنافقين في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات هم آفةٌ خطرةٌ، وأكثر الآيات في القرآن الكريم جاءت بحقّ المنافقين؛ لأنّ العدوّ الظّاهر أثره يبقى أقلّ من المخفيّ الّذي يُبدي شيئاً ويكتم شيئاً آخر، يُبدي الإيمان ويُبطن الشّرك، يُبدي الصّداقة ويكتم العداوة، يُبدي الحقّ ويكتم الباطل، يُبدي العدل ويكتم الظّلم، فالنّفاق هو داءٌ عضالٌ خطرٌ يصيب المجتمعات إصابةً مباشرةً، وهو أخطر من العدوّ الظّاهر؛ لأنّه يتسلّل داخل الجسد.

الآية (٦٢): ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

هذه الآيات تتعلّق بالمنافقين: والنّفاق كما قلنا: هو من أخطر الأدواء التي تصيب أيّ مجتمعٍ من المجتمعات، وتُهدِّد بنيان المجتمعات السّليمة، لكون المنافق عدواً باطناً غير ظاهرٍ بالنّسبة للإنسان، يسير ويميل حيث يميل هواه، وحيث تتحقّق مصلحته، فهو دائماً يقدّم المصالح على المبادئ، والمصالح الخاصّة على المصالح العامّة، ونحن نرى أثر النّفاق في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات كيف ينخر بنيان المجتمع، ويغيّر الحقائق أمام النّاس؛ لأنّ المنافق لا يقول الحقيقة، وأوّل صفةٍ من صفاته هي الكذب، وهو من الأمور التي حرّمها الله ﷻ، وقد بيّن رسول الله ﷺ بأنّه لا يجتمع في قلب المؤمن الكذب مع الإيمان.

الآيات هنا تتحدّث عن المنافقين وعن بعض صفاتهم:

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: المصيبة هي الأمر الذي يطرأ على الإنسان ويُعدِ بعرفهِ أنّه يضرّه، فقد يكون بعرفك أنّه ضررٌ لكنّه في الحقيقة غير ذلك، فبعرفك كلّ ما انتقص من مصلحتك الشّخصيّة يكون ضرراً أو مصيبةً.

المصيبة هنا بما قدّمت أيديهم؛ لأنّهم لا ينسجمون مع الحقائق ومع أنفسهم، وإنّما يذيّلون هذه الأمور وفق مصلحتهم، كما وصفهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النّساء: الآية ١٤٣].

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾: يحلفون بالله ﷻ الكذب، فهم يدّعون الإصلاح والإحسان، ويصوّرون الصّورة التي يرون من خلالها مكاسبهم ومصالحهم الخاصّة، ثمّ يأتون ويحلفون بالله ﷻ أنّهم لم يريدوا إلّا إصلاحاً وتوفيقاً.

الآية (٦٣): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾

بالنّسبة لله ﷻ هم مكشوفون وواضحون، أمّا بالنّسبة للنّاس والمجتمع فلا يمكن تحديد المنافق من غير المنافق، فهناك صفاتٌ ومعايير معيّنةٌ تنطبق على النّفاق، لكنّه قد لا يكون واضحاً ولا يكتشف الإنسان في مجتمعه من هو المنافق ومن هو الصّادق، من هو الأمين ومن هو الخائن، قال ﷺ: «إنّها ستأتي على النّاس سنون خدّاعة، يصدّق فيها الكاذب، ويُكذّب فيها الصّادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرّويبضة»، قيل: وما الرّويبضة؟ قال: «السّفيه يتكلّم في أمر العامّة»[1]، فالنّفاق خطرٌ دائمٌ في البنيان الاجتماعيّ في أيّ وطنٍ من الأوطان، ولكن متى بدأت حركة النّفاق في المجتمع الإيمانيّ؟

عندما كان رسول الله ﷺ والذين معه مضطهدين من قِبَل المشركين في مكّة لم يوجد داءٌ اسمه النّفاق، لماذا ستنافق للرّسول ﷺ وللمؤمنين وهم يتعرّضون للعذاب والاضطهاد، كما جرى مع سيّدنا بلال رضي الله عنه وغيره من الصّحابة الكرام، وكذلك الحصار في شعب أبي طالب؟! ولكن حركة النّفاق بدأت عندما انتصر الرّسول ﷺ وأصبحت شوكة المسلمين قويّةً في المدينة المنوّرة، فكان المنافقون إذا أصابتهم مصيبةٌ أو تعرّضت مصالحهم للإيذاء بما قدّمت أيديهم؛ أي من جرّاء نفاقهم وكذبهم، يأتون إلى رسول الله ﷺ يحلفون بالله ﷻ ويدّعون غير الحقائق.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل: مسند المكثرين من الصّحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث رقم (٧٨٩٩).

لكـن لا يمكـن لأحـدٍ أن يمحّـص ويقـول: هـذا منافـقٌ وهـذا غـير منافـقٌ؛ لأنّ الله ﷻ لـو أمـر رسـوله ﷺ أن يخـبر كلَّ منافـقٍ بأنّـه منافـقٌ لاتّبـع النّـاس هذه السّـنّة عـن رسـول الله ﷺ، ولشـكّك بعضهـم ببعـض، ولأصبـح كلّ إنسـانٍ يتهـمّ الآخـر بأنّـه منافـقٌ.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾: اتركهـم، أي لا تفضحهـم؛ لأنّ الله ﷻ أخـبر الرّسـول ﷺ مـن هـم المنافقـون، ومـن بينهـم رأس النّفـاق في المدينـة عبـد الله بـن أبيّ ابن سـلول، الّـذي كان يقـود حركـة النّفـاق.

أعـرض عنهـم لكـن عظهـم، وقـل لهـم في أنفسـهم قـولاً يبلـغ قـرار النّفـس ودخائلهـا، هـذا الأمـر للرّسـول ﷺ، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١﴾ [الغاشـية: الآيـة ٢١]، عظهـم وقـل لهـم الحكـم الشّرعـيّ، لكـن لا تفضحهـم وتُخـبِر مـن هـو المنافـق ضمانـاً للمجتمـع، ولتكـن الموعظـة عامّـةً كـما كان ﷺ يقـول: «مـا بـال أقـوام يفعلـون كـذا وكـذا»، فعـلاج النّفـاق لا يكـون إلّا بالإيـمان والأخـلاق، فهنـاك قانـونٌ يحـارب الفسـاد، وقانـونٌ يضبـط الحركـة الاقتصاديّـة في المجتمـع، ويضبـط بعـض العلاقـات الاجتماعيّـة، ولكـن لا يوجـد قانـونٌ وضعـيٌّ يُحـارب النّفـاق ويضبـط حركتـه في المجتمـع، مـع أنّـه أخطـر مـن كلّ الأمـراض الاجتماعيّـة، وهـو سـبب معظـم مظاهـر الفسـاد في أيّ مجتمـعٍ مـن المجتمعـات، لذلـك كان الأمـر لرسـول الله ﷺ وعلاجـه لا يكـون إلّا بالإيـمان.

﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾: الله ﷻ تحـدّث عـن النّفـاق في بدايـة سـورة (البقـرة) بثـلاث عـشرة آيـة وصـف بهـا المنافقـين، ورصـد دخائـل أنفسـهم، وفي القـرآن الكريـم سـورةٌ كاملـةٌ دلّلـت عـلى خطـر النّفـاق في المجتمـع هـي سـورة (المنافقـون)، فكيـف تكـون ضوابـط النّفـاق ومعالجتـه؟ هـل تسـتطيع أن تشـتكي عـلى أحدهـم عـلى أنّـه منافـقٌ لمحاكمتـه؟ لا يمكـن، إذاً العـلاج ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾، العـلاج يكـون بالعظـة، والإيـمان بـالله ﷻ.

الآيـة (٦٤): ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ ﴾

هذه الآية والتي تليها تتعلّق بهما علاقة الأمّة بالرّسول ﷺ.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾: العلاقة بين الرّسول ﷺ وبين من أُرسل إليهم هي الطّاعة وليست المحبّة، فالمحبّة تأتي من الطّاعة:

تعصي الإلهَ وأنتَ تُظهِرُ حبَّه
هذا لَعمري في القياسِ بَديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعْتَه
إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

فلا يمكن أن تحبّ الرّسول وتخالفه، لا بدّ من الطّاعة، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي بأمر الله ﷻ، العلاقة محدّدةٌ بالطّاعة، يقول ﷻ: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ ﴾ [آل عمران: الآية ٣١]، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، العلاقة ليست علاقة رسولٍ أدّى الرّسالة ثمّ ارتفع إلى الرّفيق الأعلى وانتهى دوره، لا، فدليلي هذه الآيات: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾.

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴾: ظلم النّفس أن تقدّم لها شهوةً عاجلةً وتحرمها من نعيمٍ دائمٍ، أي توقع النّفس في المعصية فتسرق أو تزني أو تشرب الخمر أو تكذب أو تقتل أو تسيء أو...، فتعتقد أنّك عندما تسرق تأخذ المال، ولكنّك ظلمت نفسك ولم تعطها المال، وإنّما أعطيتها ظلماً؛ لأنّك حرمتها من نعيم الله ﷻ وأوصلتها إلى عذابه جلّ وعلا، وهذا المال المسروق سيكون وبالاً عليك وعلى أسرتك، وكلّ المعاصي على المقياس والمعيار ذاته، ورأس ظلم

النّفس هو ظلمك لغيرك؛ لأنّه قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: من الآية ١٣]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: من الآية ١]، فحتّى تجد الله ﷻ توّاباً رحيماً وتخرج من الذّنب تحتاج لثلاثة أمورٍ:

١- ﴿جَآءُوكَ﴾، هنا جاؤوك وهو حيٌّ، لكن عندما ارتقى إلى الرّفيق الأعلى كيف نجيء إليه؟

المجيء؛ أي اتّباع سنّة النّبيّ ﷺ فيما أمر ونهى، أي جاؤوا إلى هديك وسيرتك وسنّتك فاتّبعوها، فيكونون كأنّهم أتوا إلى رسول الله ﷺ، وليس المقصود بالمجيء هنا الذّهاب إلى قبر النّبيّ ﷺ، وزيارة قبره الشّريف ﷺ أمرٌ جيّدٌ، لكن المهمّ أن تأتيه؛ أي أن تلتزم بطاعته ﷺ أوّلاً.

٢- ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾، والنّقطة الثّانية أن تستغفر الله ﷻ.

٣- ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، عندما كان حيّاً كان ﷺ يستغفر لهم، وكذلك بعد مماته عليه الصّلاة والسّلام، فقد جاء في الحديث الشّريف قول النّبيّ ﷺ: «حياتي خيرٌ لكم تُحَدِّثُونَ ونُحَدِّثُ لكم، ووفاتي خيرٌ لكم تُعرَضُ عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خيرٍ حمدت اللهَ عليه، وما رأيتُ من شرٍّ استغفرتُ اللهَ لكم»[1].

فأوّل نقطةٍ: أن تُطيع الرّسول ﷺ، وثاني نقطةٍ: أن تستغفر الله ﷻ، وثالث نقطةٍ: أن يستغفر لك الرّسول ﷺ، ولن يستغفر لك وأنت تعصيه.

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾: أن تجد الله ﷻ توّاباً رحيماً لا يمكن أن يكون من وراء رسول الله ﷺ، فلا علاقة مع الله ﷻ من خلف رسول الله ﷺ على الإطلاق؛ لأنّ علاقة الإنسان مع الرّسول ﷺ هي العلاقة الأساسيّة لفهم أوامر الله ﷻ وماأنزل إليهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ

---

(١) مسند البزّار: مج١، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الحديث رقم (١٩٢٥).

﴿تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٠]، وحّد الضّمير، فهنا عطف طاعة الرّسول ﷺ على طاعة الله ﷻ، وقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾، فالّذي يتولّى عن الرّسول ﷺ كأنّه تولّى عن الله ﷻ.

الآية (٦٥): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَلَا﴾: لا النّافية.

﴿وَرَبِّكَ﴾: يقسم ﷻ بذاته العليّة، والله ﷻ يُقسِم بما يشاء من خلقه، وأنت لا يحقّ لك أن تقسم إلا بالله ﷻ وحده، ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ [الذّاريات: الآية ١]، ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [الفجر: الآية ١-٤]، ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾﴾ [العصر: الآية ١]، هنا قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ هذا قسمٌ.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾: علّق كلّ الإيمان، حتّى يحكموك، والإيمان أن تؤمن بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه، لكن كيف سيترجم الإيمان؟ ترجمته أن تُحكِّم رسول الله ﷺ، انظر لدقّة الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نفى كلّ الإيمان ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أصعب قضيّةٍ على النّاس هي النّزاع، ممكن أن تُحكّم بأيّ شيءٍ وترضى، لكن عندما يكون هناك نزاعٌ يكون في النّفس شدّةٌ ونفور، وعليك أن تلتزم بحكم الرّسول ﷺ.

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: من الشّجر، أي تشابك الأغصان.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾: ليس فقط أن تأتي لحكم الرّسول ﷺ، بل العلاقة معه ﷺ مستمرّةٌ دائماً لا تنقطع على الإطلاق.

الدّخول في الإيمان له ثلاثةُ أمورٍ، والخروج من الذّنب له ثلاثة أمورٍ، فالدّخول في الإيمان يكون بـ:

أوّلاً: تحكيم الرّسول ﷺ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

ثانياً: عدم وجود الحرج لديك في تطبيق حكم رسول الله ﷺ وأمره: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾.

ثالثاً: الإذعان لأمر رسول الله ﷺ: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

هذه ثلاثة أمورٍ لكي تدخل في الإيمان، وأمّا الأمور الثّلاثة حتّى تخرج من الذّنب فهي في الآية التي سبقتها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

مختصر الآيتين هو تنظيم علاقة المؤمن بالرّسول ﷺ، فهو: يدخل الإيمان ويخرج من الذّنب، فأيّ مكانةٍ لسيّدنا وحبيبنا وشفيعنا ونور قلوبنا محمّد ﷺ، أيّ مكانةٍ لهذا النّبيّ العظيم، الرّؤوف الرّحيم، لذلك قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: الآية ٤]، وقال جلّ وعلا عنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة: الآية ١٢٨].

الآية (٦٦): ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾

ما زال الحديث عن علاقة الرّسول ﷺ مع المؤمنين ومع المجتمع، وتأتي هذه الآية متابعةً للآية السّابقة:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: كتب الله ﷻ على بني إسرائيل ليخرجوا من ذنبهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم، ولكنّهم لم يفعلوا ذلك، والله ﷻ يتحدّث عن أمّة سيّدنا محمّد ﷺ، والمجتمع الّذي يوجد فيه المنافقون الّذين أصبحوا الدّاء العضال فيه، والحديث كلّه هنا يتعلّق بهم:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾: يعطي هذا معنىً عن حبّ الوطن، فالخروج من الدّيار كقتل النّفس، حبّ الوطن من الإيمان، وحبّ الوطن بالنّسبة للإنسان كحبّه لنفسه؛ لأنّ الإنسان الّذي لا يحبّ وطنه ولا

خير فيه له لا خير فيه لنفسه، فالأفراد هم الأساس في بناء المجتمع.

والمؤمن يُفترض به أن ينفّذ ما أمره الله ﷻ به، لكنّ بني إسرائيل كانت ردودهم على هذا الأمر: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾: أي القليل منهم فعلوا ما أُمروا به.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: الخيريّة من عند الله ﷻ أن تنفّذ أمره ﷻ فيما أمر وفيما نهى، ولكنّ التّشكيك يأتي إمّا من فئة غير المؤمنين أو من فئة المنافقين داخل المجتمع.

الآية (٦٧): ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

للّذين يمتثلون لأمر الله ﷻ، والأجر عندما يقول ﷻ ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ يجب أن تنسب الفعل إلى الفاعل، ما عند الله ﷻ يُقاس بمعايير لا تنطبق على ما عند البشر، فربّ البشر ﷻ هو الكمال المطلق، وعندما يقول ﷻ: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ أي عطاءً غير محدود.

الآية (٦٨): ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

لبيّنّا لهم الطّريق المستقيم الّذي يجب أن يسيروا عليه.

الآية (٦٩): ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

- **سبب النّزول:**

سبب نزول هذه الآية أنّ ثوبان مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحبّ له: قليل الصّبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغيّر وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله، فقال: «يا رسول الله، ما بي وجعٌ غير أنّي إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشةً شديدةً حتّى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت ألّا أراك هناك؛ لأنّي إن أُدخلت الجنّة فأنت تكون في درجات النّبيّين وأنا في درجة العبيد فلا أراك، وإن أنا لم أدخل الجنّة فحينئذٍ لا أراك أبداً». فنزلت هذه الآية.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾: بيّن الله ﷻ بأنّ طاعة الرّسول ﷺ في باطن طاعة الله ﷻ، فعطف الطّاعة الواحدة على الله ﷻ والرّسول ﷺ؛ لأنّه لا يمكن فصل ما جاء به رسول الله ﷺ عمّا جاء من آياتٍ في القرآن الكريم.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾: هذه نعمةٌ من الله ﷻ تعدل كلّ النّعم، هؤلاء سيكونون مع الرّسل والأنبياء ٤، والدّرجة الثّانية بعد الأنبياء هم الصّدّيقون كما ورد في الآية الكريمة، ودرجة الصّدّيقيّة هي درجة الإيمان المطلق والتّصديق، فالصّدّيق رضي الله عنه عندما أُخبر أنّ النّبيّ ﷺ يقول: بأنّه قد أُسري به ثمّ عرج إلى السّماوات السّبع وعاد في اللّيلة ذاتها قال: «إنّي أصدّقه في أبعد من ذلك، أصدّقه في خبرٍ يأتيه من السّماء، فإن كان قال فقد صدق». فسمّي الصّدّيق، فهذه درجة الصّديقيّة.

ودرجة الشّهداء: هي الدّرجة العليا عند الله ﷻ فهم أحياءٌ عند ربّهم يرزقون كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: الآية ١٦٩]، يعيشون بفضل الله ﷻ ونعمه وليس بعدله، وهذه بشرى أيضاً لأسرهم وللصّالحين الذين يسيرون على نهج الأنبياء والصّدّيقين والشّهداء.

﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾: الرّفيق هو الإنسان الّذي ينير ويسلّي الدّرب، ويكون ملازماً للشّخص، والرّفقة الأفضل والأحسن على الإطلاق أن تكون مع الأنبياء والصّدّيقيّن والشّهداء والصّالحين.

الآية (٧٠): ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾

والفضل فوق العدل، قال ﷻ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: الآية ٥٨]، رحمة الله ﷻ هي من فضله، والفضل دائماً فوق العدل.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾: فهو عليمٌ جلّ وعلا بحال عباده وبإيمانهم وصدقهم، فالله ﷻ يعلم من أعمال العباد ما هو موافقٌ لحالة الإيمان التي أمر بها.

بعد ذلك يتابع المولى ﷻ الحديث عن وضع المنافقين داخل المجتمع، وعن النّفاق؛ ذلك الدّاء العضال فيقول ﷻ:

الآية (٧١): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾

في كلّ وقتٍ من الأوقات هناك ابتلاءٌ يأتي على النّاس والمجتمعات، والابتلاء بالحرب هو من أشدّ الابتلاءات التي تصيبهم، كما حدثت الحرب الإرهابيّة التّكفيريّة على سوريا، والقرآن الكريم يقرّر وضع المنافقين أثناء هذه الابتلاءات، فالله ﷻ يقول عندما يأتي الأمر: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي انفروا أجزاءً أو سرايا، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ أو جميعاً إن احتاج الأمر أن تكون النّفرة للجميع من أجل الدّفاع عن وطنهم ووجودهم ومستقبلهم وحاضرهم وأجيالهم، وجاءت هذه الآية لتثبّت الواقع النّفاقيّ في أيّ مجتمعٍ يوجد فيه منافقون، فلنرى كيف رصد القرآن الكريم حال النّفاق في المجتمع:

الآية (٧٢): ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ ﴾

هذه حالة النّفاق، إن أصابتكم مصيبةٌ؛ أي مشكلاتٌ أثناء الحرب وأصبح هناك خسائر وابتلاء يقول المنافق: قد أنعم الله ﷻ عليّ أنّي لم أكن معهم شهيداً، فنجد منهم من خرج عن الوطن، ومنهم من حارب الوطن، فيحمد الله ﷻ أنّه لم يكن معهم ولم يتحمّل شيئاً من الابتلاءات.

الآية (٧٣): ﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ﴾

إذا انتصرتم ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾، هذا هو الدّاء الحقيقيّ والخطر الّذي يُصيب المجتمع، وأصعب أنواع النّفاق هو الّذي يظهر أثناء الانتصارات.

والقرآن الكريم رصد حال المنافقين في معظم السّور المدنيّة، فنجد السّورة عندما تتحدّث عن المؤمنين تتحدّث عن الكافرين وتتحدّث أيضاً عن المنافقين، كسورة (البقرة) التي يوجد فيها ثلاث عشرة آية من بدايتها تتحدّث عن صفات المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة: الآية ١٠-١٥]، فمن صفاتهم الكذب، الفساد، مرض النّفس، الذّلّة، أمّا فيما يتعلّق بالآيات التي ستأتي في سورة (الأحزاب) فالله ﷻ يخبرنا بصفات المنافقين بشكلٍ دقيق عندما تكون الابتلاءات فيقول ﷻ: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب: الآية ١٨]، المعوّقون هم المثبّطون، يقولون لمن يدافع عن بلده: انعزلوا وابتعدوا واتركوا الدّفاع عن بلدكم فنحن لا نعرف إلى ماذا سيؤدّي هذا الصّراع، أو تعالوا لنغادر خارج البلد لنحمي أنفسنا ولنرى لمن سترجح الكفّة وإلى أين تميل فنميل، ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ ﴾ [الأحزاب: من الآية ١٩]، وعندما تحدث المصائب -مثل ما حدث في مجتمعنا أثناء الحرب- ما هو موقفهم؟ ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ [الأحزاب: من الآية ١٩]، من خوفهم وجبنهم وتركهم الدّفاع عن وطنهم -فانظر إلى الآيات كيف فضحتهم- وعندما يذهب الخوف، وتبدأ علامات الانتصار بالظّهور -كما حدث الآن- فإنّهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ ﴾ [الأحزاب: من الآية ١٩]، تبدأ ألسنة المنافقين والمتسلّقين (الّذين يبحثون عن مكانةٍ بعد الانتصار) تطول، أين كانوا وكيف طالت ألسنتهم؟

في القرآن الكريم سورةٌ كاملةٌ اسمها سورة (المنافقون)، يصف فيها الله ﷻ المنافقين بقوله: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: الآية ٤]، فهم

يتلوّنون حسب الأحداث، فعند الانتصار يقولون كلاماً يوافق أهواء النّاس، فماذا يقول الله تعالى عن المنافقين؟ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ أي ظاهرهم.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: هذا خطابٌ للنّبيّ ﷺ ولأمّته من بعده، كي يكشف حقيقة هؤلاء المنافقين، الذين تطول ألسنتهم، والمذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ولا يوجد قانونٌ يستطيع أن يحاسب المنافق والكذّاب والدّجّال الّذي يقول ويبطن غير ما يُظهِر ويتلوّن كالحرباء، فلا إثباتات عليه.

والقرآن الكريم بيّن لنا بعض معايير النّفاق، وأهمّ معيارٍ تغليب المصالح على المبادئ، فلا مبدأ لهم؛ لأنّهم يغلّبون مصالحهم، فأينما تكون المصلحة يكونوا معها.

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]، المصالح مزيّنةٌ للإنسان، لذلك قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران: الآية ١٤]، فالابتلاء الأساسيّ في هذه الحياة أن تختار بين المبادئ والمصالح، وهذا الأمر مهمٌّ، وهو خلاصة ما يريده الإسلام منك.

هناك مستشارٌ لرئيسٍ أميركيٍّ سابقٍ اسمه (روبرت كريـن)، هذا الرّجل درس سيرة النّبيّ ﷺ، وبعد دراسته للسّيرة النّبويّة أسلم، فقيل له: لماذا أسلمت؟ قال: «لأنّني تتبّعت سيرة محمّد ﷺ فوجدته عندما يتقلّب في أحوالٍ كثيرةٍ، من حال الانكسار إلى حال الانتصار، من حال الضّعف إلى حال القوّة، من حال الفقر إلى حال الغنى، من حال الصّحّة إلى حال المرض، في كلّ هذه الأحوال كانت المبادئ هي الأساس، يجعلها قبل المصالح، لم يساوم: على مبادئه في كلّ الأحوال التي مرّت عليه»، وأورد روبرت عندما أسلم فقرةً قال فيها: «الموقف الأساسيّ في ذلك أنّه عندما كان: مضطهداً وشريداً ومعذّباً جاءه كلّ زعماء قريش وقالوا له: يا محمّد إن أردت مالنا أعطيناك أموالنا، وإن أردت الملك سوّدناك علينا، وإن أردت الزّواج

زوّجناك من أجمل نسائنا، فقال النّبيّ ﷺ، وما زالت صرخته تهزّ وترنّ في آذان الزّمن عندما أجاب: «ياعمّ! والله لو وضعوا الشّمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتّى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»[1]، فقدّم المبادئ على المصالح، ووضع كلّ المصالح تحت قدميه وبقي ثابتاً على مبادئه».

لم تكن هذه حالةٌ فرديّةٌ، وإنّما هي حالةٌ جماعيّةٌ، فالصّحابة رضوان الله عليهم كانوا كذلك بعد الرّسول ﷺ، وقد امتُحِنوا بأشدّ الامتحانات، ولعلّ أقوى امتحانٍ مرّ على المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ارتداد قسمٍ من قبائل العرب، وذلك في عهد الصّدّيق أبي بكر رضي الله عنه.

وهنا يوجد أمران:

الأمر الأوّل: ارتداد قسمٍ من القبائل العربيّة.

الأمر الثّاني: حدوث قضيّةٍ ومشكلةٍ لأوّل مرّةٍ والرّسول ﷺ ليس معهم، فقد انتقل إلى الرّفيق الأعلى، ماذا يفعلون؟ اجتمع الصّحابة رضي الله عنهم حتّى يقدّموا المصلحة قالوا: يا أبا بكرٍ! فلنفاوضهم وبعد ذلك يؤدّون الزكاة، فوقف أبو بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه وقفةً عظيمةً في ذلك الوقت وقال: «والله لو منعوني عقال بعيرٍ أدّوها لرسول الله لقاتلتهم عليها»، ووازن بين المصالح والمبادئ واختار المبادئ على المصالح.

وأمرٌ طبيعيٌّ أن ترى المنافقين تطول ألسنتهم ويتصدّرون كالّذين يأتون الآن ويتحدّثون عن تطوير الخطاب الدّينيّ، ويريدون أن يقولوا ويفعلوا وأن يطوّروا هذا الأمر وهم يتحدّثون فقط، ماذا فعلوا؟! وما الّذي قدّموه؟!

النّفاق قد أكل من عقولهم، فهم يأتون فقط ليرضوا النّاس، ليقولوا أقوالاً لا تحارب التّطرّف الّذي ينبغي أن يحاربه كلّ مسلمٍ، وكلّ وطنيٍّ، وكلّ شريفٍ، وكلّ مؤمنٍ من كلّ الأديان، وهناك مَن يفرّق المجتمع عندما يهاجم أحاديث سيّدنا رسول الله ﷺ، وعندما يكذب ويفتري.

---

(١) الرّوض الأنف: مج٢، ص٦.

هـذا هـو النّفـاق، عندمـا تقـول: نحـن لا نأخـذ بالأحاديـث، بـل نأخـذ بالقـرآن فقـط، والقـرآن الكريـم بعضـه نـزل في وقتٍ معـيّنٍ، وهـذه الأحاديث فيهـا معانٍ غير مقبولـةٍ.. فعـلى المسـلم الحـقّ أن يبـيّنَ الأحاديـثَ وتفسـيرها الصّحيـحِ للنّـاس، وألّا يظلـم المجتمـعَ ويصدمـه؛ لأنّـه لا يوجـد مسـلمٌ عـلى وجـه الأرض يمكـن أن يتخلّى عـن أحاديـث رسـول الله ﷺ، والأمر واضـحٌ وعقول النّاس تعيـه جيّداً، وتميّـز الغَثَّ مـن السّـمين، والمنافق من الصّـادق، والله ﷻ بيّن هـذه الأمور في الآيـات، وبيّن أيضاً خـواء هـؤلاء المنافقـين فقـال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [البقـرة: مـن الآيـة ٢٠٤]، قـد يعجبـك قولهـم في الحياة الدّنيـا ويشـهدون الله ﷻ على ما في قلوبهـم وهـم ألـدّ الأعـداء، ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ ﴾ [البقـرة: الآيـة ٢٠٥].

والقـرآن الكريـم بـيّن بأنّهـم ليـس لهـم كرامـةٌ، فهـم يعيشـون الذلّـة، لمـاذا؟ لأنّ الإنسـان الّـذي يسـير وفق أهوائـه وتحرّكـه مصالحه لا كرامة لـه، ولا يمكـن أن يكون كالإنسـان الصّـادق والمؤمـن عزيـز النّفـس كريمها.

أمّـا الذّليـل والوضيـع الّـذي يكـون منافقـاً ويغـيّر مبادئـه فيكـون مـرّةً مـع العدوّ ومـرّةً مـع الوطن، ومـرّةً هنا ومـرّةً هناك، ويصمـت ولا يُسـمَع صوته عند الشّـدائد، وقـد قـال الله ﷻ ولكـنّ هـؤلاء لا يفهمـون هـذا القـول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨ ﴾ [المنافقـون: مـن الآيـة ٨]، شـاهدوا دقّـة التّعريـف بالمنافقـين، المنافقُ ذليـلٌ ولن يكون عزيـزَ النّفس أبداً؛ لأنّه لا يهتـمُّ بالمبادئ، بينـما الإنسـان العزيـز يهتـمّ بالمبـادئ ولا يهتـمّ بالمصالـح إلّا إذا كانـت هـذه المصالـح تـؤدّي إلى المبـادئ، فالآيـات هنـا واضحـةٌ وهـي ترصـد هـذا الأمر.

﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣ ﴾: عندمـا تـأتي النّعـم، وتتتالى الانتصـارات يتمنّى هذا المنافـق لـو أنّـه كان مـع المنتصرين فيطول لسـانه ويقدّم ويؤخّـر، والمنافق يعتقـد أنّه إذا مكـر ودبّـر فإنّـه يحقّق ما يريد، وهـذا اعتقادٌ خاطـئٌ؛ لأنّ الله ﷻ هو المدبّـر الوحيد في

هذا الكـون، يقـول الله ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، وكلّ ما يجري في الكون له فاعلٌ واحدٌ، لكنّ المنافق لا يعرف هذا الأمر، فهو لا يؤمن بالله ﷻ الإيمان الحقيقيّ، لذلك سيكون ذليلاً، ولقد جاءت آياتٌ متتاليةٌ عن حركة النّفاق في المجتمع، ورأس النّفاق في المجتمع الإيمانيّ في المدينة المنوّرة عبد الله بن أبيّ ابن سلول، الّذي وقف مواقفَ سيّئةً في كلّ الغزوات التي خرج بها رسول الله ﷺ، وفي غزوة الخندق تآمر اليهود مع المنافقين، والآن نرى كلّ ذلك التّآمر على الأمّة من أعدائها من الصّهاينة اليهود، الّذين كان مفتاحهم المنافق المتعاون؛ لأنّ الإنسان المؤمن يؤمن بالله ﷻ ويتمسّك بالمبادئ، أمّا الإنسان المنافق فهو لا يؤمن بالله ﷻ حقيقةً ولا مبدأ له، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النّساء: الآية ١٤٥]، ولم يقل: الكافرين، إنّما قال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لأنّهم أشدّ خطراً على بنيان المجتمع من أيّ شيءٍ آخرَ، ومع وجود حركة النّفاق التي قادها عبد الله بن أبيّ ابن سلول فإنّ النّبيّ ﷺ لم يكن ليفرّق المجتمع، فقد كان عليه الصّلاة والسّلام يعلم مَن هو المنافق ومَن هو المؤمن، فالله تبارك وتعالى يدلّه عليهم عن طريق جبريل عليه السلام، ومع ذلك، حفاظاً على وحدة المجتمع، لم يكن يذكر أسماءهم، بل يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا!»، وكان النّبيّ ﷺ مأموراً أن يعظ النّاس، وهذا هو الإسلام الذي ليس فيه إكراهٌ ولا إجبارٌ. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: الآية ٢١-٢٦].

والقرآن الكريم تتبّع دخائل المنافقين في المجتمع وفضحهم ليبيّن لهذه الأمّة بأنّ الخطر عليها في أيّ وقتٍ من الأوقات هو من حركة النّفاق، ومن النّاس الذين يقدّمون مصالحهم على مبادئهم، كما حصل أثناء الأزمة التي مرّت بها سورية، والّذين يتعاملون مع أعداء الوطن، وبعد ذلك يدّعون الشّرف والوطنيّة والإيمان والإسلام، فمن خان الوطن لا يستطيع أبداً أن يكون في أيّ وقتٍ من الأوقات

وطنيّاً ومؤمناً؛ لأنّه خرج عن وطنه عندما استعدّ النّاس للدّفاع عن شرفهم ووجودهم أمام أعدائهم، وأمام التّطرّف، وأمام كلّ قوى الأرض التي حاربت سورية، وعندما انتصرت سورية بسبب صمودها وما قدّمته من شهداءَ، جاء المنافقون ليقحموا أنفسهم مع من صمد وقدّم وضحّى، هذا بعيدٌ عنهم، فليس للمنافقين مكانٌ بيننا أبداً.

الآية (٧٤): ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

جاءت هذه الآيات في سورة (النّساء) بعد الحديث عن النّفاق وما يتعلّق بحركة النّفاق في مجتمع المدينة المنوّرة، وماذا فعل اليهود مع رسول الله عليه الصّلاة والسّلام وكيف تحالفوا مع قريش والقبائل العربيّة.

وكان النّبيّ ﷺ في مكّة مضطهداً محاصراً ممنوعاً من تبليغ الدّعوة، وعندما هاجر إلى المدينة المنوّرة وبعد أن أُخذت وسُلبت الأموال والدّور وهُجّروا من بلدهم وديارهم، فإنّ الله ﷻ أذن لهم بالقتال والدّفاع عن وطنهم وأعراضهم وأموالهم وأرضهم فقال:

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾: يشري تختلف بالمعنى عن يشتري، يشري تأخذ معنى البيع وتأخذ معنى الشّراء، قال ﷻ: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ۚ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف: الآية ٢٠]، أي باعوه بثمنٍ بخسٍ.

فالّذي يُقاتل في سبيل الله تبارك وتعالى؛ أي أنه يقاتل في سبيل وطنه وأرضه وعرضه؛ لأنّ الإسلام لم يأت من أجل فرض الدّين، وإنّما جاء لحماية حريّة اختيار الدّين.

﴿ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾: يبيعون الدّنيا من أجل الحصول على جنّات ونعيم الآخرة.

﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾: إذا استُشهد

في سبيل الله ﷻ فسيكون منعّماً عنده، هذه البشرى للشّهداء الّذين يدافعون عن أرضهم ووطنهم وعرضهم وحقوقهم، فالمقاتل في سبيل الله ﷻ أمامه أحد احتمالين: إمّا أن يستشهد، وإمّا أن ينصره الله ﷻ، لذلك يؤتيه ﷻ أجراً عظيماً.

الآية (٧٥): ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

وهؤلاء الّذين لم يستطيعوا أن يهاجروا من مكّة -القرية الظّالم أهلها- إلى المدينة المنوّرة، عليكم أن تقاتلوا من أجل إخراجهم، فقد كانوا يدعون الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، هم يلجؤون إلى الله ﷻ، والله ﷻ كلّف الرّسول ﷺ والمؤمنين من الصّحابة رضوان الله عليهم بملاقاة جيش قريش في بدر وأُحُد والخندق، وفي هذه المعارك دافع المسلمون عن وطنهم وأرضهم وحقّهم.

الآية (٧٦): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الذين يقاتلون في سبيل الله ﷻ هم الّذين آمنوا، وقد بيّنا أنّ سبيل الله ﷻ هو ردّ الاعتداء عن الأوطان والنّاس، فحرمة الدّم والعرض والمال، هذا هو سبيل الله ﷻ، وليس كما يعتقد بعضهم أنّ سبيل الله ﷻ هو أن تقاتل لتجبر النّاس على دينه ﷻ، فالدّين دين اختيارٍ لا إجبارٍ، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: من الآية ٢٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الطّاغوت: من الطّغيان، ويتمثّل فيه الشّيطان، فالكافر يُقاتل عن الشّيطان والطّغيان، وعن البغي وتجاوز الحقوق والاعتداء على حياة النّاس وأموالهم وأعراضهم.

﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾: أولياء الشّيطان الذين جعلوا ولايتهم له، لكلّ عناصر الشّرّ في هذه الحياة الدّنيا، والشّيطان يمثّل الشّرّ. فهناك مخلوقاتٌ تسمّى الجنّ، والكافر منها يُسمّى شيطاناً، وتحدّثنا سابقاً عن تعريف الجنّ، وقلنا بأنّه ليس كلّ ما لا تراه العيون فهو غيرُ موجودٍ، والأدلّة في الكون واضحةٌ، منها البكتريا والجراثيم و... التي لا نراها، لذلك لا نستغرب وجود هذا الأمر علميّاً، فنحن نوقن أنّ الله ﷻ طالما قال فقد صدق.

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفٗا﴾: الكيد: المكر والتّدبير بخفاء، وهذا الكيد للشّيطان ومهما كان فهو ضعيفٌ؛ لأنّه يستند إلى الطّغيان وإلى الباطل، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: الآية ٨١].

ولكن لا بدّ من الاستعانة بالصّبر والصّلاة والتّقوى، والتّمسّك بالمبادئ وتقديمها على المصالح، في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات تبرز فيه حركة النّفاق، كما برزت في المدينة المنوّرة وقادها عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وما فعله في غزوة تبوك من تخذيلٍ للنّاس عن القتال إلى جانب رسول الله ﷺ، فالمنافقون ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النّساء: من الآية ١٤٣]، يضعون قدماً هنا وقدماً هناك، ويتعاملون مع أعداء الوطن كما تعاملوا مع أعداء الرّسول ﷺ في ذلك الوقت، نحن نرى مصداق الآيات القرآنيّة الآن، فلا بدّ في كلّ آيةٍ قرآنيّةٍ من إسقاط النّص على الواقع، فالقرآن الكريم صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، ولا بدّ من عدم تسطيح العقل في فهمه وبيان هذا الأمر للنّاس.

الحديث هنا عن الرّسول ﷺ في المدينة المنوّرة وقريش في مكّة، والقتال الّذي جرى، والمستضعفين من الرّجال والنّساء والولدان الّذين لم يستطيعوا الخروج من مكّة إلى المدينة، صحيحٌ هذا سبب النّزول لكن خصوصيّة السّبب لا تُلغي عموميّة المعنى، فالقرآن الكريم له عموميّة معنى؛ لأنّه كلام الله ﷻ الّذي يستوعب الزّمان والمكان، لذلك عندما نقرأ آياته، كالآيات السّابقة المتعلّقة تحديداً بصفات المنافقين، كان واضحاً تماماً وكأنّ هذه الآيات تنزل الآن، ونرى مصداقها، هذا هو القرآن

الكريم في كلّ آياته. وكلّما تطوّر العقل البشريّ أخذ من القرآن الكريم ما يناسب العصر الّذي يعيش فيه الإنسان، ويستند إلى سنن الله ﷻ في الكون وإلى ما جرى من عِبَر في القصص القرآنيّ، وما جرى مع النّبيّ ﷺ، وخصوصاً تركيز القرآن الكريم على حركة النّفاق التي تكون الأخطر في ظلّ الانتصار.

فكيد الشّيطان ضعيفٌ مهما كاد؛ لأنّه يمثّل الباطل.

الآية (٧٧): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾: أي لا تقاتلوا، ففي مكّة لم يكن هناك أذن للقتال، وإنّما سُمح لهم بعد أن هُجّروا وأُخرجوا من ديارهم بغير حقّ.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾: عندما أصبحوا في المدينة.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: وهم المنافقون.

﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: هؤلاء لا يضعون الله ﷻ في حسابهم، هم المنافقون الّذين يتذبذبون حسب المصالح، ويخشون النّاس أشدّ خشيةً من الله ﷻ، وكما نرى الآن يخشون أمريكا وإسرائيل، والقوى التي تدعمهم، فأين الله تبارك وتعالى بالنّسبة لهم؟ هم يخشون النّاس أشدّ من خشيتهم له ﷻ.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾: لأنّهم يخافون من الموت.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾: متاع الدّنيا متاع الغرور، ومهما كان، فهو قليلٌ؛ لأنّها دنيا أغيار، وهي زائلةٌ لا يمكن أن تدوم لأحدٍ، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزّمر: الآية ٣٠]، هذا قانونٌ إلهيٌّ ما استطاع أحدٌ أن يتخلّف عنه منذ أن خلق الله ﷻ آدم عليه السلام إلى أن يرث الله تبارك وتعالى الأرض ومن عليها، فمهما كان متاع الدّنيا طالما أنّه زائلٌ فهو قليل، وطالما أنّك ستترك النّعمة أو أنّ النّعمة ستتركك فإذاً هو قليل.

﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: والآخرة خيرٌ؛ لأنّ نعيم الآخرة دائمٌ، فلا موت في الآخرة ولا أغيار.

ولا يُظلم الإنسان عند الله ﷻ؛ لأنّه ﷻ هو العدلُ، وهو القائل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: الآية ٤٧].

الآية (٧٨): ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

الموت مخلوقٌ؛ فقد ورد في الحديث الصّحيح أنّه يموت في الآخرة، كيف ذلك؟ الموت له زمانٌ ومكانٌ، سرّه في الروح، فالرّوح فيها الحياة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾: هنا الحديث عن المكان؛ أي مهما تحصّنت في قصورٍ وبروجٍ وقلاعٍ... فإنّ الموت سيدركك، كلمة ﴿يُدْرِككُّمُ﴾ تشير باللّغة العربيّة إلى أنّ الموت يلاحق الرّوح ملاحقةً فيدركها ويأخذها، وكأنّ الإنسان منذ ولادته أُطلق عليه سهم الموت مع روحه، وهو يلاحقه حتّى يصل إليه عند انتهاء أجله، كما يقول الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «الموت سهمٌ أُرسل إليك ويصل إليك بمقدار أجلك»، وكأنّ الإنسان في سباقٍ ما بين الرّوح وبين الموت؛ فالرّوح هي سرّ الحياة، وعندما تذهب الرّوح ترى الإنسان الذي كان مليئاً بالنّشاط والحركة، والأجهزة التي كانت تعمل، والدّم الذي كان يسيل، والقلب الذي كان ينبض، والشّرايين والأعصاب والمعدة والعضلات.. كلّ هذه الأمور تراها توقّفت في لحظةٍ واحدةٍ وأصبحت بعد ساعاتٍ جيفةً، وتحوّلت بعد ذلك إلى صلصالٍ، ثمّ إلى طينٍ، ثمّ إلى ترابٍ، فالسّرّ هو الرّوح، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، الله ﷻ لم يعطِ سرّ الرّوح لأحدٍ، ولا حتّى لنبيّه ﷺ، لكنّه ﷻ بيّن أنّ الموت يلاحق

الـرّوح منـذ نفخهـا في الجنـين، لذلـك يقـول الشّـاعر:

نَسِـــيْرُ إلى الآجـــالِ في كُلِّ لَحظـــةٍ
وأَعْمَارُنـــا تُطـــوَى وَهُـــنّ مَراحـــلُ

ولم أَرَ مِثْـــلَ المـــوتِ حقّـــاً كَأنّـــما
إذا مَـــا تَخطّتـــه الأَمـــانيُّ باطـــلُ

فَكَيـفَ بـهِ والشَّـيْبُ للـرّأْسِ شَـاملُ
ومَـا أَصْعَـبَ التّفرِيـطَ في زَمَـنِ الصّبـا

تَرَحَّـلْ مـن الدّنيـا بـزادٍ مِـنَ التُّقـى
فعمـــرُكَ أَيّـــامٌ وهـــنّ قَلائِـــلُ

كان سـيّدنا الإمـام عـليّ بـن أبي طالـب كـرّم الله وجهـه يقـول: «مسـكينٌ ابـنُ آدَمَ، مَكتـومُ الأجـل، مَكنـونُ العِلَـل، محفـوظ العمـل، تؤلِمه البقَّـة، وتقتلـه الشَّرْقَـةُ، وَتُنتِنهُ العَرْقَـة، عجبـت كيف يفرح بالدّنيا مَن يومه يهدم شـهره، وشـهره يهدم سـنته، وسـنته تهـدم عمـره، كيـف يفـرح بالدّنيا مَـن تقوده حياتـه إلى موته ويقـوده عمـره إلى أجله».

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾: والمنافقـون يقولـون: الله ﷻ أعطانـا الحسـنة، أمّـا إن أصابهـم شيءٌ فيقولـون لرسـول الله ﷺ: هـذا مـن عندك، كما نـرى المنافقين الآن إذا أخـذوا، قالوا: هـذا حقّنا، الله ﷻ أعطانـا إيّـاه، وإذا وجـدوا سـيئةً يقولون: فـلانٌ وفلانٌ.

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾: هنـا السّـؤال الّـذي يتـوارد إلى الأذهـان، هـل أفعـال العبـاد مخلوقـةٌ لله ﷻ؟ هـذا السّـؤال حـيّر العلـماء، هـل الحسـنة مـن عنـدك والسّـيّئة مـن عنـدك؟ أم الحسـنة مـن عنـد الله ﷻ والسّـيّئة مـن عنـدك؟ أم الحسـنة والسّـيّئة مـن عنـد الله ﷻ؟ الله تبـارك وتعـالى يقـول في الآيـة الآتيـة: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾، وقبلهـا قـال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ كيـف ذلـك؟ يجـب علينـا أن ننتبـه إلى قضيّـةٍ مهمّـةٍ تتعلّـق بالقوانـين التـي خلقهـا الله ﷻ للإنسـان،

نضرب مثلاً، ولله ﷻ المثل الأعلى، (ليس للتّشبيه وإنّما للتّقريب)، تضع الجامعة بقوانينها أنّ علامة النّجاح في مادّةٍ ما خمسون، وفي مادّةٍ أخرى سبعون، فهل القانون كان سبباً في نجاح الطّالب لأنّه ذكر ذلك؟ أو أنّ جهده هو الّذي أسهم في نجاحه؟ قانون الجامعة بيّن أنّ من أخذ خمسين فما فوق أو ستّين فما فوق ينجح، ولكن إن لم يدرس الطّالب يرسب، وإذا درس نجح، مثالٌ آخر: الله ﷻ خلق لك اليد وهي صالحةٌ لتعطيَ وتفعل وتعمل الخير، وهي صالحةٌ لتقتل وتضرب وتبطش، فعندما توجّه حركة اليد بالسّيّئة فستُحاسب على السّيّئة، تسأل ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؟ لأنّ الله ﷻ لو لم يخلق لك هذه اليد لما استطعت أن تضرب أو تبطش فيها، ولو لم يخلق هذه اليد لما استطعت أن تكتب وتفعل الخير وتُعمّر الأرض فيها، فعندما يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، فهذا أمرٌ طبيعيٌّ؛ لأنّ الله ﷻ أودع فيك هذه القوّة وترك لك الاختيار في توجيهها، فإذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الحسنة والسّيّئة فهذا صحيحٌ، وإن قال: السّيّئة من عندك فهذا صحيحٌ؛ لأنّك وجّهت الطّاقة التي خلقها فيك وترك لك الاختيار، فسيحاسبك على اختيارك وليس على الطّاقة التي أودعها فيك، فالله ﷻ أودع فيك الطّاقة وقال لك: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، وهذا صحيحٌ وهذا غير صحيحٍ، وهذا يجوز وهذا لا يجوز، لا تقتل، لا تزني، لا تكذب، لا تغتب، لا تنمّ، لا تفعل الفاحشة، لا تشرب الخمر، لا تلعب القمار، لا تسرق، لا... بيّن لك إن فعلت السّيّئة فستحاسب عليها، ولو أرادك الله ﷻ طائعاً لخلق البشر كالملائكة: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التّحريم: من الآية ٦]، إذاً: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾، ولكن سيحاسبك ﷻ على السّيّئة؛ لأنّك وجّهت الطّاقة التي خلقها فيك باتّجاه السّوء الّذي أمرك تبارك وتعالى بالابتعاد عنه.

الآيـة (٧٩): ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾: لأنّك وجّهت هذه الطّاقة باتّجاه الحرام.

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ﴾: والرّسول عليه تبليغ الرّسالة.

الآيـة (٨٠): ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾: قولٌ إلهيٌّ قاطعٌ، فلا تقل: إنّ علاقتي مع الله ﷻ وسأترك أحاديث سيّدنا رسول الله ﷺ وهديه وسنّته وسيرته وأمره ونهيه.

ومن عظمة هذا الدّين أنّ الله ﷻ لم يجعل نصرة النّبيّ ﷺ من عشيرته وقبيلته قريش، وإنّما هم الّذين ناصبوه العَداء، وأخرجوه وقاتلوه. لماذا؟ لأنّ الله ﷻ لا يريد أن تكون النّصرة للإيمان بمحمّد عصبيّةً قبليّةً أو جاهليّةً، وإنّما الإيمان بمحمّد هو إيمانٌ بتلك العقيدة التي جاء بها محمّد ﷺ، والتي نزلت على قلبه عليه الصّلاة والسّلام، وبتلك الرّسالة العظيمة، رسالة الإسلام، التي تجعل النّاس يحبّون النّبيّ ﷺ على مرّ الزّمن.

فلماذا هذا التّأكيد والتّركيز في كتاب الله ﷻ على طاعة سيّدنا رسول الله ﷺ؟

الطّاعة لرسول الله ﷺ هي جزءٌ لا يتجزّأ من الإيمان بالله ﷻ؛ لأنّه جلّ وعلا أنزل القرآن على قلب رسوله ﷺ، والرّسول ﷺ ليس مكلّفاً فقط بتبليغ الرّسالة وإنّما يشرّع بما أمر الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: من الآية ٧]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣١]، القرآن الكريم كلام الله ﷻ للبشر، جاء معجزاً شاملاً لكلّ قضايا البشر في كلّ الأزمان والأماكن، فالنّبيّ ﷺ كُلّف من قِبَل

الله ﷻ عندما قال لـه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النّحل: من الآية ٤٤]، ليشرح معاني القرآن الكريم، ويحدّد ويشرّع من خلال أوامره ﷺ، يقول عليه الصّلاة والسّلام: «كلّ أمّتي يدخلون الجنّة إلّا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنّة، ومن عصاني فقد أبى»[1]، فأنت لا يمكن أن تجد في القرآن الكريم مثلاً ما هو عدد الرّكعات في صلاة الظّهر أو العصر أو المغرب أو العشاء، ولا يمكن أن تجد نصاب الزّكاة، أو مناسك الحجّ، فالله ﷻ فوّض إلى النّبيّ ﷺ التّشريع وبيان كثيرٍ من الأمور للنّاس، لذلك طاعة الرّسول ﷺ هي من طاعة الله ﷻ، فجاءت هذه الآيات المؤكّدة للمعنى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، ولو أنّ القضيّةَ رسالةٌ تُبلّغ للنّاس فقط، وبعد أن ينتقل الرّسول الكريم إلى الرّفيق الأعلى ينتهي كلّ شيءٍ لكان الأمر مختلفاً، ولكنّ رسول الله ﷺ معنا من خلال هديه وسنّته وسيرته وسلوكه وأمره ونهيه عليه الصّلاة والسّلام، قال ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: من الآية ٧]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]، هذه قضيّةٌ مهمّةٌ، أكّد عليها كتاب الله ﷻ؛ لعلمه ﷻ بأنّه سيأتي أشخاصٌ في زمنٍ من الأزمان ويقولون: ما جاء في القرآن الكريم نأخذ به ونكتفي بذلك، ويدعون حديث وكلام النّبيّ ﷺ، فيشكّكون بكلّ أصول الدّين، ولا يمكن أن تكون أصول الدّين إلّا من خلال سيّدنا رسول الله ﷺ، فقد بيّن عليه الصّلاة والسّلام للنّاس كلّ الأحكام، وتفسير الآيات وشرحها من خلال تصرّفاته ﷺ؛ لأنّ القرآن الكريم حمّال أوجه.

وأكبر دليلٍ على أنّ النّبيّ ﷺ كان ينظر إلى المستقبل عندما قال: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عنّي وهو متّكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه، وإنّ ماحرّم رسول الله ﷺ كما

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، الحديث رقم (٦٨٥١).

حرّم الله»[1]، كأنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام معنا، وهو معنا؛ لأنّه ﷺ يتحدّث عن أشخاصٍ ينكرون أحاديثه ﷺ، فالإنسان يتّكأ على أريكته ويقول: بيننا وبينكم القرآن الكريم، ما وجدنا فيه من حلالٍ حلّلناه، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرّمناه، والرّسول يردُّ عليهم بقوله ﷺ: «وإنّ ماحرّم رسول الله ﷺ كما حرّم الله»؛ لأنّه عليه الصّلاة والسّلام مكلّفٌ من قِبل الله ﷻ ببيان أحكام الدّين.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: أي من تولّى وأعرض عن حديثك وعن سيرتك وهديك وأخلاقك يا محمّد، ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، انظر لدقّة القرآن الكريم في التّعبير عن طبيعة الرّسالة الإسلاميّة ردّاً على كلّ الذين يقولون: إنّ الإسلام هو دين قهرٍ وإجبارٍ، بينما هو دين خيرٍ واختيارٍ، وجاء لحريّة الاعتقاد ولا يجبر أحداً على الإطلاق، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ فماذا ستفعل يا رسول الله؟

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: الحفيظ: هو المهيمن والمسيطر.

ما أرسلناك يا رسول الله عليهم مهيمناً ولا مسيطراً، عليك البلاغ فقط، وإنّك لن تُنصر بمن أُرسلت إليهم ولكنّك تُنصر بمن أرسلك، فالله ﷻ نصر رسوله ﷺ، وأولئك النّاس الّذين يعرضون عن هديه ﷺ حسابهم عند الله ﷻ، فمنهج الإسلام كما جاء في القرآن الكريم تأكيداً لهذه الآية: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: الآية ٢١-٢٢]، ولا يأتي إنسانٌ أو جماعةٌ وتهيمن على النّاس وتفرض عليهم الأمر الدّينيّ؛ لأنّه لا يكون إلّا اختياراً، ولا يكون إلّا عن عقيدةٍ تُبحث في العقل أوّلاً، ومن ثمّ تستقرّ في القلب، ولا يكون الإسلام بإكراه النّاس على الصّلاة والحجاب وأداء الأركان الإسلاميّة، وإنّما يجب أن يكون الإنسان مختاراً عن قناعةٍ وعقلٍ وتفكّرٍ وتدبّرٍ لهذا الأمر، وإلّا لما حاسب الله ﷻ النّاس؛ لأنّ الإنسان المجبر لا يُحاسب، وهو يُحاسب على اختياره وليس على ما أُجبِر عليه، وفي القرآن الكريم آياتٌ متعدّدةٌ حول هذا الأمر.

---

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النّبيّ ﷺ، الحديث رقم (٢٦٦٤).

الآيـة (٨١): ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

يقـول المنافقـون: طاعـةٌ، فـإذا خرجوا من عنـد رسـول الله ﷺ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ﴾ والطّائفـة هـم المنافقـون الذيـن يبيّتـون الأمـر ويقولـون: طاعةٌ، أي نطيعـك يا رسـول الله.

﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟﴾: أي خرجوا، ﴿بَيَّتَ﴾ أي بالخفاء.

﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ﴾: هذه من علائم النّفاق.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ﴾: الله ﷻ مطّلـعٌ عـلى السّرائـر والعلانيـة، يعلـم السّرّ وأخفـى، ويكتـب ليـومٍ لا ينفـع فيـه مـالٌ ولا بنـونَ، إلّا مـن أتـى الله بقلبٍ سـليمٍ.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾: لم يقل: اقتلهم، ولم يقل: قاتلهم، بل قال تبارك وتعالى: أعرض عنهم وتوكل على الله ﷻ؛ لأنّنا قلنا: بأنّك لن تنتصر بمن أُرسلت إليهم، وإنّما تنتصر بمن أرسلك، فإذاً أعرض عنهم وتوكّل على الّذي ينصرك، وهذا أكبر دليلٍ من القرآن الكريم على حريّة الاختيار، فالإنسان لا يُجبر على دينه أبداً.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: الإنسان يوكّل ليرتاح -مثلاً يوكّل محامياً ليدافع عنه- وعندما يوكّل اللهَ ﷻ ويتّكل عليه فالنّتيجة كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطّلاق: من الآية ٣]، فالله ﷻ هو الكمال وهو القويّ الّذي لا يُغلب، والعزيز وهو الّذي يقول للشّيء: كن فيكون، ولا يستطيع أحدٌ أن يردّ حكمه ﷻ.

الآيـة (٨٢): ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

عندمـا بدأنـا تفسـير القـرآن الكريـم كانت هـذه الآية عنواننا وشـعارنا والأسـاس الـذي بدأنـا به تفسـير القـرآن الكريـم وتدبّره.

يقـول ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمّـد: الآيـة ٢٤]،

ويقول جلّ وعلا: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: الآية ٢٩]، وردت أكثر من مرّةٍ وأكّد عليها المولى ﷻ هنا بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾.

القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ، وهو صفةٌ من صفاته ﷻ، وصفة الكامل الكمال، وعندما تتعامل مع القرآن الكريم مطلوبٌ منك أن تتدبّره، فكيف يكون ذلك؟ هناك مرحلتان في القرآن الكريم، المرحلة الأولى هي التّفكّر، والمرحلة الثّانية هي التّدبّر. فما هو الفارق بين التّفكّر أوّلاً، وبعده التّدبّر؟ بالنّسبة للتّفكّر الله ﷻ جعل للإنسان آلةً فكريّةً، فيجب عليه أن يُعمل فكره في كتاب الله ﷻ ولا يسطّح عقله في فهم المراد من كلامه ﷻ، فالتّعمّقُ في القرآن الكريم يجعل عطاءَه ممتدّاً عبر الزّمان، فهو كتابٌ كريمٌ عطاؤه لا ينفد، وكلّما تطوّر العقل البشريّ استمدّ من القرآن الكريم ما يناسبه؛ لأنّ قائله هو الله ﷻ، وخالق العقل هو الله ﷻ، وهذا العقل هو آلة تفكيرٍ فعليك أن تتفكّر، ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: الآية ١٩٠-١٩٢]، وبعد أن تتّفكر تنظر في أدبار الأشياء، وفي مآل الأمور وخلفيّاتها وكأنّك تسمع من الله ﷻ، لذلك التّعامل مع القرآن الكريم لا يكون كالتّعامل مع أيّ كتابٍ آخر، فلا تستطيع أن تقترب من كتاب الله ﷻ إلّا إذا كنت طاهراً كما قال ﷻ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: الآية ٧٩]، فالإنسان يجب أن يكون قد استعدّ جسديّاً وروحيّاً لملاقاة كلامه ﷻ، من أجل أن يستمدّ من أنواره ﷻ ومن عطائه المدد، ولا يُؤتى المدد إلّا لمستقبلٍ المدد، ولا تستطيع أن تستقبل المدد القرآنيّ إلّا إذا كنت مؤهّلاً له، فيجب أن تكون طاهراً متوضّئاً، وتقرأ القرآن الكريم كأنّك تسمعه من الله ﷻ فتلين الجلود والقلوب لذكره ﷻ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: الآية ٢٨]، إذاً له علاقةٌ بالرّوح، وعلاقةٌ بالقلب، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾

[الشّورى: من الآية ٥٢]، كذلك يقول المولى ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشّعراء: الآية ١٩٣-١٩٤]، على قلب الإنسان يأتي رنين القرآن الكريم ويلامس شغافه وروحه، فإذا قرأت القرآن ككتابٍ عاديٍّ فلن تستطيعَ أن تستمدَّ منه شيئاً، لذلك تبدأ أوّلاً بأعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم حتّى تجعل بينك وبين هواجس ووساوس الشّيطان حاجزاً، فتستعيذ بربّك الّذي خلقك وخلق الجنّ، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: الآية ٩٨].

وتدبّر القرآن الكريم له أمورٌ كثيرةٌ، فالقرآن الكريم يكشف حُجُب التّاريخ الماضي: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: الآية ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: الآية ٤٤-٤٦]، ويكشف حُجب المستقبل: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: الآية ٤٥]، عن أنس أنّ عمر بن الخطّاب قال: لـمّا نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قلت: أيّ جمعٍ هذا؟ فلـمّا كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ وبيده السّيف مصلتاً وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[1]، وكذلك: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرّوم: الآية ١-٤]، كشف حُجُب المستقبل وحُجُب الماضي، وأخبرنا عن قصص الأنبياء وعـمّا جرى، ولقد أثبت العلم التّجريبيّ دقّة ما جاء في القرآن الكريم، مثلاً: نعلم بأنّ كلّ حكّام مصر فراعنة، إلّا في عهد سيّدنا يوسف عليه السلام، فعندما تحدّث المولى ﷻ في سورة (يوسف) قال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ

(١) المعجم الأوسط للطّبرانيّ: ج٤، من اسمه عليّ، الحديث رقم (٣٨٢٩).

﴿أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: الآية ٥٠]، أعطى إشارةً تاريخيّةً، وكان ذلك في وقت الهكسوس الذين طردوا الفراعنة.

وهناك قضايا تاريخيّةٌ يتحدّث عنها القرآن الكريم ويكشفها، ولم يستطع العقل البشريّ أن يعرف عنها شيئاً إلّا بعد أن اكتشف الآثار، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ، وقد تحدّثت باستفاضةٍ عن سفينة نوحٍ وفرعون تحوتمس عندما قال ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: الآية ٩٢]، هذه الأمور التّاريخيّة كشفها القرآن الكريم، وهو أيضاً يتعامل مع الواقع والحياة، فإذا أخذت أيّة آيةٍ في القرآن الكريم، وأنزلت النّصّ على الواقع لرأيت مصداق أنّ القرآن الكريم يعالج الواقع في كلّ زمانٍ، فالآن عندما نرى المنافقين -وقد تحدّثنا عنهم سابقاً- كيف تطول ألسنتهم وكيف يتحدّثون وأين كانوا...، نرى مصداق الآيات القرآنيّة، فلا بدَّ من تدبّر القرآن الكريم، ولا بدّ من التّفكّر، لذلك يقول المولى ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾، فمثلاً عندما يقول سيّدنا المسيح عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: الآية ١١٨]، كلّ النّاس يعتقدون أنّ تذييل الآية: (إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت الغفور الرّحيم)، بينما نحن نرى القرآن الكريم يقول: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، كيف نتدبّر هذا الأمر؟ السّيّد المسيح عليه السلام يخاطب المولى ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾، فلو قال: إنّك أنت الغفور الرّحيم، فكأنّ الإنسان إذا عذّبه الله ﷻ أو غفر له فهو يأخذ بصفة المغفرة والرّحمة، لكنّ الله ﷻ عندما يخاطبه نبيٌّ من الأنبياء ويقول: إن تعذّبهم فإنّهم عبادك؛ أي أنت عزيزٌ ومستغنٍ عن عبادة خلقك، وإن تغفر لهم، فأنت حكيمٌ، والحكيم هو الّذي يضع الشّيء في مكانه المناسب وهو عنده غاية الصّواب، فتأتي نهاية الآية دقيقةً.

وعندما يتحدّث المولى ﷻ عن السّرقة فيقول: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: من الآية ٣٨]، ولكن عندما يتحدّث عن الزّنى يقول: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ [النّور: من الآية ٢]،

كلّ كلمةٍ جاذبةٌ لمعناها في كتاب الله ﷻ ولا بدّ من تدبّرها، فقوله ﷻ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ ﴾؛ لأنّه بالشّكل العامّ والأكثر عملاً بالسّرقة هم الذّكور، فيُقدّم هنا السّارق، أمّا في الزّنى فمؤهّلات ومقدّمات الزّنى تتعلّق بالمرأة لذلك قال ﷻ: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي ﴾، فعلينا أن نتنبه لكلّ كلمةٍ في كتاب الله ﷻ، ومثالٌ آخر، قوله ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّحمن: الآية ١٩-٢٠]، عند تفسير الآية في وقت نزول القرآن الكريم، كانوا يعتقدون أنّ البرزخ من الغيوم، ولكن تبيّن بالأقمار الصّناعيّة أنّ هناك حاجزاً مائيّاً تختلف كثافته ووزنه ما بين البحر والنّهر، ويكون مختلفاً عن الاثنين سويّة، وقوله ﷻ: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: الآية ٤٠]، تبيّن بواسطة الأبحاث العلميّة أنّ القمر أسرع من الشّمس، والآيات التي تثبت حقائق علميّةً كثيرةً في القرآن الكريم، وذكرنا سابقاً أنّ القرآن الكريم ستّة آلاف ومئتان وستّ وثلاثون آيةً، منها خمسمئة آية أحكام، فعلينا أن نتدبّر ونعرف عن قرآننا الكريم وعن سنّة نبيّنا ﷺ، كلّ العبادات والأحكام خمسمئة آية، وباقي الآيات تتعلّق بالسّنن الكونيّة والعلم، والسّنن الكونيّة هي القوانين التي نظّم الله ﷻ الكون عليها تاريخيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً وعلميّاً، فنجد أنّ أكثر من ثلاثة أرباع القرآن الكريم للقصص القرآنيّ، وهي السّنن الكونيّة التي لا تتخلّف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: الآية ١١١]، فعلينا الاعتبار بما قصّ الله ﷻ من الزّمن الماضي، وكذلك الآيات العلميّة آياتٌ كثيرةٌ جدّاً، فالتّدبّر مطلوبٌ؛ لأنّك كلّما تطوّرت علميّاً استطعت أن تستنتج من كلام الله ﷻ ما يناسب التّطوّر العلميّ، وقد تحدّثنا عن مدّة خلق الأرض، وعن مراحل تطوّر الجنين: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:

الآية ١٢-١٤]، وعندما تطوّر علم الأجنّة أثبت مراحل التّطوّر كلّها، ومن ثمَّ المراحل المتعلّقة بحياة الإنسان أو الموت أو التّراب أو الصّلصال.. كلّ هذه الأمور موجودةٌ ومكتنزةٌ في كتاب الله ﷻ، وعندما نقول مكتنزةٌ؛ أي بحاجةٍ لمن يبحث عن الكنز، والتّدبّر مطلوبٌ، وهو مطلوبٌ في القرآن الكريم وفي اللّغة العربيّة أيضاً، فإذا لم تكن ضليعاً باللّغة العربيّة فلن تعرف عن كتاب الله ﷻ وعن مراد كلامه ﷻ شيئاً، مثلاً في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥١]، وفي آيةٍ أخرى يقول فيها ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: الآية ٣١]، يختلف العجز في كلّ آيةٍ من الآيتين، وعندما يختلف العجز في الآيتين ماذا نقول؟ عندما يقول ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي أنّ الفقر واقعٌ فعلاً، فالرّزق لك أوّلاً، أمّا عندما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فلا يوجد فقرٌ، لكنّكم تخافون منه، فتأتي: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فكلّ كلمةٍ في القرآن الكريم جاذبةٌ لمعناها، ودقيقةُ المعنى، فيجب علينا أن ننتبه إلى التّدبّر في كتاب الله ﷻ، وكنّا قد تحدّثنا عن الأحرف المقطّعة في أوائل السّور وقلنا: جاءت في القرآن الكريم بدءاً من سورة (البقرة): ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓرٰ﴾، ﴿الٓمٓرٰ﴾، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسٓمٓ﴾، ﴿طسٓ﴾، ﴿يسٓ﴾، ﴿صٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، ﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ﴾، ﴿قٓ﴾، ﴿نٓ﴾، وكلّها موجودةٌ في حروف الهجاء التي يبلغ عددها في لغتنا العربيّة ثمانيةً وعشرين حرفاً، وعدد الحروف التي تأتي مقطّعةً في فواتح السّور أربعةَ عشر حرفاً، أي نصف الحروف الأبجديّة، وهذا ليس أمراً عشوائيّاً، فكيف تمّ اختيارها بشكلٍ دقيقٍ وترتيبٍ مذهلٍ؟ فإذا جمعنا هذه الحروف تُعطينا عبارة: (نصّ حكيم له سرّ قاطع)، هذه الأمور كلّها مطلوبٌ فيها تدبّر كتاب الله ﷻ، وقد تحدّى ﷻ الجنّ والإنس بهذا القرآن الكريم فقال جلّ وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨٨]، فإن اجتمعوا كلّهم، وأيّدوا بعضهم بعضاً لكي يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم لا يمكن

لهم أن يأتوا بمثله، مع أنّ القرآنَ الكريمَ ليس كتابَ فيزياءٍ أو فضاءٍ أو كيمياءٍ وإنّما هو كتاب هدايةٍ للبشريّة، فيه من الأسرار العلميّة والرّوحيّة والعطاءات القرآنيّة ما لا يمكن حصره؛ لأنّ صفةَ التّامِّ التّمامُ، وصفةَ الكاملِ الكمالُ، وهو صفةٌ من صفات الله ﷻ، يقول عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»[1]، وشتّان ما بين كلام البشر وما بين كلام ربّ البشر، لذلك علينا أن نتدبّر القرآن الكريم، وأن نعيه ونتفكّر فيه، ويجب أن يكون لنا وردٌ يوميٌّ منه؛ أي حصّةٌ من عطاء القرآن الكريم من قراءةٍ وتدبّرٍ وتفكّرٍ فيه.

فالأمر مهمٌّ جدّاً فيما يتعلّق بطبيعة التّعامل مع كتاب الله ﷻ، ومع هذه النّصوص القرآنيّة التي هي أقدس مقدّسات المسلمين، وهي كلام ربّ العالمين الّذي نزل على قلب نبيّنا محمّد ﷺ، والتي يدين بها أكثر من ملياريّ إنسانٍ على وجه الأرض.

الآية (٨٣): ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

هناك فئةٌ من المنافقين الذين إن جاءهم أمرٌ يتعلّق بالأمن والانتصار أو جاءهم الخوف من شيءٍ أخبروا عنه وأشاعوه.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾: الاستنباط: من نبط، ومعناها في اللّغة العربيّة ظهور الشّيء بعد خفائه، وما يتعلّق بكتاب الله ﷻ وردّ الأمور إلى رسول الله ﷺ، وجاء في آيةٍ سابقةٍ قوله ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾، هنا نواجه قضيّةً مهمّةً وخطرةً جدّاً في العالم العربيّ والإسلاميّ، وهي تصدّي الجهلة لتفسير آيات القرآن الكريم وتحريفه، والقرآن الكريم لا يُحرّف بكلامه ولا بسطوره؛ لأنّ الله ﷻ قد ضمن حفظه عندما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر:

(١) كنز العمّال: ج١، ص ٥٢٧، الحديث رقم (٢٣٦٠).

الآية ٩]، القرآن الكريم محفوظٌ من التّحريف، لكنَّ هناك من يحرّف معانيه في فهمٍ سقيمٍ أو بمحاولاتٍ مريضةٍ منذ عصر الخوارج الأوائل الذين أخذوا وأسقطوا ووضعوا أحكاماً ما أرادها الله ﷻ وفسّروا القرآن الكريم على حسب أهوائهم، منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، ونحن نرى محاولاتٍ متكرّرةً متعدّدةً لتحريف معاني القرآن الكريم وتسطيح العقل البشريّ في فهم آياتهِ والتّعامل معه، ولو ردّوه إلى الرّسول أي إلى فعله ﷺ، وإلى ما أمر به وما نهى عنه، وإلى فعل صحابته لكان الأمر مختلفاً تماماً عن الانحرافات التي تمّت عبر الزّمان منذ الخوارج وحتّى الآن، كالحركات التّكفيريّة والإرهابيّة التي جاءت بتفسيرٍ مبتورٍ ومريضٍ للقرآن الكريم، وصولاً إلى من يحاول أن يطوّر الفكر الدّينيّ ويُخرج القرآن الكريم عن سياقه، وقد حدّد القرآن الكريم هذه الأمور بشكلٍ واضحٍ، وهي طاعة الرّسول ﷺ والاستنباط من أولي الأمر، وإخراج المعاني الصّحيحة، وهنا تقع البلاد العربيّة والإسلاميّة بين طرفي نقيضٍ:

الطّرف الأوّل: هو الطّرف التّكفيريّ المتطرّف الذي حرّف المعاني ولم يستطع أبداً أن يلامس حقيقةَ الآياتِ القرآنيّةِ؛ لأنّ الفكر المريض لا يستنتج إلّا من خلال المرض، ولو كانوا علماءَ أو دعاةً حقيقيّين لما ساروا في هذا النّهج الإجراميّ التّكفيريّ الإرهابيّ القاتل الّذي أخرج كلّ مقاصد الشّريعة الإسلاميّة عن مضمونها الحقيقيّ.

والطّرف الثّاني: من يدّعي تجديد الخطاب الدّينيّ، فهو إن لم يكن قد أخذ بحقيقة التّجديد الّذي أمر به الإسلام، وخرج عن السّياق فهو يعمل أيضاً على زيادة أعداد المتطرّفين في العالم، ولا يستطيع أبداً أن يغيّر من حقيقة الأمور الدّينيّة وحقيقة الأمور الإسلاميّة التي جاءت في كتاب الله ﷻ، فموضوع التّدبّر والاستنباط هو موضوعٌ محكومٌ بقواعد، هذه القواعد تسمّى (علم أصول الفقه)، وهذه القواعد هي التي يستطيع بها الإنسان أن يستخرج الأحكام من خلال الآياتِ القرآنيّة، فلا تستطيع أن تأتي إلى كتاب الله ﷻ وتضرب بعرض الحائط سنّة رسول الله ﷺ،

وشرحه وتطبيقه وبفعل الصّحابة رضوان الله عليهم، وعلم أصول الفقه اجتهد به كبار الفقهاء والعلماء عبر التّاريخ، ووضعوا القواعد والأصول التي تستطيع أن تُخرج الحكم الشرعيّ الصّحيح حتّى لا تقع ما بين التّطرّف والتّشدّد والخروج عن تعاليم الإسلام كلّها، أو أن تميّع كلّ حقائق الإسلام فتزيد من حالة التّطرّف، نحن أمام قضيّةٍ مهمّةٍ فيما يتعلّق بتدبّر القرآن الكريم، فهو لا يتمّ إلّا ضمن القواعد والأصول التي حدّدها رسول الله ﷺ والتي أمر بها القرآن الكريم، وهذه الآيات دليلٌ قاطعٌ على ذلك: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، فهناك بعض الذين يدّعون التّجديد، وهم لا علاقة لهم بالدّين ولا بالتّجديد ولا بأيّ أمرٍ من هذه الأمور. يقولون: نأخذ من معاني القرآن الكريم التي وردت مباشرةً، كيف ذلك؟ سنضرب هذه الأمثلة لتبيّن وتفضح كلّ هذه الدّعوات الكاذبة فيما تدّعي، ولن تصل أبداً إلى حقيقة تطوير الخطاب الدّينيّ ولا الفكر الدّينيّ ولا كلّ هذه الأمور، يقولون: إن أخذنا من القرآن الكريم نأخذ بالمعنى اللّغويّ، مثلاً: الله ﷻ يقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: من الآية ٦]، معنى فاطّهروا في اللّغة العربيّة من طهر؛ أي النّظافة، فهل معنى فاطّهروا في هذه الآية هو المعنى اللّغويّ ذاته، الّذي هو النّظافة؟ أو أنّ المقصود بالطّهارة المعنى الاصطلاحيَّ، الّذي هو الغسل من الجنابة المعروف فقهيّاً؟ فعلم أصول الفقه وضع المعنى اللّغوي مع المعنى الاصطلاحيّ وربط بينهما، فمن لا يعرف هذه القواعد ليس بإمكانه أن يستخرج أيّ تفسيرٍ أو أيّ حكمٍ من أحكام القرآن الكريم، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٣]، فإن استخرجت من كتاب الله ﷻ الأحكام، وضربت بعرض الحائط سنّة رسول الله ﷺ كلّها، وعلم أصول الفقه، وكلّ قواعد التّفسير، والفقهاء الذين سبقوا بهذه الأمور، فقرأت: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ومعنى الصّلاة في اللّغة الدّعاء والصّلة مع الله ﷻ، فهل الأمر في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بالمعنى اللّغويّ للصّلاة؟ أو أنّها بالمعنى الاصطلاحيّ، لها أركانها وشروطها وفرائضها وسننها؟! وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: من الآية ٤٣]، معنى الزّكاة باللّغة العربيّة النّماء، فهذا الكلام عارٍ عن الصّحّة، يقول

النّبيّ ﷺ: «خذوا عنّي مناسككم»[1] فلا تستطيع أن تتعامل مع كتاب الله ﷻ من خلف رسول الله ﷺ، فتقول: أقبل بهذا الحديث ولا أقبل بهذا، أقبل بهذه الرّواية ولا أقبل بهذه الرّواية، يجب علينا أن نتعامل باحترامٍ مع النّصوص القرآنيّة، وذلك من خلال تدبّر القرآن الكريم وفهم آياته وفق القواعد التي أمر الله ﷻ بها وبيّنها رسول الله ﷺ، فكثيرٌ من الآيات تتعلّق بحدثٍ معيّنٍ بيّن رسول الله ﷺ كيفيّة تطبيق هذا الحدث، فمثلاً: الآيات المتعلّقة بالمشركين وبالقتال الّذي حدث معهم في كثيرٍ من الأوقات، مَن الّذي حدّد طبيعة هذا القتال، وطبيعة العلاقة بين المسلم والمشرك؟ الّذي حدّده هو فعل الرّسول ﷺ، الّذي لم يقتل مشركاً لإشراكه، وإنّما قاتل المعتدين من المشركين؛ لأنّه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]، هذا واضحٌ من خلال فعل الرّسول ﷺ، لذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، هنا أولي الأمر الّذين يعلمون.

وبموضوع التّجديد في الفكر الدّينيّ، هل أستطيع أن أقفز فوق كلّ العلوم والأصول والقواعد وسنّة النّبيّ ﷺ، وأقول: بأنّني أريد أن أجدّد؟! فبهذه الطّريقة من التّجديد سأسقط الميراث والأحكام، ولن يكون هناك دينٌ، فتطوير الخطاب الدّينيّ أمر مهمٌّ ومطلوبٌ، ومحاربة التّطرّف أمرٌ ضروريٌّ، ولكنّ محاربة التّطرّف لا تكون بالمزايدة في هذه القضيّة، فهي لا تحتمل المزايدات، ولا يمكن أن تحقّق أيّة نتائج من خلال المزايدة في تعاليم الدّين، وأحكام الشّرع الإسلاميّ، وادّعاء العلم والمعرفة، والفصل بين المقاصد والشّعائر، وفعل ما يحلو لي، فعلينا أن نتعامل باحترامٍ مع النّصوص القرآنيّة، هذا هو كلام الله ﷻ، فعندما يقول النّبيّ ﷺ حديثاً ما، أو يُطلق قولاً ما، فالجاهل والمتطرّف والتّكفيريّ والقاتل والمجرم من خلال جهله ومرضه وجرائمه فإنّه يستخدم الآيات القرآنيّة بغير الطّريق الّذي أنزله الله ﷻ، وحديث النّبيّ ﷺ بغير ما جاء، وقد ضربنا مثلاً عدّة مرّاتٍ بحديث النّبيّ ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً

(١) سنن البيهقي الكبرى: كتاب الحجّ، باب الإيضاع في وادي محسر، الحديث رقم (٩٣٠٧).

رسول الله، ويُقيموا الصّلاة، ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله»[1]، ظاهر الحديث يتناقض مع مقاصد الشّريعة، ومع صريح نصّ القرآن الكريم، ومع فعل الرّسول ﷺ نفسه، فكيف يقول ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله»، والله ﷻ يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: من الآية ٢٥٦]؟ كيف يقول: «أمرتُ أن أقاتل النّاس» وعندما دخل مكّة فاتحاً وصعد على ظهر الكعبة قال: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»[2]، ولم يقاتلهم وهم مشركون؟ معنى هذا أنّني لم أستطع أن أفهم حديث النّبيّ ﷺ ولا سياقه ولا مناسبته ولا الأجواء التي قيل بها، عندما قال النّبيّ ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل النّاس» لم يقصد بالنّاس البشر، بل كان يقصد الفئة التي اعتدت على رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية بعد أن نقضت الصّلح، والدّليل على ذلك أنّ القرآن الكريم يستخدم كلمة النّاس وهو يقصد فئةً معيّنةً وليس كلّ النّاس، كقوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النّصر: الآية ١-٢]، هل دخل النّاس جميعاً في دين الله ﷻ أفواجاً؟ المقصود بالنّاس فئةٌ معيّنةٌ، وكما قال النّبيّ ﷺ: «أمرتُ أن أقاتل النّاس»، يقصد فئةً معيّنةً أشار إليها النّبيّ ﷺ، وهي الفئة الباغية التي اعتدت ونقضت صلح الحديبية، الأمر الشّرعيّ ليس بالمزايدات، وتقول: هذا الحديث لا أقبله؛ لأنّه يقول كذا، أنت لم تقبله لأنّك لم تفهمه، هناك فارقٌ بين أنّك لا تفهم الحديث وبين أنّك غير مطّلعٍ على علوم مصطلح الحديث وأصول الحديث وصحاحه، ويجب التّعامل باحترامٍ مع النّصوص الشّرعيّة، فالمشكلة في الفهم وليست في النّصّ، وفي تطبيق النّص على الواقع وليس في صحّة النّصّ أو قبوله أو رفضه، وبطريقة استنباط حقيقة هذه النّصوص، وثلاثة أرباع مساحة القرآن الكريم تتعلّق بالقصص القرآنيّ، وهو سننٌ كونيّةٌ أي قوانينُ وضعها الله ﷻ لتكون

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، الحديث رقم (٢٥).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام، ج٤، ص ٣٢.

عبرةً للبشر، فأين نحن من تدبّر القرآن الكريم؟! عندما يقول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٢]، لماذا أنزل الله ﷻ من السّماء ماء فأخرج به من الثّمرات؟ ألم يكن قادراً على أن يقول: ﴿كُن﴾ فيخرج النّبات من دون ماء؟ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾ [الرّوم: الآية ٤٨]، كلّ هذه الأسباب حتّى يُنزل الماء؟ ألا يستطيع أن يقول: ﴿كُن﴾ فينزل الماء من السّماء بلا أسبابٍ؟ تتبخّر مياه البحر، ثمّ تصعد للسّماء، ثمّ تأتي طبقة هواءٍ باردٍ، وبعدها يتكثّف، كلّ ذلك لينزل المطر؟! ومثالٌ آخر نقرأ في سورة (يوسف) يقول الله ﷻ عن سيّدنا يوسف عليه السلام عندما راودته امرأت العزيز عن نفسه: ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: الآية ٣٠-٣٢]، أتت بكلّ هؤلاء النّساء وحاولن عندها مراودة يوسف عن نفسه، وجرحن أيديهنّ عندما رأينه، فدعا يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: من الآية ٣٣]، فاستجاب له الله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: الآية ٣٤]، ويقول الله ﷻ بعدها: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: الآية ٣٥]، هل استجاب الله ﷻ الدّعاء أو أنّهم رأوا الآيات وسجنوه؟ ألا تريد أن تتدبّر القرآن الكريم؟ الله ﷻ يقول: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ عندما دعا: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، بينما بعدها بآيةٍ واحدةٍ يقول: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾، بعد أن رأوا الأدلّة والإثباتات سيضعونه في السّجن، إنّ الله ﷻ يرتّب الأسباب على الأقدار، هذه سنّةٌ من السّنن الكونيّة، ألم نفهم هذا عن الله ﷻ؟ ألم تفهم الأمّة العربيّة الإسلاميّة بأنّنا

تركنا الأسباب وتركنا العلم ونريد أن نقفز إلى الأقدار مباشرةً، وتقول: قدري كذا! من قال لك هذا؟ تترتّب الأسباب على أقدار الله ﷻ، هو يستطيع بقدره أن يقول للشّيء: كن فيكون، هو استجاب ليوسف عليه السلام، لكنّه جعلهم يأتون بالأدلّة ويضعونه في السّجن بالأسباب، هكذا يكون التّدبّر القرآنيّ، لا يكون تدبّر القرآن الكريم بالمزايدة، وبأن أستنبط وأُخرج الحكم الّذي أراه، وأمّا الّذي لا أراه فأضرب به عرض الحائط، وأنا أريد أن أُرضي فلاناً أو فئةً أو مجموعةً أو دولةً، القرآن الكريم لا يُتعامل معه إلّا من خلال قواعده وأصوله التي بيّنها رسول الله ﷺ وأخذ العلماء منها قواعد أصول الفقه حتّى تستطيع أن تستنبط هذه الأحكام، وكذلك الكثير من الآيات الكونيّة التي وردت في كتاب الله ﷻ والآيات العلميّة وغير ذلك، نحن مدعوون لتدبّر آيات القرآن الكريم، وإلى الفهم عن الله ﷻ، واستنباط الأحكام الشّرعيّة بشكلٍ صحيح وسليم، وبشكلٍ ينفي تحريف وتطرّف المتطرّفين والإرهابيّين والقتلة والمجرمين الّذين أرادوا أن يحرّفوا القرآن بتفسيرهم، لكن ليس هذا معناه أنّنا نأتي إلى القرآن الكريم مباشرةً، وإلى الأحكام الشرعيّة ونقول بها برأينا، لقول النّبيّ ﷺ: «ومن قال في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النّار»[1]؛ لأنّ هذا الأمر يعود إلى رسول الله ﷺ وإلى فعله وإلى القواعد التي تحكم الاستنباط والأحكام من النّصوص الشّرعيّة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: نحن نعيش بفضل الله ﷻ وبرحمته، ولولا فضله ﷻ ورحمته التي تتولّانا، ولطفه الخفيّ ﷻ لكان الإنسان يسير على حبال الشّيطان الّذي يُغوي الإنسان ويوسوس له بما يناسب شهواته، ويحرّك فيه نوازع الشّرّ الموجودة داخل نفسه البشريّة، لذلك كانت الآيات: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب تفسير القرآن، باب الذي يُفسّر القرآن برأيه، الحديث رقم (٢٩٥١).

الآية (٨٤): ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾

يخاطب الله ﷻ الرّسول ﷺ: عليك أن تحرّض المؤمنين وتشجّعهم على قتال مشركي مكّة، وذلك عندما أراد رسول الله ﷺ أن يسير باتّجاه فتحها، ولكنّ الله ﷻ مع ذلك يقول: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ عليك فقط أن تحرّضهم وتشجّعهم على الخروج لقتال المشركين في مكّة من أجل فتحها، ولكن ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ فعليك نفسك يا محمّد؛ لأنّك لن تُنصر بهم، أنت منصورٌ من الله ﷻ، وهذه الأمّة تُنصر بمحمّد ﷺ، فلذلك حتّى يطمئنّ قلب الرّسول ﷺ قال له: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ فالله ﷻ أدخل النّبيّ ﷺ بفضله وبرحمته إلى مكّة فاتحاً من دون قتال، كما نعرف القصّة، وترك المشركين على شركهم قائلاً لهم: «يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعل فيكم؟»، قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، ثمّ قال: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»[1].

الآية (٨٥): ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ٨٥﴾

يُقال بالعرف: فلانٌ أخذ الأرض بالشّفعة؛ أي أنّه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتنضمّ لأرضه.

أمّا الشّفاعة: فهي أن يتعدّى أثر مواهب الخير التي لديك إلى الغير، فتنضمّ إلى غيرك.

هنا يقول المولى ﷻ: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ هذه دعوة الخير للغير.

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾: هناك فارقٌ ما بين التّعبير بالكِفْل والتّعبير بالنّصيب، سنوّضح ذلك باللّغة العربيّة، وسيتّضح المعنى الّذي أراده الله ﷻ، دائماً دعوة الإسلام هي إشاعة الخير والاصطفاء الخيريّ في المجتمع، على

(١) عيون الأثر: ج٢، ص ١٩٩.

عكس ما يعتقد بعض النّاس أو يروّجون، وإن كانت هناك بعض الممارسات عبر التّاريخ لا تعبّر عن حقيقة الدّين ولا عن حقيقة مفهوم الفكر الإسلاميّ المستمدّ من المصدر الأساسيّ للإسلام وهو كتاب الله ﷻ وسنّة سيّدنا رسول الله ﷺ الصّحيحة، والأسباب في ذلك هي بُعد النّاس عن تدبّر القرآن الكريم وتتبّع أوامر النّبيّ ﷺ وسيرته وتطبيقاته، وهنا عندما نقول: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ ويقول النّبيّ ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبّ عباد الله إلى الله أنفعهم لعياله»[1]، عندما نتوقّف عند هذا الحديث الشّريف، هل هناك حجّةٌ لأحدٍ أن يتحدّث عن فكرٍ متعصّبٍ أو فئويّ أو فكرٍ يطرح التّشدّد والإرهاب والتّكفير والقتل ومصادرة الآراء لصالح الفكر الدّينيّ؟! لا شكَّ أنَّ عدم الفهم إضافةً إلى ممارساتٍ معيّنةٍ عبر الزّمن هو الّذي أدّى إلى ذلك، وليس حقيقة ما في كتاب الله ﷻ وسنّة رسوله ﷺ، الخلق كلّهم عيال الله، كلّ النّاس هم عياله ﷻ، وأحبّهم إليه ﷻ مَن يُجري النّفع والخير للنّاس على يديه، «وأحبّ عباد الله إلى الله أنفعهم لعياله»، هذا الحديث يؤكّد معنى هذه الآية الكريمة، من يشفع شفاعةً حسنةً ويتعدّ بخيره إلى غيره يكن له نصيبٌ، والنّصيب هو الخير الكثير، مثلاً يقال: هذا المال لك نصيبٌ منه، أي جزءٌ كبيرٌ، أمّا من يشفع شفاعةً سيّئةً؛ أي يقابل السّيّئة أو عمل الشّرّ مع النّاس، فله كِفْلٌ؛ لأنّ الحسنةَ بعشر أمثالها، أمّا السّيّئة فلا يُجزى إلّا مثلها، هنا يتبيّن الفارق بين الكفل وهو الجزء اليسير وبين النّصيب وهو الجزء الكبير.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾: المعنى اللّغويّ منح القوتِ، مقيتاً أي مانح القوت، وقال العلماء أيضاً: معناها الحسيب، وقالوا أيضاً: الحفيظ، والرّقيب، فهو يرقب ويراقب ويُحاسب ويحفظ، فتتعدّى هذه الكلمة إلى كلّ هذه المعاني، ﴿ وَكَانَ ﴾ كان فعلٌ ماضٍ ناقص، أكان الله ﷻ بالماضي؟ والآن ماذا؟ والمستقبل؟ هذا الملحظ للزّمن هو للبشر فقط، لا ينطبق على ربّ البشر؛ لأنّ البشرَ هم عالم أغيارٍ، حسب الزّمن تتبدّل أحوالهم، اليوم صغيرٌ وغداً كبيرٌ، اليوم قويٌّ وغداً ضعيفٌ،

(١) شعب الإيمان: باب في طاعة أولي الأمر، الحديث رقم (٧٤٤٥).

اليوم صحيحٌ وغداً مريضٌ، اليوم حيٌّ وغداً ميّتٌ، هذه التّبدّلات لا تنطبق على المولى ﷻ لأنّه قويٌّ في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو حيٌّ في الماضي والحاضر والمستقبل، وعظيمٌ في الماضي والحاضر والمستقبل، وغفورٌ في الماضي والحاضر والمستقبل، فعندما يستخدم المولى: ﴿وَكَانَ﴾ فلا يذهب ذهنك إلى الماضي، هذا لعالم الأغيار، للبشر فقط، أمّا لربّ البشر فهو خالق الزّمان والمكان. فهو كان وما زال وسيبقى؛ لأنّه ﷻ لا يعتريه التّبديل ولا التّغيير، وإنّما هو الكمال.

الآية (٨٦): ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾: كان العرب قبل الإسلام تحيّتهم هي: حيّاك الله، فاستبدل الإسلام هذه التّحيّة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ﴾ [الأحزاب: من الآية ٤٤]، أصبحت تحيّة الإسلام: (السّلام عليكم) هنا الكلمة لها معنى، عندما يطلب منك المولى ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ﴾ فالمطلوب إشاعة السّلام بين النّاس، وانتقال دائرة هذه الكلمة من القول إلى الفعل، السّلام هو الأمن والاطمئنان، فعندما تلقي السّلام على غيرك فإنّك تلقي الأمن والاطمئنان، وتضمن أن ينالَ الغيرَ الخير، وألّا ينال منك الشّرّ، تحجز عنه شرّك وتعطيه من خيرك، فكلّ قاتلٍ وكلّ زانٍ وكلّ سارقٍ وكلّ منتهكٍ للأعراض وكلّ مجرمٍ وكلّ مغتابٍ لم يلقِ السّلام؛ لأنّه عندما يكذب أو يسرق أو.. فإنّه ينقل دائرة الشّرّ إلى الغير وليس دائرة الخير، فأين هو السّلام؟ وأين هي إشاعته؟

فالمعنى المجمل والعامّ للإسلام هو السّلام، وكلمة إسلام مشتقّةٌ من السّلام.

جاء رجلٌ فسلّم على رسول الله ﷺ فقال: السّلام عليكم يا رسول الله، قال: «وعليك السّلام ورحمة الله»، ثمّ جاء آخر فقال: السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، قال: «وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته»، ثمّ جاء آخر فقال: السّلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك»، فقال الرّجل: يا رسول الله، أتاك فلان وفلان فحييتهما بأفضل ممّا حييتني، فقال رسول الله ﷺ:

«إنّك لن -أو لم- تدع شيئاً، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا﴾، فرددت عليك التّحية»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾: إنّ الله ﷻ يُحاسب على الكلمة، وعلى الكبيرة والصّغيرة، وكان حسيباً لرقابته للنّاس.

الآية (٨٧): ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿ٱللَّهُ﴾: وهو الاسم الجامع لكلّ صفات الله ﷻ، كان من الممكن أن يقول المولى ﷻ: الرّحمن لا إله إلّا هو، أو: الكريم لا إله إلّا هو، أو: الغفور لا إله إلّا هو، لكن عندما يقول: ﴿ٱللَّهُ﴾ فهي تجمع صفات الجلال والجمال، وعندما يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ فهذا إثباتٌ لتوحيد الله ﷻ، ولقدرته جلّ وعلا، ولوجوده ﷻ، قد يقول قائل: كيف ذلك؟ الجواب: أنّه يوجد فيها إثباتٌ ونفيٌ، هنا النّفي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ ليست (إلّا) هنا أداة استثناءٍ، ولكن معناها الله لا إله غيره، ونقول: إنّها إثبات وحدانيّة الله ﷻ وأنّه لا إله إلّا الله؛ لأنّ الله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ وهو خالق السّماوات والأرض والإنسان، وهو حيٌّ لا يموت، فعندما يقول: لا إله إلّا هو، فلو كان هناك إلهٌ آخر لقال: أنا موجودٌ، ولقال هذا الإله الآخر: بأنّني أنا خلقت السّماوات والأرض، طالما أنّه لا يوجد من ادّعى بأنّه لا إله غيره، وأنّه هو الّذي خلق السّماوات والأرض، وخلق النّاس، وسيحاسبهم، فإذاً يبقى هذا الإثبات فيها.

إثباتُ غيرِك شِركٌ في عقيدَتنا محو السّوى ديننا يا قرّةَ العَينِ

فكلّ ما سوى الله ﷻ لا يمكن له أن يكون فعّالٌ لما يريد، والله ﷻ هو الفعّال لما يريد، فعندما يقول جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي يحشركم يوم القيامة، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ لا شكّ فيه، أنتم تشكّون في يوم القيامة والله ﷻ يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ أتستطيع أن تُثبتْ بأنّ هناك خالقاً غير الله ﷻ

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب السّين، سهيل بن حنظلة، الحديث رقم (٦١١٤).

وتشكّ بعد ذلك بيوم القيامة، أم أنّك لن تستطيع أن تثبت ذلك أبداً؟ وكنّا ذكرنا سابقاً النّقاش العقليّ والعلميّ للدّليل على وجود الله ﷻ وأنّه هو الخالق؛ والبارئ؛ والمحيي؛ والمميت...، يوجد قضيّتان لا يراهما الإنسان ويجب أن يؤمن بهما غيباً، الحشر ويوم القيامة؛ لأنّك ترى موت غيرك، تراه وكأنّه قد نام وبعدها يصبح تحت التّراب، ولا تعرف عنه شيئاً، ولم يقم أحدٌ من قبره وأخبر النّاس بما جرى، فالله ﷻ يقول: هناك أمران؛ الأمر الأوّل: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والجمع هو حشر وقيام النّاس، ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يوم الحساب، القضيّتان الأساسيّتان هما: بعث من في القبور، وبعد ذلك حسابهم يوم القيامة، وهو مناط الإيمان بالله ﷻ؛ لأنّه هو الّذي أخبر عن ذلك، وقدّم بلا إله إلّا هو؛ أي لا إله إلّا الله، لذلك كان النّبيّ ﷺ يقول: «أفضل ما قلت أنا والنّبيّون من قبلي: لا إله إلّا الله»[1]؛ لأنّ فيها إثبات وجود الله ﷻ، وقد ضربنا مثلاً في السّابق، ولله المثل الأعلى، فإن كنّا في المسجد ووُجِدت محفظةٌ، والنّاس كُثر وأخذتَ المحفظة وقلتَ: هذه لي، تصبح مُلكك حتّى يأتي مَن ينازعنك في ملكيّتها.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: جواب الاستفهام: لا أحد أصدق من الله ﷻ حديثاً.

أي يكفي أنّ الله ﷻ قال: إنّه سيجمعكم، وهناك يوم قيامة، وسيبعث النّاس من قبورهم وسيحاسبهم، لذلك يجب عليك أن تؤمن بهذا القول.

الآية (٨٨): ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

هذه الآية جاءت بعد التّذكير بالحساب ويوم القيامة؛ لأنّ هناك فئةً خطرةً جدّاً في المجتمع هي فئة المنافقين، وهي أخطر الفئات على بنيان المجتمع، وذكرنا سابقاً عندما مرّت آيات النّفاق أنّ القرآن الكريم في معظم الآيات يأتي بحديثٍ عن المنافقين لتنبيه المؤمنين وتنبيه المجتمعات من خطر النّفاق؛ لأنّ المنافق عدوٌّ

(١) روضة المحدّثين: ج١٠، ص ٢٨٦، الحديث رقم (٤٧١١).

باطنٌ وليس عدوّاً ظاهراً للإنسان، وهو المخرّب والمفسد الأساسيّ في المجتمع، والإنسان الظّاهر الّذي يبدي ما يكتم يمكن التّعامل معه، أمّا الّذي يغيّر من جلده ولونه ومواقفه ومبادئه فهذا لا يمكن التّعامل معه؛ لأنّهم كما قال تبارك وتعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النّساء: من الآية ١٤٣].

﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾: قضيّةٌ استفهاميّةٌ، وهنا إنكارٌ وتوبيخٌ، كانت هذه القضيّة تتعلّق بالمجتمع في المدينة المنوّرة، بعضهم قال: نسايرهم، وبعضهم قال غير ذلك، كما نرى في كلّ زمانٍ، فالله ﷻ يقول:

﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾: أي يجب أن تكونوا فئةً واحدةً على رأيٍ واحدٍ تجاه المنافقين، ولا يجوز أبداً أن يقف المجتمع مكتوف الأيدي أمامهم، بل يجب عليه محاربة النّفاق وإظهاره، وألّا يكون فيه فئتان، فئةٌ تُسايرهم وفئةٌ لا تسايرهم، ويجب أن يكون الكلّ بصوتٍ واحدٍ ضدّ النّفاق في المجتمع.

الآية (٨٩): ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾

هنا الآيات الكريمة تتعلّق بساحة القتال، ويجب أن أتوقّف قليلاً في تفسيرها لعدّة أسباب:

• السّبب الأوّل والأساس في ذلك أنّني أمام أمرين: إمّا الجهل، وإمّا القصد للتّآمر على دين الإسلام من خلال أعدائه: الصّهاينة أوّلاً، وبعد ذلك أعداء الأمّة جميعاً، يأخذون الآياتِ مبتورةً من السّياق، ومن أسباب النّزول، ولا يردّون الآياتِ المتشابهة إلى المحكمة، ولا يردّون الأمورَ إلى مقاصد التّشريع الإسلاميّ، وإلى الأسس التي جاءت فيها الشّريعة الإسلاميّة، فيقع الإنسان من خلال إمّا الجهل وإمّا القصد.

• يوجد إشكالاتٌ كثيرةٌ ومنها تفسير هذه الآيات، مثلاً: الإنسان الّذي لا يطّلع على حقيقة التّفسير، وعلى حقيقة الشّريعة الإسلاميّة، ويأخذ الأمور بسطحيّةٍ في فهم كتاب الله ﷻ، فإنّه يقف أمام هذه الآيات ويبتر جزءاً منها ويقول: إنّ هذا الدّين يحضّ على قتل الكافر والمشرك، وهذا الكلام غير صحيح، فمن خلال تفسيرنا السّابق لكتاب الله ﷻ بيّنّا معنى الكفر في القرآن الكريم وفي اللّغة العربيّة، فالكفر هو السّتر، وأثبتنا ذلك من خلال الآيات الكثيرة، ثانياً: عندما تكون أسباب نزول الآيات متعلّقةً بمعركةٍ من المعارك فالسّاحة المقصودة هي ساحة القتال، فأنا أمام مجموعةٍ من الآيات المتتالية التي لا يمكن أن أقصّ جزءاً منها، وأتابع مسير الآيات القرآنيّة بتدرّجها وتسلسلها المنطقيّ والعقليّ؛ لأنّ القرآن الكريم ومناط التّكليف جاء للعقل وللتّفكير، وديننا دين تفكيرٍ، فلا يمكن أن نأخذ معاني هذه الآيات على غير ما أراده الله ﷻ وفي غير سياقها الّذي جاءت فيه، فهذه الآيات تتعلّق بالمعارك التي وقعت بين مشركي مكّة ومن معهم من قبائل الجزيرة العربيّة وتحالفهم مع اليهود، وبين النّبيّ ﷺ وفئة المؤمنين، لذلك فهي تتعلّق بساحةٍ محدّدةٍ هي ساحة القتال، والدّليل سيكون من خلال هذه الآيات التي يستخدمها بعضهم لغرض الإرهاب والتّطرّف والتّكفير وقتل النّاس وارتكاب أبشع الجرائم تحت عناوين إسلاميّةٍ تحريفاً لما أنزله الله ﷻ، صحيحٌ أنّ القرآن الكريم لا يُحرَّف؛ لأنّ الله ﷻ قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: الآية٩]، لكنّ تفسير القرآن الكريم وانحرافات العقل البشريّ وتآمر المتآمرين على دين الله ﷻ قد يؤدّي إلى تحريف المعنى الذي أراده القرآن الكريم من البشر.

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾: يعود ضمير ﴿ وَدُّوا۟ ﴾ على المنافقين؛ لأنّ الآية التي سبقت كانت: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾.

﴿ وَدُّوا۟ ﴾: أي أرادوا، ودادة القلب محبّةٌ من القلب لتكون أنت في صفّهم، ويكون المؤمنون في صفّ المشركين الذين يقاتلون ويعتدون على المؤمنين.

﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾: لا يمكن لك عندما تقاتل عدوّك وأنت في ساحة المعركة أن يكون هناك ولايةٌ بينك وبين هذا العدوّ؛ فهذا الإنسان وحتّى المنافق الّذي يدّعي أنّه معك ويُقاتل في صفّ المشركين لا يمكن أن تتولّاه، حتّى لا يُقال: بأنّه معك، لكنّه اضطرّ اضطراراً فجاء مع قريش ومع المشركين.

﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: حدّد النّبيّ ﷺ الهجرة في سبيل الله ﷻ في الحديث الصّحيح: عن سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنّيّات، وإنّما لامرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1]، الهجرة إلى الله ﷻ؛ أي أن تهجر كلّ ما نهى الله ﷻ عنه، هذا هو المعنى العميق للهجرة، فكما قال النّبيّ ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّةٌ»[2]، لا يمكن أن تتولّاهم وتكون بينكم وبينهم ولايةٌ إلّا بعد أن يهاجروا إلى ما أمر الله جلّ وعلا، يهاجروا إليه ﷻ ويبتعدوا عن ما نهى عنه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: فخذوهم واقتلوهم في ساحة القتال، وهنا اعتداءٌ منهم، هل فئة النّبيّ ﷺ (فئة المؤمنين) هي التي بدأت بالقتال؟ هم يردّون على اعتداءٍ، فمن الطّبيعيّ أن يردّوا عليه بالقتال، وليس خذوهم واقتلوهم كما يودّ بعضهم أن يحرّف في تفسير كتاب الله ﷻ، فيقولون: إنّ أيّ إنسانٍ مشركٍ أو كافرٍ بما تؤمن به تأخذه وتقتله حيثما تجده، هنا التّحريف في فهم كتاب الله ﷻ، وهنا ساحة الجهل وساحة القصد، ففي ساحة الجهل قد لا يفهم الإنسان معنى هذه الآيات ويبترها من سياقها ويقول: خذوهم واقتلوهم.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الطّلاق، باب فيما عني به الطّلاق والنّيّات، الحديث رقم (٢٢٠١).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الجهاد والسّير، باب وجوب النّفير وما يجب من الجهاد والنّيّة، الحديث رقم (٢٦٧٠).

الآيـة (٩٠): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾

لا تستطيعون من حيث أنتم مؤمنون إلّا أن تقاتلوا المعتدين الذين اعتدوا عليكم وقاتلوكم، إلّا إذا لجؤوا إلى قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ، فانظر لاحترام العهود والمواثيق، فالإرهابيّ لا عهد له ولا ميثاق، أمّا في الدّين الإسلاميّ فحتّى المعتدي إذا لجأ إلى قومٍ بينك وبينهم ميثاقٌ فإنك تقف عن القتال.

﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾: أي: لا نقاتلكم ولا نقاتل قومنا الذين أتينا معهم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾: هذا الدّليل معقولٌ.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾: لم يقوموا بالاعتداء عليكم ولا بقتالكم، ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾: سلامٌ لا قتالٌ.

﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾: لا يقبل الله ﷻ أن يكون لكم عليهم سبيلٌ، لا لقتلهم ولا لأذيّتهم ولا لأيّ شيءٍ من الاعتداء عليهم، هذه قوانين حربٍ وساحة حربٍ، ولكنّها قوانينٌ عادلةٌ، وسلميّةٌ أيضاً، فإنّها أوّلاً تستثني من يلجؤون إلى من بينكم وبينهم عهودٌ أو مواثيقُ، وتستثني أيضاً من يقول كلمة السّلام ويلقي السّلم، ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾.

الآيـة (٩١): ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾

﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾: فشلوا فيها، هؤلاء قومٌ من غطفان كانوا على مشارف المدينة المنوّرة، يريدون أن يكونوا مع قومهم ويقولون لكم: إنّهم معكم في الوقت ذاته، ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ

﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ في ساحة القتال والحرب.

﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾: أولئك الذين يأتون ويقاتلون، وكلّما ردّوا إلى الفتنة فشلوا، ولم يعتزلوكم ولم يلقوا إليكم السّلام، ولم يكفّوا أيديهم؛ أي هم يعتدون عليكم ويقاتلونكم عندئذٍ: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ عندما يقول القرآن الكريم: ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ فالسّلطان هو القوّة، إمّا أن تكون قوّة القتال وإمّا أن تكون قوّة الإقناع، ولم يسمح القرآن الكريم بالقتال إلّا في حالة الاعتداء على المؤمنين، أمّا السّلطان فهو سلطان الحجّة والبرهان والبلاغ، هذا هو السّلطان وهذه هي قوّة الدّين، هي بإقناع النّاس بهذا الدّين وبرسالة الخير للغير من الدّين، ورسالة المحبّة والسّلام والأمن والاطمئنان لكلّ إنسان.

يتابع المولى ﷻ مبيّناً خطورة قتل النّفس البشريّة وهذا أمرٌ مهمٌّ، وهذه الآيات تبيّن المعنى بشكلٍ واضحٍ:

الآية (٩٢): ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾: لا يمكن أن يكون القتل عن سابق إصرارٍ وقصدٍ على الإطلاق، فعمليّة القتل تكون خطأً، مثلاً: أن يرميَ إنسانٌ حجراً على شجرةٍ فتقع على إنسانٍ آخر فيُقتل، هذا يسمّى القتل الخطأ، أو يدعس أحدهم بالسّيّارة فيُقتل، هذا القتل غير المتعمّد، أو قتل الخطأ.

سنردّ عليّ الآن بأنّ الآية تقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾

هل يمكن قتل الكافر قصداً؟ هل هذا هو المعنى؟ لا، لكن عندما يتحدّث القرآن الكريم عن فئة المؤمنين، وهناك قتالٌ مع فئة الكافرين ومشركي مكّة وشبه الجزيرة العربيّة وغيرها، فإنّ القرآن الكريم يعطي مساحةً كافيةً للأحكام الشّرعيّة، أوّلاً يقول القرآن الكريم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، من قتل نفساً لم يقل: مؤمناً، فالحديث هنا من أجل الدّيَة، لا يجوز قتل حتّى الهرّة فكيف بالنّفس البشريّة؟ هنا آيةٌ محكمةٌ، يقول النّبيّ ﷺ: «فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربّكم، ألا هل بلّغت»[1]، حرمة الدّم والقتل قطعيّةٌ في كتاب الله ﷻ بالنّصّ القطعيّ الّذي لا اجتهاد فيه ولا تأويل، هنا الحكم من أجل الدّيَة ومن أجل القتل الخطأ.

فئة المؤمنين تتعلّق بهم أحكامٌ شرعيّةٌ، إذا حدث قتلٌ بالخطأ ما هو العمل؟

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾: لأنّ في تحرير الرّقبة مصرفاً لعتق الرّقاب وتحرير العبيد؛ لأنّ العبوديّة كانت موجودةً في ذلك الزّمن، ولا بدّ من إيجاد مصارف من أجل الإنهاء والقضاء عليها تدريجياً، أوّلاً تحرير رقبةٍ مؤمنةٍ، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ أي بدلٌ نقديٌّ ماديٌّ، والدّيَة لها تفاصيلُ بالأحكامِ الفقهيّةِ لسنا بصدد تفصيلِها على آراء العلماء والفقهاء كافّةً.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾: بعض النّاس لا يريدون الدّيَة، اعتبرها الله ﷻ وكأنّها صدقةٌ، لا تأخذ الدّيّة عن الميّت الذي قُتل بشكلٍ خاطئ.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾: فإن كان مؤمناً مع قومٍ هم الأعداء الذين يقاتلوكم، وقُتل بالخطأ، فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ من دون دِيَة.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الحجّ، باب الخطبة أيّام مِنى، الحديث رقم (١٦٥٤).

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ﴾: في حال وجود اتّفاقٍ، سواء أكانوا مسلمين أم لا، المهمّ يوجد اتّفاقيّات تعاون وعهود ومواثيق، ولا يقاتلونكم.

﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: تكفيرٌ عن الخطأ.

الآية (٩٣): ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾

القتل المتعمّد جزاؤه جهنم، وهذا تشديدٌ وتغليظٌ هائلٌ في العقوبة الأخرويّة، والجزاء لمن يقتل بشكلٍ متعمّدٍ، لماذا قال هنا: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾؟ إن كان هناك قتالٌ فالأمر يختلف ما بين ساحة القتال وما بين السّاحة العاديّة، لكن لنرَ تتابع الآيات حتّى لا نقطع الآيات من سياقها ونأخذ آيةً ونقول بأنّ القرآن الكريم يقول كذا، أو يُحرّض على القتل، والقرآن الكريم يقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، لم يعدّ قتلك شخصاً نفساً واحدةً، وإنّما كأنّك قتلت البشريّة جمعاء، وهذا غير موجودٍ في أيّ تشريعٍ آخر.

الآية (٩٤): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: إن كان في تجارةٍ أو عملٍ أو جهادٍ أو قتالٍ.

﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: وفي قراءة أخرى (فتثبّتوا).

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾: لا يجوز لك أن تقول عن أيّ إنسانٍ بأنّه ليس مؤمناً إذا ألقى إليكم السّلام، هل هناك تشريعٌ في الأمم

المتّحدة، أو حقوق الإنسان، أو في كلّ الدّول التي تدّعي محبّة السّلام، ما يحضّ على السّلام أكثر وأعظم من هذه الآية؟!

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: من أجل مغانم.

وهذه الآية من أعظم الآيات التي نتشبّث بها لنثبت لكلّ العالم بأنّنا ندعو إلى السّلام، وأنّ الإسلام لا يمكن أن يكون إلّا مصدر ومنبع خيرٍ للبشريّة، ولكلّ الموجودات في الحياة من إنسانٍ ونباتٍ وحيوانٍ وجمادٍ.

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾: وردت كلمة (تبيّنوا) في هذه الآية مرّتين حتّى يمتنع من التّسرّع في الحكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: وكثرة العلم تؤدّي إلى الخبرة، والله ﷻ عليمٌ وخبيرٌ يعلم القصد والنّيّة، قال رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرىء ما نوى»[1].

الآية (٩٥): ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

نتابع الآياتِ التي تتعلّق بساحات المعارك ما بين فئة المؤمنين؛ الرّسول ﷺ والصّحابة، وبين مشركي مكّة، وما جرى بينهم من جولاتٍ في غزوة بدرٍ أو أُحُدٍ أو الخندق وبقيّة المعارك، وما يتعلّق بهجرة النّبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة، وبعدها فتح مكّة.

وكلمة الجهاد أثير حولها الكثير من الشّكوك والشّبهات لدى أعداء الإسلام، الّذين أرادوا أن يزرعوا كلّ فتنةٍ وقتلٍ وإرهابٍ في ثنايا وتعاليم الدّين الإسلاميّ، هذا الكلام غير صحيحٍ، فالجهاد هو: بذل الجهد.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، الحديث رقم (١).

يقول ﷻ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: من الآية ٥٢]؛ أي بكلام الله ﷻ، بالقرآن الكريم، ولا يُقصَد دائماً بالجهاد الجهاد القتاليّ، فالجهاد القتاليّ هو دفاعٌ عن الوطن والأرض والعرض، وليس اعتداءً على الآخرين أو إرغاماً لهم على عقيدة الإسلام.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾: الإسلام ليس كلمةً تُقال، ولا شعاراً يُطلق، وليس عظةً أو عبرةً تقال، وإنّما هو عملٌ وجهدٌ وجهادٌ وبذلٌ، وليس الجهاد القتال فقط إنّما هو بذل أقصى الجهد في سبيل الخير وزرع الرّحمة بين النّاس.

﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾: الضّرر؛ الّذي يفسد الشّيء، كالمرض مثلاً يفسد الصّحّة. لا يستوي القاعد مع المجاهد في سبيل الله ﷻ إن كان بالمال أو النّفس.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ : أكّد أنّ هذه الدّرجة هي أجرٌ عظيمٌ لمن يبذل نفسه في سبيل وطنه، للشّهداء الّذين ضحّوا ودافعوا عن الوطن وعن كرامته ووحدة ترابه فهذه الأمور لا يمكن أن تقاس بالدّرجة ذاتها، وعندما تعلو نقول: درجاتٍ وعندما تنخفض نقول: دركاتٍ، وفي اللّغة العربيّة والتّعبير القرآنيّ تحديداً، يجب علينا أن نبيّن أمراً مهمّاً وهو أنّ النّاس أخذت عُرفاً بأنّ المتكلّم عن الإسلام والقرآن وسنّة الرّسول ﷺ يتكلّم دائماً في مجال العبرة والعظة والوعظ والإرشاد، كلّه جيّدٌ، لكنّه كلامٌ، والله ﷻ لا يريد كلاماً من دون أفعالٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [الصّفّ: الآية ٢]، جزءٌ يسيرٌ من الإسلام هو أن تعرّف وتعظ النّاس، والجزء الأكبر هو أن تفعل الخير حتّى يرى النّاس أثر الإسلام عليك وعلى سلوكك، لذلك قال ﷻ: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: الآية ٢١]، الأسوة السّلوكيّة هي الأساس.

ففي الدّرجات لا يستوي القاعد مع المجاهد، إن كان بماله أو نفسه، أو الإنسان الّذي يبذل الجهد في العلم، أو العمل، أو التّقنيّة، أو في مصلحةٍ تحمل الخير للنّاس، أو في بناء المجتمع، لا يمكن أن تكون الدّرجة واحدة.

الآية (٩٦): ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

هذه الدّرجات هي من الله ﷻ ارتقاءٌ في الآخرة؛ لأنّها مغفرةٌ ورحمةٌ.

﴿وَمَغْفِرَةً﴾: المغفرة: أن يغفر الله ﷻ الذّنوب.

﴿وَرَحْمَةً﴾: الرّحمة: أنّ الله ﷻ لا يعامل الإنسان بالعدل، وإنّما بالفضل، والرّحمة هي أوسع ما يكون، لذلك يصف الله ﷻ ذاته العليّة بالرّحمن الرّحيم، وتبدأ كلّ سورةٍ في القرآن الكريم بـ بسم الله الرّحمن الرّحيم، وليس القويّ العزيز، أو التّواب الحكيم، أو العليم العزيز...

الآية (٩٧): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: من الذي يتوفّى؟ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، ولكن مرّةً يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السّجدة: الآية ١١]، ومرّةً يقول: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزّمر: من الآية ٤٢]، ومرّةً أخرى تأتي هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، الله ﷻ هو الّذي يعطي الأمر وبيده الأجل، فهو الّذي يتوفّى الأنفس، وقد وكّل ملك الموت بذلك، ويساعده الملائكة الّذين يقومون بقبض الأرواح.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾: توفّيت أي قبضت، يقول الإنسان: توفّيت دَيني، أي قبضته مستوفياً.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ﴾: الإنسان قد يظلم غيره ويظلم نفسه، وظلم النّاس هو أشدّ الظّلمات على الإنسان، ففي الحديث القدسيّ: «يا عبادي إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا»[1]، ودعوة المظلوم ليس

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

بينها وبين الله ﷻ حجابٌ، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تردّ دعوتهم؛ الصّائم حتّى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السّماء، ويقول الربّ: وعزّتي لأنصرنّك ولو بعد حين»[1]، لكنّ الإنسان الّذي يظلم نفسه هو الّذي يقدّم شهوةً عاجلةً على نعيمٍ دائمٍ، مثلاً: يقرّر إنسانٌ أن يزني أو يسرق، فهو يقدّم شهوةً، وهذه الشّهوة تعقبها ندامةٌ وحسرة وعقاب في الآخرة، فأنت ظلمت نفسك ولم تعطِ نفسك؛ لأنّك حرمتها من نعيمٍ مقيمٍ ودائمٍ إلى فترةٍ بسيطةٍ وقليلةٍ من المتعة أو الشّهوة.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾: هنا ورد موضوع الهجرة، الهجرة أوّلاً: بدأت من مكّة إلى الحبشة، وثانياً: من مكّة إلى المدينة المنوّرة، وسبب الهجرة الحقيقيّ هو تعرّض المسلمين في مكّة إلى أشدّ أنواع التّنكيل والعذاب والقسوة والإرهاب والقهر، حتّى كانوا يُسحلون على رمال الصّحراء، (سيّدنا بلال، والسيّدة سميّة، وسيّدنا عمّار بن ياسر، وغيرهم من الصّحابة الكرام رضي الله عنهم)، وحوصر النّبيّ ﷺ في شعب عمّه أبي طالب، وقُطع عنه الماء والطّعام، فأُذن للمؤمنين والمسلمين أن يهاجروا، ولم يؤذن لهم أن يقاتلوا، فكيف يقولون: إنّ هذا الدّين هو دين السّيف، إلى من كانت الهجرة؟ أمر النّبيّ ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وأعطى العلّة في ذلك فقال ﷺ: «لو خرجتم إلى أرضِ الحبشة، فإنّ بها مَلِكاً لا يُظلَمُ عنده أحدٌ»[2]، هو النّجاشيّ، وكان نصرانيّاً، فأوّل مَن لجأ إليه المسلمون عندما حوصروا ملك الحبشة النّجاشيّ، الّذي رحّب بهم وحماهم من بطش قريش ومشركي العرب في ذلك الوقت.

كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، والهجرة الثّانية إلى المدينة المنوّرة، وكان الانتقال الحضاريّ، حيث بدأ المجتمع والحضارة الإسلاميّة يتكوّنان نتيجة الهجرة من مكّة إلى المدينة المنوّرة، وكان النّبيّ ﷺ يضع القواعد والأسس العامّة لبناء

(١) سنن التّرمذيّ: كتاب الدّعوات، باب في العفو والعافية، الحديث رقم (٣٥٩٨).
(٢) الرّوض الأنف: ج٢، ص ٩٠.

المجتمع المتكاتف المتضامن الموحّد، الّذي لا يعتريه المرض، فلا طائفيّةَ ولا عرقيّةَ ولا نزعاتٍ دينيّة، فجعل وثيقة المدينة المعروفة، وكان اليهود والمشركون وأهل الكتاب في المدينة المنوّرة، يداً واحدةً على من سواهم، لكنّ اليهود هم الّذين غدروا ونقضوا المواثيق والعهود.

الهجرة كانت مطلوبةً في ذلك الوقت، والمقصود بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ الذين خافوا ورفضوا أن يهاجروا حفاظاً على أموالهم، فأولئك: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

الآية (٩٨): ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

وهذا استثناءٌ ممّا سبق، الذين ليس لهم طريقٌ للهجرة إلى المدينة المنوّرة أو إلى الحبشة، هم من المستضعفين إمّا الرّجال الكبار في السّنّ، أو المرضى، أو النّساء، أو الولدان الصّغار.

الآية (٩٩): ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

الإنسان عندما يقول: عسى أن أفعل ذلك، أي قد أفعل وقد لا أفعل، لكن عند القول: عسى الله ﷻ أو لعلّ الله ﷻ فعسى أو لعلّ بالنّسبة لله ﷻ تعني أنّ الأمر سيتحقّق، فالله ﷻ يعفو ويغفر، بسبب ضعفهم الّذي منعهم من الهجرة مع المسلمين إلى الحبشة أو المدينة المنوّرة.

الآية (١٠٠): ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿مُرَاغَمًا﴾: المُـــرَاغَمُ: مذهبٌ ومهربٌ وملجأٌ، أي موضعٌ يُذهب إليه للإقامة؛ مكانٌ لهجرته يكون فيه متّسع ممّا يكون فيه من ضيق.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أمر الله ﷻ بالهجرة، وهي معلَمٌ أساسيٌّ من معالم الإسلام، فالتّأريخ الإسلاميّ يبدأ مع الهجرة، لكن هل الهجرة بعد الفتح هي الهجرة ذاتها قبل الفتح؟ هل معنى الهجرة عندما أُمر النّبيّ ﷺ أن يُهاجِر من مكّة إلى المدينة المنوّرة، وخرج في ذلك اليوم متخفيّاً في جُنح الظّلام مع الصّدّيق رضي الله عنه، وبات الإمام عليّ كرّم الله وجهه في فراشه ليفتديه، وذهب إلى غار ثور حيث نسج العنكبوت وباض الحمام؟ هل هذه الهجرة التي يتحدّث القرآن الكريم عنها؟ هل هي باقيةٌ بعد أن هاجر النّبيّ ﷺ؟ لا، حدّد النّبيّ ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيّةٌ»[1]، معنى جهاد أي بذل الجهد في سبيل الحضارة، وفي سبيل التّقدّم، وفي سبيل نشر رواق الرّحمة والعلم بين شعوب الأرض، لاحظوا البُعد الحضاريّ الّذي يجب علينا أن نتمسّك به دائماً، ولنعلّم النّاس الإسلام كما أنزله الله ﷻ بعيداً عن إسقاطات وانحرافات البشر، وعن اعتقادات أعداء سيّد البشر ﷺ، والأمراض التي يتوهّمها الآخرون، يقول النّبيّ ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ الله»[2]. تعريف المسلم: هو الّذي يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، ويقيم الصّلاة، ويؤتي الزّكاة، ويصوم رمضان، ويحجّ البيت إن استطاع إليه سبيلاً.

أمّا تعريف المؤمن: فهو الّذي يؤمن بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرّه.

والمهاجر: هو من هاجر من مكّة إلى المدينة المنوّرة، أو الّذي ينتقل من مكان إقامته إلى مكانٍ آخر كما انتقل المسلمون من مكّة إلى الحبشة، أو من مكّة إلى المدينة المنوّرة، لكنّ النّبيّ ﷺ أعطى البُعد الحضاريّ والمطلوب الّذي يحقّقه الإسلام

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الجهاد والسّير، باب وجوب النّفير وما يجب من الجهاد والنّيّة، الحديث رقم (٢٦٧٠).
(٢) مسند البزّار: المجلّد الثّاني، مسند فضالة بن عبيد، الحديث رقم (٣٧٥٢).

والإيمان والهجرة، فالإسلام يحقّق السّلام والأمن والاطمئنان للنّاس، وأن يسلم النّاس من شرّك، «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»، فلا يجوز أن تكذب، أو تغتاب، أو تنمّ على أحدٍ، ولا أن تؤذي بلسانك، وكذلك الفعل بالنّسبة لليد من سرقةٍ وزنا وغير ذلك... فالمقصود باللّسان القول، وباليد الفعل. والمؤمن صحيحٌ أنّه مَن آمن بالله ﷻ، ولكنّه أيضاً مَن يأمنه النّاس على أموالهم وأعراضهم، فكيف على دمائهم؟ وكيف على وجودهم؟ وكيف على مستقبلهم؟ وكيف على حاضرهم؟ وكيف على وطنهم؟ هذا تعريف الإسلام والإيمان، وكذلك تعريف الهجرة بعد الفتح: أن يهجر الإنسان ما نهى الله ﷻ عنه، لذلك كانت الهجرة بمعانيها الحضاريّة، وبمفهومها وامتدادها وبُعدها، ليس فقط العمق في الزّمن، بل العمق في الفكر، لذلك كان ملك عُمان يقول عن النّبي ﷺ: إنّه ما رأى مثله، كان إذا أمر أصحابه بشيء كان أوّل آخذٍ به، وإذا نهاهم عن شيء كان أوّل منتهٍ عنه، إذاً المعوّل على الأفعال وليس الأقوال، وعلّة دعاة الدّين الآن هي كثرة الأقوال والمواعظ وإطالة الخطب والإقلال من ترجمة الأقوال إلى أعمالٍ، هذه الأعمال هي التي تعطي الإسلام جوهره، وهي التي جعلت المسلمين في قمّة الحضارة البشريّة، فكان الإنسان يعلم أنّه إذا نفّس كربةً عن مؤمنٍ نفّس الله ﷻ عنه كربةً من كُربات يوم القيامة، وإذا مشى في حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكافٍ في مسجد النّبيّ ﷺ أربعين يوماً، كان المفهوم الإسلاميّ مفهوم الخيريّة والرّحمة والمحبّة والتّوادّ والتّعاضد، يختلف تماماً عن المفهوم بعد مرور هذا الزّمن أكثر من ألفٍ وأربعمئة عامٍ على الإسلام، يقول النّبيّ ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[1]، هذه القيم والفضائل الأخلاقيّة التي زرعها النّبيّ ﷺ في نفوس الصّحابة والمسلمين ترجمةً لما جاء في كتاب الله ﷻ، ولما أمره به ﷻ من دعوة الخير للغير، هي التي أوصلت وجعلت الحضارة والأمن والاطمئنان

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم (٢٥٨٦).

والسّلام عبر الزّمان منذ دعوة النّبيّ محمّد ﷺ. فعندما هاجر النّبيّ ﷺ من مكّة إلى المدينة المنوّرة، هذا الانتقال لم يكن المقصود فيه الانتقال الجغرافيّ ولا الزّمانيّ ولا المكانيّ، وإنّما هو نقلةٌ حضاريّةٌ، فبماذا نحن مطالبون اليوم؟ نحن بحاجةٍ للاستفادة من العظات والعبر والدّروس التي تركتها هجرة النّبيّ ﷺ، والتي دفعت بسيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يعلن تاريخ الهجرة هو مبدأ التّأريخ الإسلاميّ، هذه هي الدّروس والعبر التي نحتاجها اليوم حتّى نكون أمناء على دين الإسلام، وحتّى نستطيع أن نعطي الصّورة المشرقة، ويجب علينا أن نرتفع لمستوى الإسلام وليس أن نجذب الإسلام إلى مستوى التّخلّف، فلا يمكن لمتخلّفٍ عقليّاً أو حضاريّاً أو علميّاً إعطاء صورةٍ مشرقةٍ عن هذا الدّين العظيم، فالّذي يعطي صورةً مشرقةً عن هذا الدّين العظيم، والّذي يطبّق الإسلام والقرآن الكريم وسنّة النّبيّ ﷺ، يجب أن يكون هو مصدر العلم والخير والحضارة للبشريّة.

وعندما نفسّر كتاب الله ﷻ ونتدبّره يجب أن نرفع من مستوى عقولنا -وخصوصاً الدّعاة الذين يعملون في الحقل الدّينيّ- إلى مستوى عطاء كتاب الله ﷻ، حتّى نستمدّ الإشراقات والأنوار، وحتّى نصل بالعلم والمعرفة والحضارة والفكر إلى قمّة البشريّة.

الآية (١٠١): ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

بعد هذه الآية هناك آيةٌ أخرى تتعلّق بصلاة القصر والخوف، ومن الملاحظ في هذه الآيات تكرار كلمة الصّلاة أكثر من ستّ مرّات، هذا نسمّيه باللّغة الإطناب، وهو دليلٌ على أهميّة الصّلاة.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾: صلاة القصر في السّفر وفي الخوف؛ أي صلاتان في هذه الآية.

لنأتي إلى الصّلاة، لماذا فيها صلاة خوفٍ وصلاة قصرٍ في السّفر، وما هي أهمّيتها

حتّى كرّر المولى ﷻ كلمة الصّلاة أكثر من ستّ مرّاتٍ في هذه الآية والتي تليها؟ الصّلاة هي ركنٌ من أركان الإسلام الخمسة، وهي ليست فقط ركنٌ من أركان الإسلام، إنّما هي عماد الدّين، من أقامها فقد أقام الدّين، ومن هدمها فقد هدم الدّين، وكان النّبيّ ﷺ إذا فزع أو أحزبه أمرٌ أو اهتمّ أو اغتمّ يقول: «يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها»[1]، كلّ أركان الإسلام باستثناء الشّهادتين يمكن أن تكون هناك حالاتٌ تسقط فيها عن الإنسان باستثناء الصّلاة، إن لم تستطع الصّلاة قائماً تصلّي قاعداً، وإن لم تستطع قاعداً تصلّي مضجعاً، وإن لم تستطع مضجعاً فمستلقياً حتّى أن يُخطر الإنسان أركان الصّلاة في ذهنه فلا تسقط عنه الصّلاة، والسّبب في ذلك أنّ الصّلاة هي صلةٌ مع الخالق ﷻ، وأخلاقٌ مع الخَلْق، فإن لم تحقّق المعادلة بطرفيها فأنت لم تُقِم الصّلاة، وإنما تكون قد أدّيت الصّلاة أو أنّك ركعت وسجدت فقط، فالصّلاة لها جانبان؛ الجانب الأوّل: الصّلة مع الخالق ﷻ، والجانب الثّاني: هو الأخلاق مع الخلق، فإذا باشر الإنسان صلاته ولم يستشعر عظمة من يقف بين يديه لم يُحقِّق الصّلة، وتعريف الصّلاة في اللّغة الدّعاء، وطالما أنّها لا تسقط فالطّريقة التي فرض بها الله ﷻ الصّلاةَ على المسلمين كانت مختلفةً عن بقيّة الأركانِ، في العادة يأتي سيّدنا جبريل عليه السلام ويبلّغ النّبيّ ﷺ بالأمر الإلهيّ، وهكذا كان بالنّسبة لكلّ الأركان باستثناء الصّلاة، فقد استدعى الله ﷻ النّبيّ ﷺ إلى حضرته الشّريفة وكلّفه بالصّلاة مباشرةً من دون واسطة جبريل عليه السلام، كي تكون رسالةً للمصلّين بأنّ الإنسان عندما يصلّي يقف بين يديّ الله ﷻ، لذلك جزءٌ من الصّلاة ما جرى في ذلك الموقف العظيم عندما عُرِج بالنّبيّ ﷺ فأصبح عند سدرة المنتهى، وغشيته الأنوار الإلهيّة فقال: «التّحيات لله والصّلوات والطّيّبات»، فأجاب الله ﷻ: «السّلام عليك أيّها النّبيّ ورحمة الله وبركاته»، فأجابت الملائكة: «السّلام علينا وعلى عباد الله الصّالحين، نشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله»، وهذه جزءٌ من الصّلاة، إذاً مكانة الصّلاة كبرى للصّلة وللإصلاح، وهي لا تسقط عن المؤمن، إضافةً إلى ذلك عندما تريد أن تؤدّي الصّلاة وتقوم بها فلها شروطٌ حتّى تصحّ، فإن أردت

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

الصّلاة يجب عليك أن تستحضر عظمة الوقوف بين يديّ الله ﷻ، ولا بدّ أن تكون طاهراً فتتوضّأ، وتستر العورة، وتستقبل القبلة، وأن تبدأ بتكبيرة الإحرام، وتقرأ من القرآن الكريم، ولا بدّ أن تركع تعظيماً لله ﷻ، وأن تسجد بين يديه ﷻ كما فعل النّبيّ ﷺ في سدرة المنتهى، ولا بدّ من أن تقول: التّحيّات التي قالها النّبيّ ﷺ في ذلك اللّقاء العظيم مع ربّه ﷻ، كلّ ما يتعلّق بشروط صحّة الصّلاة وواجباتها وأركانها وسننها هي فقط سببٌ لاستحضار عظمة الله ﷻ؛ لأنّك تتصل به، وقد جعلها الله ﷻ بين يديك، فمتى تريد أن تلقى الله ﷻ فعليك القيام بهذه الأمور؛ تتوضّأ وتستقبل القبلة وتستر العورة وتبدأ بتكبيرة الإحرام وتقرأ من القرآن وتركع وتسجد وتتشّهد فأنت أصبحت بين يديه ﷻ، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: الآية ١-٢]، خاشعون؛ لأنّهم مستحضرون لعظمة من يقفون ببابه وعلى أعتابه، فهذا هو الجزء الأوّل، وهو الصّلة مع الله ﷻ، وإذا أحسنت الصّلة أثناء الصّلاة فستُدرك أنّ الصّلاة راحةٌ لك، كما قال ﷺ: «يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها»[1]، بينما النّاس الآن نتيجة هذه الحياة وأكدارها ومشكلاتها أصبحوا يستعجلون في الصّلاة، ويقفون فيها وأذهانهم خارجها، فلا يستحضرون عظمة الخالق، ولا يحقّقون الصّلة معه، ففقدوا بذلك عطاء الصّلاة وقوّتها ورحمتها، والمولى ﷻ يقول: استعينوا على حياتكم، وعلى الابتلاءات التي تتعرّضون لها، وعلى كلّ المشكلات بالصّلة بي، فأنا لن أُخيّب ظنّكم: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: الآية ٤٥]، أمّا أن تذهب إلى الصّلاة وأنت لاهٍ وقلبك غافلٌ فما حقّقت هذه الصّلة، هذا طرف المعادلة الأوّل، أمّا طرف المعادلة الثّاني فهو الأخلاق مع الخَلْق، فإذا لم تؤدّ الصّلاة بعد أن اتّصلت به إلى الاستقامة فإنّك لم تؤدّ الصّلاة، ففي كلّ صلاةٍ لا تستطيع أن تصلّي إلّا وأن تقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: الآية ٦].

كيف تحقّق الصّلاة الاستقامة؟ أثر الصّلاة مع بقيّة البشر، فإن كنت أصلّي وأغتاب

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

فأنا أُسيء للنّاس، أصلّي وأكذب أسيء للنّاس، أصلّي وأسرق أسيء للنّاس، أصلّي وأزني أعتدي على أعراض النّاس، أصلّي وأنمّ أسيء للنّاس، أصلّي وأؤذي إلى جيراني أسيء للنّاس، أصلّي وأفعل الموبقات أسيء للنّاس، أصلّي ولا أميط الأذى عن الطّرقات أسيء للنّاس، أصلّي ولا أعطي الخير للغير أسيء للنّاس، لذلك قال النّبيّ ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلّا بُعداً»[1]، الفحشاء والمنكر هي عناوين لكلّ فسادٍ أخلاقيّ، الصّلاة هي صلةٌ وأخلاقٌ مع الخلق.

والصّلاة هي الوحيدة بين الأركان الإسلاميّة الخمسة التي تحوي كلّ أركان الإسلام، ففي الصّلاة تتشهّد فأنت حققّت الرّكن الأوّل، وفيها تأخذ جزءاً من الحجّ فتتّجه إلى الكعبة، وأنت فيها صائمٌ؛ لأنّه يفسدها الأكل أو الشّرب، ولست صائماً عن الطّعام والشّراب فقط؛ وإنّما عن الكلام مع الآخرين أيضاً، وفي الصّلاة زكاةٌ؛ لأنّ الزّكاة هي اقتطاعُ جزءٍ من المال، وأصل المال العمل، وأصل العمل جزءٌ من وقتك تحدّده للعمل، وأنت قد اقتطعت جزءاً من الوقت لتؤدّي فيه الصّلاة، فأنت إذاً تزكّي في الصّلاة.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: سافرتم، أو سرتم، الضّرب: أي السّير بقوّةٍ، يمكن أن يكون جهاداً أو سفراً.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: جناحٌ: تضييقٌ.

﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾: صلاةُ القصرِ.

﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾: هناك تفصيلٌ بكلّ المذاهب الإسلاميّة بالنّسبة لموضوع القصر، والقصر يكون لصلاة الظّهر والعصر والعشاء، أمّا صلاة المغرب فلا تُقصَر، فلا يصحّ أن تكون ركعةً ونصف، وصلاة الفجر لا تُقصَر؛ لأنّه لا يصحّ أن تكون ركعةً.

﴿أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يقتلونكم أو يضربونكم أثناء الجهاد.

---

(١) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب العين، أحاديث عبد الله بن العبّاس، الحديث رقم (١١٠٤٧).

الآيـة (١٠٢): ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

هـذه صـلاة الخـوف، فـإن كنتـم بالمعركـة وأمامكـم الأعـداء، فليصلِّ قسـمٌ معك ومعهم أسـلحتهم.

﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾: مـن وراء هـذا الصّـفّ هنـاك صـفٌّ لا يصـلّي.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾: فقالـوا -عـلى اختـلافٍ بالرّواية كيـف تتمّ-:

فقيـل: إنّ النّبـيّ ﷺ يصـلّي إمامـاً، ويصـلّي الصّـفّ الأوّل معـه، والصّـفّ الثّـاني يرقُـب الأعـداء من أجـل ألّا يميلوا ميلـةً واحدةً عليهـم، فعندما تنتهـي الرّكعة الأولى يقـوم القسـم الثّـاني بالرّكعـة الثّانيـة فيكون القسـم الأوّل حـضر من صـلاة النّبيّ ﷺ تكبـيرة الإحـرام، ويكـون القسـم الثّاني حـضر الصّـلاة، فيأخـذون عظمة مـا في هذه الصّـلاة، وخصوصـاً أنّهـم صلّـوا وراء النّبيّ ﷺ.

هناك تعدّدٌ في الطّريقة ثلاثُ طرقٍ أو أربعة موجودة بالنّسبة لصلاة الخوف.

لكـن السّـؤال هنـا لماذا يأخـذون أسـلحتهم؟ هل تخـلّى الله ﷻ عنهم وهـو القائل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمـران: مـن الآيـة ١٦٠]، ورسـول الله ﷺ يصـلّي إمامـاً فيهـم، ومع ذلـك قال جـلّ وعـلا: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، والله ﷻ موجـودٌ فلـماذا يأخـذون حذرهـم وأسـلحتهم؟

الجـواب: أنّ الله ﷻ وضـع في هـذا الكـون سـننه في خلقـه، وجعـل لهـذه الحيـاة

أسباباً، ورتّب الأسباب على الأقدار، فإذا تخلّفت عن السّبب فلا تقل: قدري هكذا، أنت لا تعرف قدرك، مثلاً سيّارةٌ تسير بسرعةٍ فرميت بنفسك أمامها فدعستك، السّبب أنّك ألقيت بنفسك أمام السّيّارة المسرعة فقتلتك، لكن مكتوبٌ في القدر أنّك ستموت لأجلك، وليس السّبب هو الّذي أنهى حياتك، ذلك أنّ الله ﷻ يرتّب الأسباب، ويُطالب الإنسان بالأسباب، ولا يُكلّف أحداً بالقدر، فهو من اختصاص الله ﷻ، ولا تستطيع أن تصل إلى معرفته، لكنّه ربط الأسباب بالمسبّبات وقال لك: خذ بالأسباب في الحياة، بدليل أنّه ﷻ يقول لهم في صلاة الخوف ومعهم النّبيّ ﷺ: خذوا أسلحتكم وحذركم، حتّى يعلّم النّاس ألّا يغفلوا عن الأسباب التي خلقها وأراد منّا أن نلتزم بها، لماذا لا تقول: يا ربّ أنا عطشان وتكتفي بذلك؟ لماذا تجلب الماء وتضعه في الكوب وتأخذ الكوب وتشرب؟! ألم نأخذ بالأسباب؟! لماذا نأخذ بالأسباب بهذه الأمور ولا نقول: قدر؟!

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾: أمرك الله ﷻ أن تأخذ بالأسباب، ورخّص لك الأمر.

الآية (١٠٣): ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

الآية السّابقة يوجد فيها قصرٌ بالسّفر، وفيها قصرٌ بصلاة الخوف، والّذي يريد تفاصيل القصر في صلاة السّفر على تعدّد المذاهب فهي موجودةٌ في كتب الفقه، لكن المعنى العامّ أنّ الإنسان عندما يسافر يستطيع القصر من صلاة الظّهر والعصر والعشاء، وصلاة الخوف هي أيضاً صلاة قصرٍ، فهي ركعتان مع النّبيّ ﷺ بالشّكل المذكور بالآية الكريمة، أن يؤدّوا ويأخذوا بالأسباب والحذر، فإذا قضيتم الصّلاة وأنتم بحالة القلق أو الخوف، فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم.

﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: ألم يكونوا يقيمون الصّلاة؟ كانت هذه صلاة القصر، هنا ذكر العامّ وهو يقصد الخاصّ، قال: صلاةً وهو يقصد صلاة القصر، فنتيجة الخوف والقلق إمّا من قطّاع طرقٍ أو مشركين أو من قتالٍ فدائماً وبكلّ

الأحوال كونوا على اتّصالٍ مع الله ﷻ بالذّكر؛ لأنّكم لا تستطيعون تأديّة الصّلاة بشكلها الكامل.

﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ في أيّة حالٍ من الأحوال، وهو أمرٌ عامٌّ لكلّ المسلمين، وإن كان هنا خاصٌّ فيما يتعلّق بصلاة القصر.

الذّكر هو ضدّ النّسيان؛ أي اذكروا الله ﷻ في كلّ حالةٍ من حالاتكم، واجعلوا ذكره ﷻ عمدةً بالنّسبة لكم.

فإذا انتهى الخوف أو السّفر، فأقيموا الصّلاة؛ لأنّ الصّلاة كتابٌ مفروضٌ موقوتٌ لزمنٍ معيّنٍ وبأزمنةٍ معيّنةٍ، فلا يمكن أن تصلّي الظّهر والعصر معاً.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾: إعلان ولاءٍ واستدامة ولاءٍ لله ﷻ خمس مرّات في اليوم، فجرٌ وظهرٌ وعصرٌ ومغربٌ وعشاءٌ، في وقتها وبتمامها وكمالها.

الآية (١٠٤): ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ﴾: لا تضعفوا في مواجهة أعدائكم، فهناك معادلة: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ﴾، لكن في طرف المعادلة من جانبكم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ هذه هي المعادلة الإيمانيّة العظيمة، ساوى الله ﷻ بين النّاس بالنّسبة للأسباب، فإذا أخذت بأسباب الله ﷻ حقّقت النّتائج المطلوبة؛ لذلك لا بدّ من تطبيق قوله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: من الآية ٦٠]، ترهبون ليس المقصود بالإرهاب الّذي يقولون عنه، وإنّما هو منع الاعتداء، وهو توازنٌ استراتيجيٌّ، توازن القوّة، ولا بدّ للحقّ من قوّةٍ تحميه، وأيّ دولةٍ من الدّول لا بدّ من أن تكون لها قوّةٌ حتّى تحمي الوطن من أيّ اعتداءٍ يحصل عليه، المعادلة هنا تساوي النّاس بشكلٍ عامٍّ في الألم والمشقّة والابتلاء والمصائب، بغضّ النّظر عن ساحة المعارك والقتال، صحيحٌ أنّ هناك خصوصيّة سببٍ بالنّسبة للمواجهة بين

رسول الله ﷺ وبين ومشركي مكّة في معركة بدر وأُحُد والخندق وغيرها، لكن هنا خصوصيّة اللّفظ وعموميّة المعنى، المعادلة: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، لكن الفارق بين المؤمن وغير المؤمن أنّه يرجو من الله ﷻ، لنضرب مثالاً على ذلك فيما يتعلّق بأمور الحياة بالنّسبة للمصائب؛ لو أنّنا أمام شخصٍ غير مؤمنٍ تعرّض لابتلاءٍ شديدٍ بفقد صحّته، أو أحبّ النّاس إليه، بالموت أو المرض أو المال أو أيّ شيءٍ من الأشياء، كيفيّة المعادلة هنا في مواجهة هذه المصائب، المصائب تصيب الجميع: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: الآية ١٥٥]، والإنسان موجودٌ في الحياة الدّنيا من أجل الامتحان والابتلاء والاختبار، قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: الآية ١-٢]، فلو أنّ الإنسان الّذي تعرّض للمصاب لم يكن مؤمناً فإنّه يتساوى مع الإنسان المؤمن في التّعرّض للمصائب؛ لأنّ المصائب على الجميع، ولا تستثني المؤمن من غير المؤمن، لكنّ الفارق بينهما أنّ المؤمن يرجو من الله ﷻ الأجر والثّواب على هذا الابتلاء، ويعلم أنّه في كلّ أمرٍ يُصاب به فإنّه يُرفع به درجة وتُحطُّ عنه خطيئةٌ، فهو يعلم تماماً معنى هذه الآية: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، وقد ورد في صحيح مسلم عن السّيّدة عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ ﷺ كان يقول: «ما يصيب المؤمن من شوكةٍ فما فوقها إلّا رفعه الله بها درجة، أو حطّ عنه خطيئة»[1]، هذا معنى المعادلة: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، الله ﷻ يعلم أين يكون الإيمان، في الصّبر على الابتلاءات على المحن، وفي مواجهة الشّدائد، فالإنسان الصّابر هو إنسانٌ مؤمنٌ؛ لأنّه يصبر، ويعلم بأنّ هناك أجراً من هذا الصّبر على الابتلاء، ويرجو من الله ﷻ الشّفاء، والرّحمة لميّته، والعوض عليه بماله، دائماً هناك تسليةٌ لقلبِ المؤمن بإيمانه بربّه، فلا تستهن بهذا الفارق بالمعادلة فهو فارقٌ كبيرٌ جدّاً ولا يشعر به إلّا أصحاب الإيمان.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتّى الشوكة يشاكها، الحديث رقم (٢٥٧٢).

الآيـة (١٠٥): ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

هـذه الآيـات تبـيّن أنّ الإنسـان الّذي يلتـزم بـشرع الله ﷻ وبكتابه لا بدّ لـه من أن يكـون عـادلاً مـع النّاس جميعاً، بغـضّ النّظر عن كونهـم مؤمنين أم لا، مسـلمين أم لا، النّظـرة شـاملةٌ لكلّ النّـاس، بدليـل قولـه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾: الضّمـير المتّصـل (نـا) يـدلّ عـلى الجماعـة، وهـو يـأتي للتّعظيـم والتّفخيـم، يقـول ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجـر: الآيـة ٩]، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾ [ق: الآيـة ٤٣]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزّمـر: الآيـة ٢]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسـف: الآيـة ٢]، في كلّ الآيـات المتعلّقـة بفعلٍ مـن أفعال الله ﷻ تأتي (نـا) الدّالـة عـلى الجماعة للتّعظيـم، أمّـا عندما يتعلّـق الأمر بشـأنٍ توحيـديّ فإنّها تأتي مفـردة: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طـه: الآية ١٤]، لم يقـل: إنّنـي نحـن الله؛ لأنّهـا توحيد لله ﷻ.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هنـاك آيـاتٌ يقـول فيهـا جـلّ وعـلا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الزّمـر: مـن الآيـة ٤١]، ما الفـارق بينهـما؟

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بالتّكاليـف، و﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ بالرّحمـة والفضـل والعطـاء، فتنـزّل القـرآن الكريـم إمّـا هـو تكليـف البـشر افعـل ولا تفعـل، هـذا حـلالٌ وهـذا حـرامٌ، وإمّا أن يكون فضـلاً ورحمةً، قـال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: الآيـة ٨٢].

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾: الحـقّ: هـو الـشّيء الثّابـت الّـذي لا يـأتي شيءٌ في الكـون أو واقـعٌ ينقضـه، والقـرآن الكريـم نـزل بالحـقّ، يقـول ﷻ: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ [الإسراء: مـن الآيـة ١٠٥]، لا يمكـن أن يـأتي أيّ واقـعٍ من وقائع الحيـاة الدّنيا

أو أيّة قضيّةٍ لتناقض ما جاء في كتاب الله ﷻ، هذا هو معنى الحقّ، ولا توجد آيةٌ في القرآن الكريم تتناقض مع أيّ اكتشافٍ علميّ حتّى الآن، فالأمور المكتشفة نجدها في كتاب الله تبارك وتعالى، لكن لم يكن العقل البشريّ يدركها؛ لأنّه لم يكن مستعدّاً في وقتها لتقبّلها.

﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾: لا يمكن أن تحابي مسلماً على غير مسلم، وأن تفرّق بين مسلم وغير مسلم لا في الحقوق ولا الواجبات، يقول ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النّساء: من الآية ٥٨]، لم يقل: وإذا حكمتم بين المسلمين.

سبب النّزول:

وذلك أنّ رجلاً من الأنصار يُقال له: طعمة بن أُبيرق، أحد بني ظفر ابن الحارث، سرق دِرعاً من جارٍ له يُقال له: قتادة بن النّعمان، وكانت الدّرع في جرابٍ فيه دقيقٌ، فجعل الدّقيق ينتثر من خرقٍ في الجراب، حتّى انتهى إلى الدّار وفيها أثر الدّقيق، ثمّ خبّأها عند رجلٍ من اليهود يُقال له: زيد بن السّمين، فالتمست الدرّع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف لهم: والله ما أخذها وما له بها من علمٍ، فقال أصحاب الدّرع: بلى والله، قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتّى دخل داره، فرأينا أثر الدّقيق. فلمّا أن حلف تركوه واتّبعوا أثر الدّقيق حتّى انتهوا إلى منزل اليهوديّ، فأخذوه فقال: دفعها إليّ طعمة بن أُبيرق، وشهد له أناسٌ من اليهود على ذلك، فقالت بنو ظفر -وهم قوم طعمة-: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ، فكلّموه في ذلك، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهوديّ، فهَمّ رسول الله ﷺ أن يفعل ويعاقب اليهوديّ، حتّى أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾.

﴿خَصِيمٗا﴾: أي لا تخاصم وتجادل وتدافع عمّن كان خائناً للأمانة بالسّرقة، فلا يمكن اتّهام اليهوديّ وهو بريءٌ وتبرئة المسلم؛ لأنّه مسلمٌ، فهذه ليست المعايير التي يقبلها الإسلام، المعايير التي يقبلها هي القيم والأخلاق والصّدق والأمانة والحقّ

والعدل والخير، هذا هو دين الإسلام، فحَكَم النّبيّ ﷺ بالبراءة لليهوديّ وأدان المسلم طعمة بن أُبيرق من ظُفر، الّذي ذهب إلى مكّة بعد ذلك والتحق بالمشركين، وسقط عليه حائطٌ عندما كان يسرق أحد الدّور، ومات في مكّة المكرمة.

النّبيّ ﷺ لم يكن ليتسامح في الحكم بالعدل بين النّاس، وهذه قضيّةٌ مهمّةٌ لمن يحاول إلصاق تهمة عدم قبول الآخر من قبل المسلمين، ولمن يريد أن يُلصق تهمة الإرهاب وإلغاء الآخر بالمسلمين، ولمن يريد أن يلصق بالإسلام الإجبار وإكراه النّاس على الدّين، فهذه الآيات أكبر دليلٍ، فقد حكم النّبيّ ﷺ على المسلم وبرّأ اليهوديّ؛ لأنّ الأوامر من الله ﷻ العدل بين النّاس.

وتعاليم الإسلام الرّاقية والعظيمة، وقيم العدل والخير والمساواة بين النّاس وعدم التّفريق بينهم على أساس الدّين طُبّقت ليس فقط من قبل النّبيّ ﷺ، وإنّما تعلّمها أصحابه ﭫ وأتباعه، فإذا حدث خللٌ فليس بالتّعليمات والتّعاليم، وإنّما بعدم الاتّباع والاقتداء.

الآية (١٠٦): ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾

الاستغفار أمرٌ مطلوبٌ من الإنسان في كلّ لحظةٍ، ففي كلّ وقتٍ يمكن أن يرتكب الإنسانُ ذنباً أو إثماً، حتّى تقصيره في عبادته يُعَدّ ذنباً.

ويأتي الأمر للقدوة والأسوة والمعلّم النّبيّ ﷺ حتّى يكون لكلّ أمّته من بعده: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾؛ لأنّ الآياتِ التي تليها قال فيها ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ﴾، فقد اعترض بعضهم وحاول التّدخّل بحكم النّبيّ ﷺ باتّهامه للمسلم وتبرئة اليهوديّ، وقالوا: هذه سمعةٌ غير جيّدةٍ، فمعنى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾؛ أي واطلب ممّن قال هذا القول أو فكّر بهذا القول أن يستغفر الله ﷻ؛ لأنّ هذا أمرٌ غير مقبولٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: كان ولا يزال ويبقى؛ لأنّه ﷻ لا تعتريه الأغيار، ولا يتبدّل، كان فعلٌ ماضٍ ينطبق على البشر وليس على ربّ البشر.

الآيـة (١٠٧): ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾

الجدل: هو الفتل والنّقاش.

﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾: يخونون أنفسهم.

في الآيـة السّـابقة وردت كلمـة: الخائنين، أمّـا هنا ﴿يَخْتَانُونَ﴾ أي الذيـن يكرّرون الخيانـة مرّةً بعـد مرّةٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾: خوّانـاً وليـس خائنـاً؛ لأنّ (خائنـاً) قـد يخـون مـرّةً ويتوب، أمّـا (الخـوّان) فهو الّـذي يخـون باسـتمرار، واعتاد عـدم الأمانة، فأصبحـت عنـده هيّنـةً، فليـس من صفـات المؤمن ولا المسـلم ولا الإنسـان المسـتقيم عـلى الإطـلاق، أن يخـون الأمانـة وأن يجـادل في قضيّةٍ فيهـا خيانةٌ، هـذا الرّجل سرق، وطالمـا أنّـه سرق فقـد خـان الأمانـة والتّعاليم، وبعـد ذلك يريـد أن يتنصّل مـن فعلته ويرميهـا عـلى بـريءٍ وإن كان يهوديّاً.

الآيـة (١٠٨): ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

المقصـود أنّهـم يخافـون مـن النّـاس أن يقولـوا: مسـلمٌ سرق واليهـوديّ لم يـسرق، والأولى أن يخافـوا مـن الله ﷻ.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: التّبييـت هـو التّدبـير بالخفـاء، أي ذهـب لبيتـه ليـلاً وبيّـت أمراً.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾: الله ﷻ محيـطٌ وعـالمٌ بـكلّ الأسرار، فهـم اتّفقـوا وبيّتـوا الأمر ودبّـروا بخفاءٍ أن يجعلـوا هذا الدّرع ببيـت اليهوديّ حتّى يُتّهـم اليهوديّ ويُبرَّئ المسـلم مـن السّرقة.

الآيـة (١٠٩): ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩ ﴾

أتيتم وجادلتم النّبيّ ﷺ وتحاولون إقناعه بألّا يحكم على المسلم ويحكم على اليهوديّ، هذا في الحياة الدّنيا.

﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾: من سيقف يوم القيامة ويجادل عنهم وعمّن كان خوّاناً وآثماً، ومن كان سارقاً ومعتدياً... من سيكون وكيلاً يدافع عنهم يوم القيامة؟ أنتم الآن تجرّأتم في هذه الدّنيا بمجرّد طلبكم من رسول الله ﷺ بأن يحكم للمسلم على اليهوديّ.

الآيـة (١١٠): ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ ﴾

أليس السّوء هو ظلمٌ للنّفس؟ السّوء هو سوءٌ مع الغير، وصحيحٌ أنّ السّوء مع الغير هو ظلمٌ للنّفس، لكنّ ظلم النّفس يكون كقتل النّفس.

﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾: طالما استغفر الإنسان، وكانت التّوبة صادقةً ونصوحةً على ألّا يكرّر الخطأ فسيجد الله ﷻ توّاباً رحيماً، فالله ﷻ في الآخرة هو التّوّاب الرّحيم، يتوب عن السّيّئات ويغفر الذّنوب.

الآية (١١١): ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ ﴾

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا ﴾: سمّاه كسباً؛ لأنّه أصبح باعتقاده أنّ هذا الإثم إلى صالحه، فإن سرق فهو يرى أنّه استفاد من هذه السّرقة.

﴿إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾: على نفسه وليس من نفسه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾: بنيّته وبفعله.

الآية (١١٢): ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

ما الفرق بين الخطيئة والإثم؟ الإثم الإصرار على المعصيّة، فهو مخطئٌ ومصرٌّ على الخطأ ويكرّره، أمّا الخطيئة قد يخطئ ويعود عنها؛ أي عصى لكن هذا خطأ.

﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا ﴾: ليس فقط سرق وارتكب الإثم، بل يريد أن يرميَ به بريئاً وهو اليهوديّ.

﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلَ ﴾: حمل بغير إرادته.

﴿ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾: البهتان: هو الافتراء، وفوق الافتراء الإثم المبين والواضح في جريمته باتّهام بريءٍ وبسرقته.

الآية (١١٣): ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة متابعةٌ للآيات السّابقة التي تتعلق بحادثة طعمة بن أبيرق من بني ظُفر الّذي سرق الدّرع، وجاء القوم لعند رسول الله ﷺ من أجل الحديث معه حتّى لا يحكم عليه، وإنّما يحكم على اليهوديّ، لكنّ الرّسول ﷺ كان قد حكم بالعدل بينهما، وكان مصرّاً على هذا الحكم، وهي تتعلّق بالمكانة العظيمة لسيّدنا رسول الله ﷺ ولعصمة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام؛ لأنّ الله ﷻ هو الّذي كرّمه وتفضّل عليه، فالنّبيّ ﷺ معصومٌ من الخطأ بتسديد الوحيّ لكلّ خطوةٍ ولكلّ أمرٍ منه ﷺ.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾: فضل الله ﷻ وعطاؤه ورحمته التي أحاطها بنبيّه المصطفى ﷺ، فكان مصدر خيرٍ ورحمةٍ للعالمين جميعاً.

﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ ﴾: الهمّ نوعان: إمّا همّ إنفاذ، وإمّا همّ تزيين، وعندما يقول المولى ﷻ: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ فهذا همّ تزيين، فهم يحاولون

أن يزيّنوا الباطل ويُعتّموا على الحقيقة، ويضعوا النّبيّ ﷺ بصورةٍ غير صحيحةٍ، ولكنّ فضل الله ﷻ على رسوله الكريم ورحمته ﷺ به منعت ذلك، فقد همّت طائفةٌ منهم أن يزيّنوا للنّبيّ ﷺ بألّا يحكم على المسلم وبأن يقول: إنّ اليهوديّ هو السّارق، معتقدين بذلك أنّهم يستطيعون أن يضلّوا النّبيّ ﷺ، وأن يزيّنوا له الباطل الّذي في أذهانهم، وتكفّل الله تبارك وتعالى بفضله ورحمته بالنّبيّ ﷺ فهم يضلّون أنفسهم ولا يضلّونه، فلا يستطيع أحدٌ أن يضلّه عليه الصّلاة والسّلام.

﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾: هذا الهمّ بتزيين الباطل، إنّما المقصود منه الضّرر؛ لأنّ أيّ إنسانٍ يسير في طريق الباطل فالنّتيجة هي الضّرر المتحقّق عليه إن كان في الدّنيا أو في الآخرة، هم حاولوا تزيين الباطل وتغيير الحقائق باتّهام بريءٍ وعدم نسبة السّرقة لولدهم، ولكنّ النّبيّ ﷺ معصومٌ من الله تبارك وتعالى فحكم بما أنزل الله ﷻ إليه.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾: أنزل الله ﷻ على نبيّه ﷺ العطاء الإلهيّ، وفضل الله ﷻ الأعظم على رسوله ﷺ هو إنزال القرآن الكريم الّذي هو هدايةٌ للبشريّة، وهو النّور المبين والرّوح والشّفاء لما في الصّدور وما في القلوب، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢﴾ [الإسراء: الآية ٨٢]، لكن لننتبه هنا بأنّ الله ﷻ قال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ﴾، عندما نزل جبريل عليه السلام على قلب المصطفى ﷺ في الغار قال له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهي أوّل آيةٍ من آيات القرآن الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: الآية ١-٥]، مبتدأ الدّين هو العلم، ولا مكان للجهل في صفوف المؤمنين بدين الإسلام، ومناط التّكليف هو العقل، لذلك كانت دائماً الحجّة والبرهان والدّليل العقليّ هي الطّريق الّذي استخدمه النّبيّ ﷺ في دعوته إلى الله ﷻ، ولم يستخدم القوّة ولا البطش ولا السّيف ولا الإرهاب ولا التّكفير ولا الإلغاء، وإنّما استخدم الحجّة والبرهان والدّليل، وفي أوّل دعوته ﷺ

خرج حتّى صعد الصّفا فهتف: «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمّد، فاجتمعوا إليه فقال: «يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب»، فاجتمعوا إليه فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ؟»[1]، قاس لهم الأمر بشكلٍ عقليٍّ ومنطقيٍّ، إذاً الفضل الأعظم هو إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ وما فيه من العلم، يقول جبريل للنّبيّ ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، فيُجيب النّبيّ ﷺ إجابةً طبيعيّةً: «ما أنا بقارئ»؛ لأنّ الإنسان إذا طُلب منه أن يقرأ إمّا أن يقرأ من شيءٍ أمامه، وإمّا أن يكون حافظاً لشيءٍ يقرؤه، فكرّر جبريل عليه السلام على النّبيّ ﷺ أن يقرأ، وأدخل الله سبحانه وتعالى العلم إلى قلب وفؤاد المصطفى ﷺ، فعلّم البشريّة، فكان ذلك فضل الله العظيم الّذي تحدّثت عنه الآية، ولكن لم يكتف المولى سبحانه وتعالى بقول: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قال: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: وهي سنّة النّبيّ ﷺ، وكلّ ما جاء في الحديث النّبويّ الشّريف، وكلّ ما أقرّه النّبيّ ﷺ، وكلّ ما نهى عنه.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾: فكان: أمّيّاً، فكلّ علم رسول الله ﷺ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ [النّجم: الآية ٤-٥]، سواء كان من القرآن أو من الحكمة التي هي سنّة النّبيّ ﷺ من أقواله وأفعاله وإقراره ونهيه عليه الصّلاة والسّلام.

﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾: يعتقد بعضهم أنّ هناك تكراراً؛ لأنّ الآية بدأت بفضل الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ، وانتهت بفضله عز وجل على رسوله، لكن لكلٍّ معنى: ففي بداية الآية: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ فضل الله سبحانه وتعالى هنا بأنّه منع عن رسول الله ﷺ أن يكذبوا عليه ويزيّنوا له الحكم على البريء، أمّا فضل الله سبحانه وتعالى في نهاية الآية: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ بأنّه أنزل عليه الكتاب والحكمة وعلّمه مالم يكن يعلم.

عندما أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على رسول الله ﷺ لم ينزله جملةً واحدةً، لماذا؟ لأنّ

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾، الحديث رقم (٢٠٨).

الله ﷻ أراد أن تحدث الأحداث فتنزل الأحكام، يقول ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: الآية ٣٢]، أي مقسّماً، فكان ينزل القرآن الكريم على حسب ما يجري من النوازل، فعند نزول القرآن الكريم لحادثةٍ حدثت يكون أدعى للأحكام بأن تترسّخ في الأذهان، فلا يمكن للأحكام أن تترسّخ إذا نزلت جملةً واحدةً، فلو أنّ القرآن الكريم نزل كاملاً من أوّل لحظةٍ في الغار على قلب رسول الله ﷺ ما كان ليترسّخ في الأذهان كما نزل منجّماً مفرقاً، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ هكذا قال مشركو مكّة، ولكنّ الله ﷻ نزّله مفرّقاً ليثبّت به فؤاد النّبيّ ﷺ، وليكون أدعى للأذهان والأفهام عندما تنزل الأحكام حسب النّوازل التي تجري مع البشر.

الآية (١١٤): ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

النّجوى هي أن يتناجى النّاس بالسّرّ، تبييتاً للإضلال، لكنّ الله ﷻ لم يذمّ كلّ تبييتٍ، فقد استثنى منه: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ التّبييت بخير، كمن يريد أن يأمر بصدقةٍ ويبيّت لها ويخفيها حتّى لا تدري شماله ما أنفقت يمينه، أو معروفٌ يريد أن يفعله الإنسان سرّاً أو يكون مبيّتاً، أو إصلاحٌ بين النّاس.

هل هناك في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات يكون الحثّ في الدّين على الإصلاح بين النّاس، وعلى العدل والمعروف والصّدقة في السّرّ حتّى لا يتأذّى الفقير؟ هذه بعض تعاليم الإسلام، لذلك من هذه الآيات عندما تولّى سيّدنا عمر بن الخطّاب القضاء في عهد سيّدنا أبي بكر رضي الله عنهما، طلب الإعفاء من القضاء، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: «يا عمر، أمن مشقّة القضاء تطلب الإعفاء؟»، فقال سيّدنا عمر: «يا أبا بكر، لا حاجة لي بقومٍ عرف كلّ منهم حدّه فوقف عنده، إذا مرض أحدهم عادوه، وإذا افتقر أغنوه، فلا حاجة لي بأناسٍ دينهم النّصيحة، وخُلُقهم القرآن». فلا تحدث خصوماتٌ ولا تناقضٌ بين البشر، هذا هو دين الإسلام.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: من يُسرّ النّجوى من أجل الصّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النّاس، ومن أجل فعل الخير للغير، فأجره سيكون عند الله ﷻ مع مرضاته ﷻ وجنّاتٍ في نعيمٍ مقيمٍ.

الآية (١١٥): ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾: أي يشقّ، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ أي يخالف نهجه، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ الهدى هو الطّريق الموصل إلى الغاية، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: من الآية ١٥٣]، فإذاً: من يشاقق الرّسول ﷺ من بعد أن تبيّن له الصراط المستقيم، الطّريق الموصل إلى الغاية وإلى مرضاة الله ﷻ، وهو كتاب الله ﷻ وسنّة سيّدنا رسول الله ﷺ بأوامره وأفعاله وأخلاقه، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ فستكون ولايته لما تولّاه من ضلالٍ وإضلالٍ.

﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾: سيكون المصير مصير السّوء في يوم الحساب، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشّعراء: الآية ٨٨-٨٩].

الآية (١١٦): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾: فتح ﷻ باب التّوبة فهو يغفر كلّ الذّنوب بدليل هذه الآية، وأطلق مشيئته ﷻ.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: إذاً هو يغفر كلّ الذّنوب باستثناء الإشراك بالله ﷻ، قد يقول قائلٌ: إنّ الله ﷻ يقول في آيةٍ أخرى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزّمر: الآية ٥٣]، فكيف يقول: إنّه يغفر الذّنوب جميعاً، وهنا يقول: إنّه لا يغفر أن يشرك به؟ يجب أن نتبيّن أنّ الإشراك بالله ﷻ ليس ذنباً، فالذّنب هو

أن تعصي وأنت تعلم أنّ هناك إلهاً، أمّا أن تنكر وجود الله ﷻ فهذا إشراكٌ وليس ذنباً، فلا تناقض بين الآيتين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾؛ لأنّه لا تستقيم الأمور أنّ يغفر الله تبارك وتعالى لمن لا يؤمن به، فهو يغفر لمن يؤمن به ويرتكب الذّنوب ومن ثمّ يتوب، والله ﷻ يغفر لمن يشاء كما جاءت هذه الآية، وقد فتح ﷻ باب التّوبة.

الآية (١١٧): ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧ ﴾

﴿ إِن يَدۡعُونَ ﴾: إن هنا ليست أداة شرط، بل بمعنى (ما)، أي ما يدعون من دونه إلّا إناثاً؛ لأنّهم كانوا يقولون عن الملائكة هم بنات الله جلّ وعلا، ويعبدونهم من دونه ﷻ.

﴿ وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾: الحقيقة ما يدعون إلّا شيطاناً مريداً، كلمة المريد أي ملمسه أملس؛ فهو يتهرّب من كلّ أمرٍ من الأمور، المريد: الأملس الّذي لا تستطيع أن تحصل عليه ولا أن تمسك به، ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢ ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٢]، إذاً هو فقط يعد النّاس وعداً، وهذا الوعد مريدٌ؛ لأنّه لا يُمسَك من مكان.

الآية (١١٨): ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨ ﴾

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ ﴾: أي طرده الله ﷻ من رحمته؛ لأنّه ردّ الحُكم على الله ﷻ، الفارق بين معصية آدم عليه السلام وما بين معصية إبليس بأنّ إبليس كان من الجنّ وفسق عن أمر ربّه، فقد كان موجوداً في جمع الملائكة ولكنّه خرج عن أمر الله ﷻ، عندما أمرهم ﷻ بالسّجود لآدم عليه السلام فسجدوا إلّا هو أبى واستكبر

وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: من الآية ٦١]، ردّ الحُكم على الله ﷻ واستكبر عليه وأشرك به وكفر فلعنه الله ﷻ وطرده من رحمته، أمّا آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: من الآية ١٢١، والآية ١٢٢]، سيّدنا آدم عليه السلام عصى الله ﷻ لكنّه تاب واعترف بذنبه.

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾: نصيباً؛ أي قسماً مفروضاً، أي مقسومٌ لي هذا النّصيب، جرى هذا عندما هبط إبليس بأمر الله ﷻ إلى الدّنيا وقال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: من الآية ١٤]؛ أي أمهلني، و: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: الآية ٨٢]، أقسم بعزّة الله تبارك وتعالى أي باستغناء الله ﷻ عن عبادة خلقه، فلعنه الله ﷻ.

الآية (١١٩): ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: الطّريق الّذي سأسير فيه هو عمليّة الإضلال، وهو إبعاد النّاس عن الطّريق والصّراط المستقيم، وعن الوسيلة التي توصل إلى الغاية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام.

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: أي أعدهم بالأماني، فالإنسان عندما يعيش في الأماني التي لا تتحقّق، تكون من صنع وسوسة الشّيطان.

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الأنعام؛ أي الإبل والبقر والغنم، يبتّكون؛ أي يقطّعون آذان الإبل والبقر والغنم، كناية عن الأنعام التي كانت تُنذر لتُذبح عند الأصنام، فالأنعام التي تكون مقصوصةً أذنها تُعرَفُ أنّها نَذْرٌ للصّنم، فإبليس -لعنه الله- عمله الإضلال والأمانيّ، وجعل النّاس تعمل النّذور للأصنام التي تُعبد من دون الله ﷻ.

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾: تغيير خلق الله ﷻ، تغيير فطرة الله ﷻ التي

فطر النّاس عليها، كالذّكر يتحوّل إلى أنثى، أو الأنثى تتحوّل إلى ذكر، عندما يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزّمر: الآية ٦٢]، هو يخلق من عدم، أمّا أنت فتقول بأنّك صنعت آلة أو.... هذه الصّنيعة لا بدّ لها من مقدّماتٍ حتّى تستطيعَ أن تصنعها، ولا يمكنك القول: بأنّك خلقت النّظارة، فهل استطعت إيجادها من العدم بقول: كوني نظّارة فكانت؟! لا، وإنّما كان لا بدّ من أن تأتي بالحديد والزّجاج، أن تأتي بمقدّماتٍ تعمل عليها لتصل إلى النّتائج، وهذا لا يسمّى خلقاً، فالخلق هو إيجادٌ من عدم، وهذا لا يقدر عليه إلّا الله ﷻ.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾: لماذا؟ لأنّ الشّيطان سيقول يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: من الآية ٢٢]، فمن يتّخذ الشّيطان وليّاً من دون الله ﷻ فقد خسر خسراناً مبيناً، وسيطرده الله ﷻ من رحمته، وسيكون له جهنّم وبئس المصير.

الآية (١٢٠): ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾

﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾: يعدهم ويُخلف وعده، لذلك على الإنسان دائماً أن يتّبع الطّريق الّذي هداه الله ﷻ إليه في القرآن الكريم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: الآية ٢٠٠]، حتّى لو كنت في الصّلاة وأنت تقرأ وجالت بك الأمور خارج الصّلاة وإلى هموم الدّنيا فقل: أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم ثمّ تابع القراءة، لتقول للشّيطان: بأنّك منتبهٌ وأنّه لن يستطيع أن يمنّيك وأن يعدك وأن يوسوس لك.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾: الغرور: أنّ يغترّ الإنسانُ ويتوهّمَ الأمور، وهي في النّتيجة لا تكون على ما تصوّره ذهنه، فالشّيطان لا يعد الإنسان إلّا غروراً، وفي حقيقة الأمر سيقوده إلى الخسران المبين.

الآية (١٢١): ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

من يتّبع الشّيطان وسبيل الشّيطان فمأواه المكان الّذي سيأوي إليه الشّيطان، جهنّم وبئس المصير، ولن يستطيع عنها محيصاً، والله ﷻ عندما يتحدّث عن جهنّم يتحدّث مباشرةً عن الجنّة حتّى يكون الإنسان بين الترغيب والتّرهيب، بين الرّحمة والعقاب، وهذا أمرٌ سلوكيٌّ، فلا يمكن أن تتّكل على رحمة الله ﷻ وأنت تعصيه:

تعصي الإلهَ وأنتَ تظهرُ حبّهُ
هذا لعمري في القياسِ بَديعُ
لو كَان حُبّك صَادقاً لأطعْتَهُ
إنَّ المحبَّ لمنْ يحبُّ مُطِيعُ

الآية (١٢٢): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

الإيمان من دون عملٍ لا يكفي؛ لأنّ الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل، وهو العمل الصّالح، الّذي فيه خيرٌ للنّاس وللبشريّة جمعاء، فإذا أمل الناس في خيرنا وأمنوا من شرورنا عندها نكون نعمل صالحاً.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾: الصّدق هو مطابقة الكلام للواقع، وليس أصدق من الله ﷻ قيلاً، فهو الخالق والرّازق والمحيي والمميت، هذا وعد الله ﷻ للنّاس.

والجنّة هي أمرٌ غيبيٌّ، وصفها رسول الله ﷺ بقوله: «قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ»[1]، وعندما يصف الله ﷻ لنا الجنّة يسبقها بكلمة: (مثل): ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَعُقْبَى

(١) صحيح البخاريّ: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنّة وأنّها مخلوقة، الحديث رقم (٣٠٧٢).

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرّعد: الآية ٣٥]؛ لأنّ الحديث عن غيبٍ يقرّبه ﷻ إلى أذهاننا، فمثلاً الجنّة فيها خمرٌ، ولكن ليس هو كالخمر المعروف في الدّنيا.

فيما يتعلّق بالأمور الغيبيّة فمن أصدق من الله ﷻ قيلاً؟ طالما أنّك آمنت بالله ﷻ عقليّاً -وعندما أردت الإيمان فأنت حرٌّ تؤمن أو لا تؤمن- فيجب أن تؤمن بما أخبر ﷻ، وأن تؤمن أوّلاً بربّ القرآن، وأنّ القرآن من عند الله ﷻ، وأن سيّدنا محمّد ﷺ هو رسولٌ من عند الله ﷻ، وأنّ سيّدنا المسيح عليه السلام هو رسولٌ من عند الله ﷻ، وأن سيّدنا موسى عليه السلام رسولٌ من عند الله ﷻ، وسيّدنا آدم وإبراهيم والأنبياء جميعاً عليهم السلام. ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥]، لم يقولوا: سمعنا وعصينا، اليهود هم من قال ذلك، نحن بعد الإيمان نقول: سمعنا وأطعنا، فالإيمان بما أخبر الله ﷻ به من المغيّبات جزءٌ لا يتجزّأ من الإيمان بالله ﷻ، فالإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلّه غيبيّ.

الآية (١٢٣): ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

القضيّة ليست بأمانينا ولا بأمانيّ أهل الكتاب؛ أي ليس بأمانيّ كلّ الأديان، ليست القضيّة أمانيّ، مثلاً أنا أتمنّى أن يكون مصيري إلى الجنّة، لا، فالقضيّة واحدةٌ، ﴿مَن يَعْمَلْ﴾ القصّة فيها عملٌ، وبالإيمان لا يوجد أمانيّ لا منّا ولا من أهل الكتاب ولا من كلّ الأديان.

المعادلة الأساسيّة التي جاءت بها كلّ الأديان السّماويّة على الإطلاق بيّنها الله ﷻ هنا بشكلٍ لا يقبل اللّبس أبداً: من يعمل سوءاً سيكون جزاؤه على السّوء، فالقضيّة هي ما بين أن تعمل صالحاً أو سيّئاً، هذه دعوة الأديان، فكيف تقول: إنّ دين الإسلام أو أيّ دينٍ من الأديان يدعو إلى الكراهية أو إلغاء الآخر أو القتل أو التّطرّف والتّشدّد؟!

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾: من يعمل السّوء كائناً من كَان، لا بأمانينا ولا بأمانيّ أهل الكتاب.

الآية (١٢٤): ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾: لا يوجد تفرقة في الدّين بين الذّكر والأنثى، هناك تكاملٌ بين الرّجل والمرأة، والحقوق التي أعطاها الإسلام للمرأة لم تعط في كلّ الشّرائع لا الوضعيّة ولا الإنسانيّة ولا السّماويّة منذ أن نزل آدم وحواء إلى هذه اللّحظة.

﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾: يجب أن يعمل الصّالحات وهو مؤمنٌ، وليس مشركاً؛ لأنّه ردّ الحكم على الله ﷻ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾: هذه هي المعادلة الإيمانيّة، معادلة أهل الإيمان جميعاً، وهي قول الله ﷻ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾.

والنّقرة: هي الشّيء الصّغير جدّاً.

الآية (١٢٥): ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾

الدّين الّذي يدين به الإنسان لله ﷻ هو أن يستسلم له ﷻ فيما أمر وفيما نهى، وأن يلتزم بأوامره ﷻ، وإسلام الوجه لله ﷻ هو أن يجعل الإنسان من نفسه سالمةً لله ﷻ، لا تعرف لها ربّاً ولا معبوداً سواه.

﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فلا يكفي الصّلاة والصّيام والقيام وأداء العبادات من دون أن تؤشّر إلى ذلك بالإحسان، والإحسان هو أن تعبد الله ﷻ كأنّك تراه فإن لم تكن

تـراه فإنّـه يـراك، والإحسـان يكـون في كلّ شيءٍ، الإحسـان في خلـق الله ﷻ وقبـل كلّ شيء: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النّسـاء: مـن الآيـة ٣٦]، للوالديـن والأقربـين والأرحـام والجـيران والمجتمـع والنّـاس والإنـس والطّـير والحيـوان والنّبـات.. ولـكلّ خلـق الله ﷻ، فذلـك هـو ديـن الإسـلام، هـو ديـن الإحسـان، فهو يدعـو إلى الإحسـان في كلّ شيءٍ: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصّلت: الآيـة ٢٣-٢٥].

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾: الحنيـف: هـو المائـل عـن الـشّرك؛ فالأمـور كلّهـا في زمـن سـيّدنا إبراهيـم عليه السلام كانـت إشراكاً بـالله ﷻ وعبـادةً للأصنـام والأوثـان.

﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: جـاء الأنبيـاء مـن لـدن إبراهيـم عليه السلام، إسـحق وإسـماعيل، ومـن إسـحاق جـاء يعقوب، ومـن يعقوب جاء الأسـباط ويوسـف وبعدها الأنبياء موسـى وعيسـى وداود وسـليمان وزكريّـا ويحيـى ٤، وإسـماعيل أتـى منـه النّبـيّ ﷺ، فجـدّ الأنبيـاء إبراهيم عليه السلام.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾: أعطـى الله ﷻ الخلّـة لإبراهيـم عليه السلام، لذلـك نطلـق عليـه (إبراهيـم الخليـل)، والسّـبب في ذلـك كثـرة الابتلاءات التـي تعرّض لها سـيّدنا إبراهيـم الخليـل، فـأوّل هـذه الابتـلاءات كـما ورد في سـورة (البقـرة): ﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقـرة: الآيـة ١٢٤]، تعـرّض للابتـلاء عندمـا ألقـاه النّمـرود بالمنجنيـق في النّـيران، وعندمـا جـاءه جبريـل عليه السلام قـال: ألـك حاجـة يا إبراهيـم، قـال: أمّـا لك فـلا، وأمّـا لـربّي فعلمه بحـالي يكفي عن سـؤالي، فهذا اليقـين والإيمان العميـق من أبي الأنبيـاء إبراهيم الخليـل عليه السلام جعله يتبوّأ هـذه المكانة، خليل الرّحمـن، وكذلك الابتلاء بـما يتعلّـق بالسّـيّدة هاجـر عندمـا قـال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٖ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم

﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: الآية ٣٧]، حيث أمره الله ﷻ بتركها والرّضيع إسماعيل بوادٍ غير ذي زرع، لا نبات فيه ولا حيوان ولا وحش ولا طير في ذلك الوقت، فامتثل لأمر الله ﷻ، وقالت هاجر: لن يضيّعنا الله، وبعد ذلك عندما أُبتلي بابنه إسماعيل الذّبيح: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصّافّات: الآية ١٠٢]، أسلما: أي انقادا واستسلما، من هذه الابتلاءات المتعدّدة أصبح إبراهيم عليه السلام خليلاً للرّحمن.

الآية (١٢٦): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: يبيّن الله ﷻ أنّ ملكيّة ما في السّماوات وما في الأرض لله ﷻ وحده، وهو المتصرّف بملكه ﷻ، فيطمئن بذلك خلقه؛ لأنّه المتصرّف بخلقه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾: بكلّ شيءٍ، أيّ شيءٍ الله ﷻ لديه الإحاطة به بعلمه وقدرته، لذلك نتّكل على علم الله جلّ وعلا وقدرته.

الآية (١٢٧): ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾

هناك جملتان تردان في كتاب الله ﷻ:

الأولى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾.

والثّانية: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾.

ما هو الفارق بينهما؟

يسألونك عن حكمٍ لم ينزل به شرعٌ من الله ﷻ، كقوله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٢]، فيأتي الجواب: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٢]، ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٩].

أمّا ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ فهو السّؤال عن حكمٍ قد نزل وهو موجودٌ، ولكنّهم يريدون أن يستوضحوا عن هذا الحكم، ويعلموا عنه بالتّفصيل، فالفارق بين يسأل ويستفتي أنّ السّؤال هو عن أمرٍ لم يرد، أمّا الاستفتاء أو الفُتيا تكون في بيانٍ لحكمٍ نازلٍ، لذلك عندما يقال: بأنَّ أحدهم أفتى بأمرٍ، يكون قد بيّن حكم الله ﷻ في قضيّةٍ ما، والحكم موجودٌ مُسبقاً.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾: يسألون عن موضوع النّساء بشكلٍ عامٍّ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾: يبيّن ويوضّح لكم ويرشدكم فيهنّ.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: في بداية سورة (النّساء) كان السّؤال عن النّساء، عن الميراث والزّواج والحلال والحرام، ومن المعلوم أنّه عندما جاء الإسلام، كانت المرأة متاعاً في كلّ أصقاع العالم، وزينةً وأداةً، وكانوا يئدون البنات، والمرأة لا حقوق لديها، فأعطى الإسلام المرأة حقوقها. وفي هذه الآيات سؤال فتيةٍ عن النّساء فأجاب الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ ما جاءكم في الكتاب أي في أوّل سورة (النّساء) في يتامى النّساء، لماذا في يتامى النّساء؟

جاء الله ﷻ بالعنصر الضّعيف، ضعف اليتم: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النّساء: الآية ٣]، حتّى موضوع التّعدّد الّذي ورد في بداية سورة

(النّساء) بدأ بموضوع اليتامى؛ لأنّ المحافظة على حقوق اليتيمات هو أولويّةٌ، فاليتم فيه طمعٌ وضعفٌ؛ لأنّ اليتيمة قد فقدت السّند المعيل والمعين ألا وهو الأب؛ ولأنّ من يريد أن يتزوّج هذه اليتيمة قد يكون هو الوليّ، فقد كان الوليّ في الجاهليّة إمّا أن يتزوّج البنت ويأخذ أموالها أو يزوّجها ويمنعها من المال، فجاء الإسلام ليصّحح ويعطي المرأة حقوقها، فأوّل حقٍّ لفت النّظر إلى حقوق اليتيمات، في قوله ﷻ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي تأخذوا الميراث؛ لأنّ اليتيمة لها وصيٌّ أو وليٌّ يأخذ المال، أو يتزوّجها من أجل أن يأخذ مالها.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: ضعف اليتم، فبالنّسبة للأطفال هناك أوصياء يحاولون أن يستغلّوا هذه الوصاية والولاية من أجل أموالهم، فضعف اليتم وضعف البنت في ذلك الوقت، ومحاولة الحصول على ميراثها والزّواج منها من أجل أكل مالها بالباطل، هذا ما نهى عنه الإسلام وبيّنه في بداية سورة (النّساء).

﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾: أي بالعدل، فيجب على المجتمع أن يكون قائماً على العدل لليتامى، يقول النّبيّ ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»، وأشار بالسّبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً[1]، وكان عليه الصّلاة والسّلام يمسح على رأس اليتيم ويعدّ المسح على رأسه سبباً لدخول الجنّة. فتطبيق النّاس للعدل مع اليتامى، يكون بالمحافظة على أموالهم وحقوقهم، ومنع الاعتداء عليهم، ومنع الزّواج من اليتيمات من أجل الاعتداء على أموالهنّ.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾: يكفي أنّ فعل الخير يعلمه ﷻ، فلا تجعل فعل الخير من أجل الثّناء والمديح من قِبل البشر، وإنّما يجب عليك أن تضع في نفسك وعقلك وقلبك ربّ البشر، وكفى بالله ﷻ عليماً، وألّا تلتفت إلى غيره إن كنت تسير على طريق الخير، وقلنا: إنّ دعوة الدّين ودعوة الإسلام هي دعوةٌ للخير، مع أنّ بعض النّاس في هذا العصر يحاولون أن يلبسوا الدّين مالم يقله

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الطّلاق، باب اللّعان، الحديث رقم (٤٩٩٨).

الله ﷻ ولا رسوله ولا الأديان جميعها، فالأديان جاءت رحمةً للعالمين، ومن أجل خير الإنسان.

ويجب على الإنسان أن يجعل نيّته خالصةً لله ﷻ.

وليقل كلّ إنسانٍ ما يشاء، فالمهمّ أن تكون القناعة أنّ الإنسان يفعل الخير للغير، وهو مصدرٌ للخير في المجتمع، وبعد ذلك فلتكن النيّة أن تأخذ الأجر من الله ﷻ:

إذا نَطَقَ السّفيْهُ فَلا تُجِبْه فخيرٌ مِنْ إجَابَتِهِ السّكُوتُ

فلا تلتفت لمن يقول أو من يدّعي أو من يمدح... وإنّما التفت إلى فعل الخير، وإلى الجزاء ممّن كان هو به عليماً.

الآية (١٢٨): ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾

يعالج القرآن الكريم الآن دخائل النّفس والعلاقة الزّوجيّة بين الزّوج والزّوجة، والإسلام وضع عنواناً للزّواج هو من أرقى العناوين التي لا يعرفها الغرب المتبجّح الّذي يتحدّث عن حقوق الإنسان، وأولئك الذين يحاولون أن يتهجّموا على الدّين بحجّة أنّ الدّين هو التّخلّف والإرهاب ومصدر التّطرّف وكلّ الشّرور حسب زعمهم، والحقيقة تختلف تماماً، الإسلام مصدر الخير والأديان جاءت من أجل مصلحة الإنسان، وهنا يضع ضوابط للعلاقة الزّوجيّة بين المرأة والرّجل: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الرّوم: الآية ٢١]، جعل المودّة في بداية الزّواج وهي الحبّ ووداد القلب، وبعد مرور عدّة سنواتٍ على الزّواج عندما تكبر المرأة وتحمل وتلد وتُرضع وتعمل وتفني نفسها في سبيل زوجها وأولادها، فالرّحمة يجب أن تكون عنواناً للعلاقة الزّوجيّة، والرّحمة هي منطلق كلّ خيرٍ بين الرّجل والمرأة، أن تكون المرأة رحيمةً بزوجها والزّوج رحيماً بزوجته، لذلك وضع

الإسلام عدّة قواعد للعلاقة بين الرّجل والمرأة ومنها هذه القاعدة: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾، والنّشوز: هو الخروج عن الأمر المألوف، النّفور؛ أي نفور الرّجل من المرأة، ﴿أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾: أعرض عنها، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ﴾: بداية للتّفرقة أو الطّلاق أو لنشوز الرّجل عن المرأة أو لإعراض الرّجل عن المرأة أهمّ شيءٍ هو الصّلح.

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾: دائماً الإسلام يدعو إلى الإصلاح، وإلى إصلاح ذات البين، قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصّيام والصّلاة والصّدقة؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة»[1]، أوّل الإصلاح يكون بين الرّجل وزوجته ووضع الحلول المناسبة لمشكلات الحياة التي تعترض العلاقة الزّوجيّة، فلذلك قال المولى ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾، إنَّ الأنفس بطبيعتها فيها شحٌّ؛ أي بخلٌ، فتكون المرأة حريصةً على المهر وعلى المال، ويكون الرّجل حريصاً على النّفقةِ، فكلّ ما يتعلّق بالأمور المادّية التي هي بطبيعة النّفوس فيها شحٌّ، يجب أن تُبعد وألّا تحضر في مجال الصّلح، فالصّلح خيرٌ.

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: والنّتيجة هي ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ لا يوجد تقوى من دون إحسان، الإحسان في كلّ شيءٍ، كتب الله ﷻ على نفسه الرّحمة، وجعل العلاقة علاقة إحسانٍ، فمن الطّبيعيّ أن تكون العلاقة الزّوجيّة هي إحسانٌ من الرّجل لزوجته، ومن الزّوجة لزوجها.

يروى أنّ رجلاً صالحاً من كبار العلماء، كانت له زوجةٌ سيّئة الخلق، وقد كان يحاول دائماً أن يحسّن من خُلُقها، فطلب منها مرّةً الحضور لمجلس الدّرس الّذي يعطيه في المسجد لترى النّاس كيف ينصتون ويستمعون له ويتلقّون مواعظه ودروسه فتحترمه، وبعد أن حضرت وسمعت وعادت إلى البيت، سألها كيف رأيت؟ فأجابت لقد رأيت النّاس جميعاً في هدوءٍ وسكينةٍ ووقارٍ، وأنت الوحيد

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، الحديث رقم (٤٩١٩).

كالمجانين تشطّ وتنطّ...إلخ، فقال: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، وصبر عليها، وكان عطاؤه كبيراً، وبعد فترةٍ من الزّمن تردّت دروس هذا الشّيخ وأصبحت أقلّ أهميّة، فسأله النّاس ما لك؟ -وكانت قد ماتت زوجته- فأجاب ماتت من كان ربّي يكرمني من أجلها، فلقد كانت نظرته إلى الأمر بأنّ الله ﷻ كان يكرمه بصبره على زوجةٍ سيّئة الخُلُق معه. وكذلك الأمر إذا صبرت المرأة على زوجها، ولا بدّ من اعتراكٍ في مجال الحياة، والزّواج هو عقدٌ بين رجلٍ وامرأةٍ، وهو شراكة عمرٍ وشراكة حياةٍ، وتربية أولادٍ، همومٌ وآمالٌ وأحلامٌ ومستقبلٌ، فلا بدّ بطبيعة الحياةِ أن تحدث خلافاتٌ، لذلك الصّلح خيرٌ، وألّا يحضر الشّحّ والبخل في العلاقة بين الرّجل والمرأة، وألّا يكون للعلاقة الماديّة أثرٌ، وإنّما لعلاقة السّكن والمودّة والرّحمة والألفة والمحبّة، ويجب على الإنسان أن يبني العلاقة الزّوجيّة على الاحترام والمحبّة المتبادلة والودّ والسّكن الّذي تحدّثت عنه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرّوم: من الآية ٢١].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: يكفي أنّ الله ﷻ خبيرٌ بما تعملون.

الآية (١٢٩): ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾

كانت الآيات في بداية سورة (النّساء): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النّساء: الآية ٣]، وقد فسّرت هذه الآيات بأنّه يجب علينا ألّا نأخذ إباحةً وندع إلزاماً في الدّين، فمعظم المشكلات التي نقع فيها في تعاملنا مع ديننا بأنّنا نأخذ إباحةً وندع إلزاماً، فالله ﷻ أباح لك الميراث لكنّه ألزمك بالمساواة والوصاية وغيرها...، وموضوع التّعدّد جاء ضمن حلٍّ لمشكلةٍ كانت قائمةً، وكان التّعدّد كبيراً وتحدّثنا عنه، وهنا يقول ﷻ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ﴾ وهذا العدل هو الميل القلبيّ والدّليل على ذلك تتمّة الآية: ﴿فَلَا

﴿تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ تميلوا ميل قلبٍ، كما كان يقول ﷺ: «اللّهمّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[1].

بالنّسبة للتّعدّد، المطلوب هو العدل، ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ أي أن يميل الإنسان كلّ الميل باتّجاه زوجةٍ ويترك الأخرى وهي معلّقةٌ من غير أن يطلّقها.

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: نلاحظ التّأكيد وتكرار كلمتين اثنتين وهما تصلحوا وتتّقوا، الإصلاح والتّقوى، التّقوى جماع كلّ خيرٍ، والإصلاح هو رأب ما فسد وإعادة الأمور إلى نصابها ومجراها، فإذاً لا يطلب الدّين من الإنسان العنف وإنّما يطلب منه اللّطف.

الآية (١٣٠): ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾: هنا ترك المجال، فعندما تسدّ كلّ النّوافذ والأبواب ولا يمكن الإصلاح فيكون عندها التّسريح بإحسانٍ وهو الطّلاق، وهو أبغض الحلال عند الله ﷻ.

﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ﴾: وسعة الله ﷻ تسع النّاس جميعاً، فقد يتزوّج الرّجل بامرأةٍ أخرى، أو هي تتزوّج بزوجٍ غيره، وكذلك بالنّسبة لحالة الرّزق والعطاء الإلهيّ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾: يوسّع للنّاس ولا يضيّق، فلا تضيّقوا واسعاً، فالدّين دين رحمةٍ ودين سعةٍ يسع الخلق جميعاً.

(١) سنن أبي داود: كتاب النّكاح، باب في القسم بين النّساء، الحديث رقم (٢١٣٤).

الآيـة (١٣١): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيّٗا حَمِيدٗا ١٣١﴾

يكـرّر المـولى ﷻ بأنّك أيّها الإنسـان يجب أن تكـون مطمئنّاً بـأنّ لله ﷻ وحده ما في السّـماوات والأرض ومـا بينهما، وهو المتـصرّف الوحيد في ملكه.

الآية (١٣٢): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

نلاحـظ ملحظـاً مهـمّاً أنّـه في هـذه الآيـة والتـي سـبقتها ذُكِـرَ الأمـر ثلاث مـرّات، والقـرآن الكريـم لا يكـرّر إلّا للتّرسـيخ في الأذهـان، لأسرارٍ متعـدّدةٍ ومعـانٍ متعدّدةٍ وتذييـل الآيـات يبـيّن هـذه المعـاني، وللمـرّة الثّالثـة يطمئـن الله ﷻ الإنسـان أنّه ﷻ يضمـن ويحفظ مقوّمات الحيـاة عندما يقول لـك: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلـن تتمـرّد الشّـمس عـلى أن تـشرق، ولـن يتمـرّد الهواء عـلى أن يهـبّ، ولا المـاء على أن ينـزل، ولـن تتمـرّد الأرض عـلى أن تنبـت الـزّرع، ولـن تتمـرّد كلّ مقوّمـات حياة الإنسـان عـن أوامـر الله ﷻ، ولـه ﷻ مـا في السّـماوات ومـا في الأرض.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: إنَّ الله ﷻ خلـق الإنسـان وتـوكّل بـكلّ مقوّمـات حياتـه -فاطمئـن أيّهـا الإنسـان- وهـو ﷻ قيّـومٌ على خلقـه، ووكيلٌ للإنسـان الّـذي يتوكّل عليـه، فقـد أمـدّه وأعطـاه مـن قبـل أن يولد.

الآيـة (١٣٣): ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾: فـالله ﷻ رحيـمٌ بالنّـاس وبضعفهـم، وهـو الخالـق، العليـم بخلقـه، وهـو اللّطيـف بهـم، فـلا تضيّقوا واسـعاً فرحمتـه ﷻ وسـعت كلّ شيءٍ، ولو شـاء لأذهَبَنـا وأتى بآخرين، لكنّـه ﷻ يريد ويحبّ مـن العبـد أن يكـون توّابـاً، كلّـما أذنـب عـاد وتاب واسـتغفر مـن ذنبه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾: أي أنّ الإنسان عندما خلقه الله ﷻ لم يتركه كما يقول بعضهم، فنم لأنّه لا ينام، واسترح فإنّه ﷻ هو الوكيل طالما أخذت بأوامره ﷻ.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ في صلاةٍ وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصّلاة: «اللّهمّ ارحمني ومحمّداً ولا ترحم معنا أحداً»، فلمّا سلّم النّبيّ ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجّرت واسعاً»[1]، يريد رحمة الله ﷻ، فرحمته ﷻ هي لكلّ خلقه، وله مئة رحمةٍ أنزل منها رحمةً واحدةً بها يتراحم الخلق جميعاً، والطّيور والبهائم والحيوانات، وادّخر الله ﷻ تسعاً وتسعين رحمةً للآخرة.

الآية (١٣٤): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

الثّواب: هو الجزاء على العمل، والله ﷻ يقول لك: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾.

ثواب الدنيا: ما يعطيه ﷻ للإنسان من صحّةٍ ومالٍ وعطاءٍ ورزقٍ.

ثواب الآخرة: رضوان الله ﷻ وجنّات النّعيم.

فمن كان يريد ثواب الدّنيا فليعمل عملاً صالحاً، فالله ﷻ خلق أشياء تنفعل لك، وأشياء تنفعل بك، فمن الأشياء التي تنفعل لك: الشّمس والقمر والهواء واللّيل والنّهار والأرض والغيوم والمطر والحيوانات والنّبات وغيرها.. هذه الأشياء جعلها الله ﷻ تنفعل لك أيّها الإنسان، وهي للمؤمن ولغير المؤمن، فلا يمكن للشّمس أن تطلع على المؤمنين وتقول: سأحجب نوري وضوئي عن الكافرين، والهواء لا يمكن أن يتنفس منه المؤمن ويحجبه الله ﷻ عن غير المؤمن، والماء لا ينزل للمؤمن ويترك الكافر، والأرض لا تنبت للمؤمن وتترك الكافر.. فإذاً هناك أشياء تنفعل لك بإرادة الله ﷻ، وهناك أشياء أخرى تنفعل بحركتك، وهذا هو مناط التّقدّم والنّهضة والحضارة والعطاء، فصحيحٌ أنّ الله ﷻ خلق

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، الحديث رقم (٥٦٦٤).

الشّمس وهي تعطيك الضّوء والدّفء، لكن إذا تحرّكت، إذا درست، وإذا تعلّمت الفيزياء وتخصّصت، وبُنِيَت المعامل فيمكنك استخدامها كمصدرٍ لتوليد الطّاقة الكهربائيّة، إذاً هناك أشياء تنفعل بحركتك وأشياء تنفعل لك خلقها الله ﷻ، وطلب من الإنسان أن يأخذ بالأسباب في هذه الحياة الدّنيا، فمن يأخذ بالأشياء التي تنفعل له ويتحرّك معها يعطيه المولى ﷻ بغضّ النّظر إن كان مؤمناً أم غير مؤمنٍ. مثلاً: تقول لماذا الدّول الغربيّة هي الدّول المتقدّمة وهم لا يؤمنون وهم...، لماذا تنفعل لهم الأشياء التي خلقها الله ﷻ؟ تنفعل لهم من جرّاء حركتهم، فهذا من ثواب الدّنيا.

فهل يمكن للأرض أن تثمر من دون أن تُزرَع؟! فالإنسان الّذي يزرع -بغضّ النّظر عن إيمانه أو عدم إيمانه- يحصد، ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ لماذا اختار طريقاً واحداً؟ فليأخذ ثواب الدّنيا والآخرة معاً، وليعمل عملاً صالحاً، فالله ﷻ يقول لك: الأفضل أن تأخذ ثواب الدّنيا والآخرة، انفعل بحركتك للأشياء التي خلقتها من أجلك فتأخذ ثواب الدّنيا، والتزم بأوامر ربّك ﷻ وأحسن مع خلقه تأخذ ثواب الآخرة، فمن كان يريد ثواب الدّنيا فليعلم أنّ الله ﷻ عنده ثواب الدّنيا والآخرة، ولا يقل: بأنّ الجنّة هي للفقراء فقط، فالله ﷻ يقول لك: اسعَ واعمل تحصل على الرّزق والتّقدّم والحضارة، انفع النّاس، انفعل مع المخلوقات التي خلقتها من أجلك، تعلّم العلم، ابنِ المصانع، تطوّر علميّاً وتقنيّاً وحضاريّاً تأخذ ثواب الدّنيا، وثواب الآخرة إذا التزمت بأوامر ربّك مع أخذك لأسبابه في خلقه.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾: لماذا قال هنا: ﴿ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ وليس غفوراً رحيماً؟ لأنّ الأمر يتعلّق بالعمل المناط بالإنسان، والجهد الّذي يبذله، فاطمئنّ أنّ الله ﷻ يسمع ويرى، وهو بصيرٌ يرى كلّ جارحةٍ من جوارح الإنسان وما تقوم به من عمل.

الآيـة (١٣٥): ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾

ديـن الإسـلام ديـنٌ قائمٌ على العـدلِ، والقيـامُ بالعدل هو أسـاس الإيـمان؛ لأنّه من العـدل أن تؤمـن بـالله ﷻ أوّلاً، وقـد أمر ﷻ بالعـدل، يقول جلّ وعـلا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ٥٨﴾ [النّساء: الآية ٥٨]، فـكلّ خصومـةٍ وكلّ ضيـاعِ حقوقٍ يجب أن يكـون العـدل هـو السّـائد فيها حتّـى لا تضيع الحقـوق، وحتّـى يحصلَ كلُّ إنسـانٍ عـلى حقّـه ويقـومَ بواجبه على خـيرٍ وأتـمّ وجهٍ.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يا مـن آمنتـم بي، كونـوا قوّامـين بالقسـط، ولم يقـل: قائمـين بالقسـط، ما الفـرق بـين قـوّام وقائـم؟

قائـمٌ بالقسـط أي مرّةً واحدةً يقوم بالقسـط أي بالعـدل، أمّا القـوّام فصيغة مبالغة؛ أي أنّ الإنسـان المؤمـن يجـب أن يكـون قائـماً على العـدل باسـتمرار، لذلك قـال: قوّامٌ عـلى العـدل باسـتمرار، بكلّ شـأنٍ من شـؤونه، وفي كلّ أمرٍ مـن أموره.

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾: أي الإنسـان عندمـا يشـهد أمـام الله ﷻ عـلى نفسـه بأنّه هـو الّذي ارتكـب، أو شـهد عـلى أقـرب النّـاس إليـه: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ فيجـب أن تكـون الشّـهادة بالعـدل، ولا محاباة بالعـدل، ونبيّنـا: علّم ذلـك، وذكرنا قضيّـة المرأة المخزوميّـة حيث أقسـم النّبـيّ ﷺ: «والذي نفس محمّـدٍ بيده، لو أنّ فاطمـة بنت محمّد سرقـت لقطعـت يدهـا»[1]، ضرب المثـل بأقـرب إنسـانةٍ لـه عـلى وجه المعمـورة وهي السّـيّدة فاطمة رضي الله عنها.

﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾: يجـب أن يكـون الإنسـان قائـماً بالقسـط ولـو على نفسـه؛ لأنّ الشّـهادة هـي لله ﷻ، وعندما تشـهد على نفسـك

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المغازي، باب من شهد الفتح، الحديث رقم (٤٠٥٣).

فهـذا أوّل الاعـتراف بالذّنـب، وهـو أوّل طريق التّوبـة إلى الله ﷻ، وكذلـك لو كانت الشّـهادة عـلى الوالديـن أو الأقربـين، فالمهـمّ أن تشـهد بالحـقّ وبالقسـط أي العدلِ.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾: بالنّسـبة للغنيّ، يمكن أن تغيّر شهادتك أو تنحـاز عـن العـدل نتيجـةً لغنى الإنسـان المقابـل طمعاً بالمـال أو خوفاً من سـلطان أو... إلـخ، ولكـن لماذا قـال: ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾؟ حتّـى لا تأخذك رحمةٌ بـه، فالله ﷻ أرحم بالفقـير منـك، فيجب أن تكون عـادلاً، لا علاقة لقضيّـة الغنى والفقـر بقضيّة العدل، فالعـدل قضيّةُ حقوقٍ، ولا تسـتقيم حيـاة المجتمعات إلّا عندما تـؤدّى الحقوق ويكون العدل هو الأسـاس.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾: لأنّ عـدم العـدل هـو اتّبـاعٌ لهـوى، فإمّـا أن يكون هـذا الهـوى هـو الضّـلال، أو هـو طمـعٌ في مـالٍ أو رشـوةٍ، أو هـو خـوفٌ مـن ذي سـلطان.. وأيّـاً كان مـن هـذه الأمـور فـلا تتبعـوا الهـوى أن تعدلـوا.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: تلـووا: أي إن تحرّفوا الشّـهادة أو تعرضـوا عنهـا، ممّـا يؤدّي لعـدم تحقيقِ العـدل فقد كتمتـم الحقّ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾: الله ﷻ خبـيرٌ إن كنـت شـهدت عـلى نفسـك أو عـلى أقـرب النّـاس إليـك، أو اتّخـذت الغنـى أو الفقـر سـبباً، أو اتّبعـت الهـوى ولم تعـدل بـأن حرّفت الشّـهادة، أو أعرضـت عنها، فجـواب كلّ هـذا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، فيكفيـك أنّ الله ﷻ عليـمٌ، وخبـيرٌ بما فعلت في عـدم إحقاق العدلِ في المجتمعـات واتّخـاذ شـهادة الـزّور أو الكـذب أو غيره.

في إحـدى الرّوايـات عـن أحـد القضـاة أنّـه كان لديه قضيّـة مخاصمةٍ بـين خصمين وكان يحـبّ الرّطـب بشـكلٍ كبـيرٍ جـدّاً وخصوصـاً في أوّل أيّامـه فجاء أحدهمـا وقرع بـاب بيتـه قبـل يـومٍ من موعـد جلسـة المحاكمة وقـدّم له سـلّةً مـن الرّطـب، فرفضها وأغلـق البـاب في وجهـه مع أنّه يحبّها بشـكلٍ كبـيرٍ، وفي اليـوم التّالي كانـت المخاصمة في القضـاء، فجـاء ذلـك الرّجـل وخصمـه إلى القـاضي ووقفـا أمامه، فحكـم القاضي

بالحقّ، لكنّه عندما خرج من دار القضاء ذهب إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، والله ما استويا في نظري، لذلك أقدّم استقالتي من القضاء، فاستغرب الخليفة وسأله: عن ماذا تتحدّث يا قاضينا؟ فأجابه: يا أمير المؤمنين، ما استويا في نظري فأقدّم استقالتي، قال: حدّثني، قال هناك قضيّة خلافٍ بين شخصين جاء أحدهما إلى منزلي وقدّم لي الرّطب، ومع أنّني رفضتها، ولكن عندما وقفا في دار القضاء أمامي والله ما استويا، فقلبي مال مع أنّني حكمت بالعدل باتّجاه من جاءني بالرّطب، لذلك أقدّم استقالتي من القضاء، هذا هو العدل الّذي تتحدّث الآية عنه، هذا هو العدل الّذي أقامه النّبيّ ﷺ وقد تربّى سيّدنا أبو بكرٍ وعمر وعليّ وعثمان رضي الله عنهم على هذه المأدبة الإلهيّة من تحقيق العدل في الحكم بين المتخاصمين وإشاعته.

الآية (١٣٦): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾: هذا أوّل إشكالٍ تحدّث عنه المستشرقون في كثيرٍ من كتبهم لعدم معرفتهم بأسرار اللّغة العربيّة؛ ولأنّ المستشرق أو القارئ للقرآن يعتقد عندما يقرأ القرآن أنّه يقرأ كلاماً بشريّاً فيحدث الإشكال، أمّا عندما يُنسب القول للقائل وهو الله ﷻ فترى الأمر واضحاً، والله ﷻ لا حدود لكماله، ولا حدود لكلماته: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٩].

كيف يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾؟ وهو يخاطبهم بـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؟ مثلاً كقول: يا من تشرب اشرب، كيف؟ هذا في اللّغة البشريّة، أمّا هذا الكلام فكلامٌ إلهيٌّ، فما معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾؟ نأتي إلى آيةٍ أخرى يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: من الآية ١]، المتّقي الأوّل على وجه الأرض هو النّبيّ ﷺ، ثمّ يقول له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؟!

فعندما يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أي حافظوا على إيمانكم؛ لأنّ الإيمان ليس قضيّة كلمةٍ، فمن حوّل الإيمان من عقيدةٍ إلى كلمةٍ يحتاج أن يؤمن، ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [الحجرات: الآية ١٤].

وعندما يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي يا أيّها النّبيّ داوم على تقوى الله ﷻ، وقوله هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أي أنّ هذا الإيمان يجب ألّا يكون إيماناً قوليّاً، ويجب عدم تحويل العقيدة إلى كلامٍ.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي آمنوا حقّ الإيمان.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ مِن قَبۡلُۚ﴾: القرآن الكريم.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: أي التّوراة والإنجيل والزّبور وصُحف إبراهيم عليه السلام؛ لأنّنا نؤمن بكلّ الأنبياء والكتب، وهذه هي وحدة التّديّن.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: الإيمان بالله ﷻ إيمان غيب، والإيمان بالملائكة إيمان غيب، و الإيمان بالكتب أنّها من عند الله ﷻ غيب، فالكتاب بين أيدينا لكن لكونه من عند الله ﷻ فهذا غيب، ولكون إرسال الرّسول وتكليفه بالرّسالة هو غيبٌ بالنّسبة لنا، فالإيمان بالرّسل غيبٌ أيضاً، واليوم الآخر غيبٌ، وهو يوم الحساب، ومبتدأ الإيمان لا يمكن أبداً إلّا أن يكون مع منتهى الإيمان، فمبتدأ الإيمان هو الإيمان بالله ﷻ، ومنتهاه هو الإيمان باليوم الآخر؛ لأنّ نتيجة الإيمان بالله ﷻ وجود يومٍ آخر، ووجود حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ وجنّةٍ ونارٍ.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾: ضلّ ضلالاً بعيداً؛ لأنّه مع كلّ الآيات الكونيّة وكلّ الرّسل والأنبياء والكتب، والإشارات والدّلائل على وجود الله ﷻ، جحد بالإيمان بالله ﷻ، فإذاً هو ضلّ ضلالاً بعيداً.

الآيـة (١٣٧): ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ﴾

هـؤلاء هـم المنافقـون؛ لأنّهـم آمنـوا في أوّل الأمـر ثـمّ كفـروا بعـد ذلك، آمنـوا أي أظهـروا الإيـمان، ثـمّ كفـروا، وبعد ذلـك ازدادوا كفـراً؛ أي هـم قصدوا الفتنـة عندما قالـوا: آمنـوا في أوّل النّهـار واكفروا آخره، هـم أرادوا الفتنـة، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقـرة: مـن الآيـة ١٩١]، فلذلك هـؤلاء: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ ألم يكن الله ﷻ ليهديَهـم؟! نعـم لم يكـن الله ﷻ ليهديهـم؛ لأنّهـم آمنـوا ثـمّ كفـروا ثـمّ ادّعوا بأنّهـم آمنـوا ثـمّ كفروا، هـذا إيـمان القول وليـس إيـمان العقيدة.

الآية (١٣٨): ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

المنافـق يُظهِـر شـيئاً، ويبطـن غير الحقيقـة وغـير ما يظهر أمـام النّاس، ولـه اتّجاهان ووجهـان، وهـو أشـدّ إيذاءً وإيلامـاً في المجتمع من العـدوّ الظّاهر؛ لأنّ العـدوّ الظّاهر تـرى عداوتـه، أمّـا المنافـق فإنّـه ذو وجهين، لذلـكَ فهو حـريٌّ عنـد الله ﷻ ألّا يكون وجيهاً.

وقـد أفـرد القرآن الكريـم الكثير مـن الآيات حـول داءٍ عضالٍ يصيـب المجتمعات وهـو النّفـاق، فهـو خطـرٌ كامنٌ داخـل المجتمعات الإنسـانيّة، التـي إمّا أن يكـون فيها عـدوٌّ أو صديـقٌ أو منافـقٌ، فالصّديق معروفٌ، والعـدوّ عداوته ظاهـرةٌ معروفةٌ يحتاط الإنسـان منهـا، أمّـا المنافـق فهـو الخطـر الكامـن داخـل الجسـد، والّـذي يُبـدي شـيئاً ويخفـي شـيئاً آخر.

كلمـة منافـق جـاءت مـن كلمـة حيـوانٍ صحـراويّ اسـمه نافقـاء اليربـوع، وهـو حيـوانٌ صحـراويٌّ مخـادعٌ يدخـل من بـابٍ ويخرج من بـابٍ، ديدنـه الخـداع، والمنافق يخـدع المجتمـع، وقبـل خداعـه للمجتمـع فهـو يخـدع نفسـه، لذلـك قـال المولى ﷻ: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾: البشـارة تكـون بالـشّيء السّـارّ، والإنـذار يكون بالـشّيء الـسّيّء، وعندمـا تبـشّر فأنـت إذاً تبشّر بخـيرٍ، ولكـنّ المولى ﷻ اسـتخدم هنا

أسلوب التّهكّم والسّخريّة بهم؛ لأنّهم يعتقدون أنّهم يخادعون الله ﷻ. كما تقول إذا جاءك إنسانٌ معروفٌ بالبخل: أهلاً بك يا حاتم الطّائي، فمن المعروف أنّه تهكّمٌ، وهنا يتهكّم الله ﷻ بالمنافقين فيقول: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، أي أنّ العقاب سيكون أليماً في الآخرة على نفاقهم ومخادعتهم.

الآية (١٣٩): ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

دائماً سبب النّفاق الأساسيّ أنّ المنافقين يبتغون شيئاً ما، يحصلون عليه ممّن ينافقون لهم، ففي المدينة المنوّرة كانت فئة المنافقين الّذين ينافقون لمشركي مكّة يقولون لهم: نحن معكم ولكنّنا داخل الجسد الإسلاميّ لننقلَ لكم أخبارهم، فكانوا يبدون شيئاً ويكتمون أشياء أخرى في أنفسهم، وقد اتّخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ابتغاءً للعزّة عندهم، والعزّة متعدّدةٌ: إمّا أن تكون العزّة بالأسباب، أو العزّة بالغنى، أو بالقوّة أو الجاه، فينافق الإنسان طمعاً، أو يُنافق بسبب جهله، فنجد أناساً تُنافق للأغنياء، وأناساً تُنافق لأصحاب السّلطات، وأناساً تُنافق لأصحاب الجاه، وأناساً تُنافق لأصحاب القوّة، ماذا يعني أنّهم ينافقون؟ أي أنّهم لا يقولون الحقيقة، ويبدون غير ما يكتمون، والنّبيّ ﷺ سهّل لنا مهمّة معرفة المنافقين فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[1]، وفي روايةٍ: «وإذا خاصم فجر»[2]، فهذه العناصر هي التي توضّح طبيعة المنافق، فهو إذا حدّث كذب؛ لأنّه يبتغي العزّة لمن يعتقد أنّه يملك القوّة والجاه والسّلطة، وهو مخطئٌ في ذلك؛ لأنّ الإنسان في الحياة الدّنيا هو من الأغيار، فصاحب السّلطة أو المال أو الجاه أو القوّة اليوم يكون غنيّاً وغداً قد يكون فقيراً، اليوم يكون بصحّة وغداً قد يكون مريضاً، اليوم قد يكون عزيزاً وغداً قد يكون ذليلاً، اليوم قد يكون له منصبٌ وغداً يكون خارج المنصب،

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٣).

(٢) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، الحديث رقم (٣٤).

بسبب هذه العناصر يبتغي هؤلاء العزّة عند مَن يُنافقون له.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾: أيبتغون: أي أيريدون، فإنّ الجواب والنّتيجة والقرار: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، والعزّة مفردٌ ويقول جميعاً عنها؛ لأنّه ﷻ يجمع كلّ أسباب العزّة بنظر الإنسان، لذلك يقول ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي عزّة الغنى والسّلطان والمال والجاه جميعاً لله ﷻ، فهو غنيٌّ لا يفتقر، وقويٌّ لا يضعف، ومالكُ المُلك لا يفتقر لمُلكه، وهو ذو الجبروت وذو الجلال والإكرام، فلا يتغيّر ولا يتبدّل، وهو الكمال والتّمام، ولا يطرأ عليه شيءٌ من عالم الأغيار كما يطرأ على الإنسان وعلى المخلوقات، فالخالق لا يتغيّر، أمّا المخلوقات فهم الذين يتغيّرون.

الآية (١٤٠): ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

كانت فئةٌ من المنافقين تجلس مع المشركين في المدينة المنوّرة، ويستهزؤون أثناء حديثهم بكلام الله ﷻ وبالقرآن الكريم، فيفضح الله تبارك وتعالى هؤلاء المنافقين فيقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ﴾: أي نزّل عليكم سابقاً عندما كنتم في مكّة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾: لأنّ المأوى واحدٌ وهو في جهنّم وبئس المصير، فالمنافق يستطيع أن يخدع النّاس لكنّه لا يستطيع أن يخادع المولى ﷻ.

الآية (١٤١): ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾: هذه من صفات النّفاق.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فإن كان لكم عطاءٌ من الله ﷻ وقوّة ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾: لاحظوا الفارق بين الكلمة المتعلّقة بالمؤمنين والكلمة المتعلّقة بالمعسكر الآخر الّذي هو معسكر الكفر، أمّا المؤمنين ففتحٌ، وأمّا الكافرين فنصيبٌ؛ لأنّه حتّى أهل الشّرك عندما ينتصرون يكون لهم جزءٌ، ولا بدّ من عودة الجولة والكرّة للحقّ، ولا بدّ للباطل أن يُزهق، قال ﷻ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: الآية ٨١].

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾: أي أنّنا كنّا معكم ونمنعكم من المؤمنين.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾: لأنّه قد يمرّ في هذه الحياة الدّنيا، وتعتقد أنّ المنافق يفلت من عقاب الله ﷻ، فالله ﷻ يقول: بأنّه يحكم بين الجميع يوم القيامة، يوم الحساب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشّعراء: الآية ٨٨].

ويذيّل المولى ﷻ الآية بقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾: توقّف العلماء عند هذه الآية، بعضهم يقول: كيف يقول الله ﷻ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، ونرى مثلاً الصّهاينة واجتياح المغول والتّتار والفرنجة لبلاد المسلمين وما جرى بهم عبر الزّمن، فكيف يقول هذا ونحن نرى الواقع بحسب وجهة نظرنا بأنّه مخالفٌ، والحقيقة ليست كذلك أبداً! الواقع مطابقٌ تماماً لكلام الله ﷻ؛ لأنّه ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النّساء: من الآية ١٢٢]، نحن لم ننتبه بأنّ الله ﷻ قال ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، لم يقل: على المسلمين سبيلاً، وهناك فارقٌ كبيرٌ جدّاً: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]، ما هو الفارق ما بين الإيمان والإسلام؟

هناك فارقٌ كبيرٌ وهو مشكلة هذه الأمّة، وهو المشكلة الحقيقيّة التي نقع فيها، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمّد: الآية ٧]، ويقول جلّ وعلا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرّوم: من الآية ٤٧]، ولم يقل:

وكان حقّاً علينا نصر المسلمين؛ لأنّ الإسلام هو كلمةٌ تُقال، وهو طاعاتٌ يُتعبّد من خلالها، كالصّلاة والصّيام والحجّ والزّكاة، لكنّ الإيمان لا بدّ له من تُرجمان، ودائرة الإيمان أوسع وأشمل، فالله ﷻ يعطي صفاتٍ للمؤمنين كلّها مترجمة بأفعالٍ وأعمالٍ، وهذه الأعمال هي في أثر هذا المؤمن على غيره وعلى نفسه وعلى أسرته وعلى مجتمعه ووطنه وعلى الإنسانيّة جمعاء، بدقّةٍ أكثر، صحيحٌ أنّك تؤمن بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء خيره وشرّه، لكنّ الإيمان وصفه النّبيّ ﷺ بقوله: «الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق»[1]، فإماطة الأذى عن الطّريق شعبةٌ من شعب الإيمان، هذه واحدةٌ، ثانيّاً يقول النّبيّ ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به»[2]، علّق إيمانه، يقول النّبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[3]، ويقول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه متّبعاً لما جئت به»[4]، نريد أن نرى ترجمة هذا الكلام، هل هي موجودةٌ؟ أين هو وجودها؟ يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: من الآية ١٠]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: الآية ١١-١٢]، ويقول النّبيّ ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[5]، الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل؛ فمن إماطة الأذى عن الطّريق إلى الإحسان بالوالدين إلى الجيران إلى الأخوّة، كما قال ﷺ: «لا يؤمن

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

(٢) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، الحديث رقم (١٣).

(٤) كنز العمّال: ج١، ص ٢١٧، الحديث رقم (١٠٨٤).

(٥) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم (٢٥٨٦).

أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[1]، كلّ هذه المعايير هل تنطبق؟ قد تكون مسلماً ولكنّك تغتاب، ولا يكون المؤمن كذّاباً. فهل تكذّب وتصلّي، تغتاب وتصوم، تحجّ وتفسق وترفث؟ هناك إيمانٌ وهناك إسلامٌ وهناك إحسانٌ، والإحسان هو القمّة؛ أن تعبد الله ﷻ كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، لذلك قال المولى ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: من الآية ١٤]، ونلاحظ أنّ الله ﷻ قال هنا: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وصفة المؤمن أنّه يؤمن بكلّ عناصر الإيمان، من الإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو لا يكذب ولا يغتاب ولا ينمّ ولا يؤذي الجيران، ويبرّ الوالدين، وهو متحابّ مع إخوانه، ومع مجتمعه، وهو مصدرٌ للخير، ويميط الأذى عن الطّريق، و...، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: الآية ١٠٧]، فهل نجد هذه المعايير منطبقة؟ فإذا انطبقت هذه المعايير فلن يجعل الله ﷻ للكافرين على المؤمنين سبيلاً أبداً، وستجد هذه المعايير التي حدّدها النّبيّ ﷺ من إماطة الأذى عن الطّريق مروراً بكلّ هذه الأمور، لا حسد ولا حقد ولا كذب ولا افتراء ولا رشوة ولا سرقة ولا زنى، عندما عرّف الإيمان.

الآيـة (١٤٢): ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

يعتقد المنافقون أنّهم يخادعون الله ﷻ، وهو خادعهم، هنا استخدم المشاكلة اللّفظيّة، لذلك لا نقول: بأنّ الله ﷻ خدّاع، لا يسمّى المولى ﷻ إلّا بالأسماء التي سمّى بها نفسه، كما قال ﷻ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: من الآية ٣٠]، فلا تقلْ: بأنّ اسماً من أسماء الله ﷻ الماكر أو المخادع، هذه باللّغة من جنس المشاكلة اللفظيّة، والمخادعة هي التّبييت بخفاءٍ مع كذبٍ؛ فالمنافقون يخادعون الله ﷻ أي يبيّتون بالخفاء ويكذبون، والله ﷻ خادعهم أي يبطل تبييّتهم.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، الحديث رقم (١٣).

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾: لأنّهم في الأصل لا يهمّهم إلّا الأشكال، أن يُقال عنهم: بأنّهم من المسلمين، وهم ليسوا من المؤمنين، يقومون إلى الصّلاة كسالى، لأنّهم لا يفهمون معنى الصّلاة بأنّها صلةٌ مع الخالق، وأخلاقٌ مع الخلق، وقد كان النّبيّ ﷺ يقول عن الصّلاة: «يا بلال، أقم الصّلاة، أرحنا بها»[1]، أمّا هؤلاء فيقولون: أرحنا منها يا بلال.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: الرّياء هو من الشّرك الخفيّ، وبيّن النّبيّ ﷺ هذا عن الرّياء؛ فعن شدّاد بن أوس أنّه بكى فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: شيءٌ سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخوف ما أخاف على أمّتي الشّرك والشّهوة الخفيّة»، قلت: يا رسول الله! أتشرك أمّتك من بعدك؟ قال: «نعم، أَمَا إنّهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم»[2]؛ أي أنّهم منافقون يعملون العمل من أجل النّاس، ويقولون: بأنّه لله ﷻ.

﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾: لأنّ ذكر الله ﷻ هو ضدّ النّسيان، فأنت إذا ذكرت الله ﷻ اتّبعت أوامره، وكنت معه، وهنا أساسٌ من أُسس الإيمان، فعندما أردف النّبيّ ﷺ ابن عمّه ابن عبّاس رضي الله عنهما خلفه، علّمه مقتضى ومختصر الإيمان الّذي نتحدّث عنه، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كنت خلفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إنّي أعلّمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام وجَفَّت الصُّحُف»[3]، إذا آمن الإنسان بهذا الكلام فمعناه بأنّه يذكر الله ولا ينساه ﷻ، وهذا هو حقيقة وجوهر الإيمان بالله ﷻ.

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، الحديث رقم (٤٩٨٥).

(٢) مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: المجلّد الثّالث، ص ٢٥٩، الحديث رقم (٥٢٢٦).

(٣) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، الحديث رقم (٢٥١٦).

الآيـة (١٤٣): ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾

المنافقـون مذبذبـون؛ لأنّهـم يميلـون مثلما يميـل الهوى معهـم، فإذا كانـت القوّة في هـذا الطّـرف فإنّهـم يميلـون إليـه، وإن كانت في الطّـرف الآخـر يميلون إليـه، إن كان المـال في هـذا الطّـرف يذهبون إليـه، وإن كان مـع الآخر فيذهبـون إليه، فهـم كما قيل:

رأيـــتُ النّـــاسَ قَـــدْ مَالـــوا ... إلى مَـــن عِـــنْـــده مـــالُ

ومَـــن لا عِـــنْـــدَهُ مـــالُ ... فـعـنـــه النّـــاسُ قَـــدْ مَالـــوا

رأيـــتُ النّـــاسَ قَـــدْ ذهَبـــوا ... إلى مَـــن عِـــنْـــده ذَهَـــبُ

ومَـــن لا عِـــنْـــدَهُ ذهَـبُ ... فـعـنـــه النّـــاسُ قَـــدْ ذَهَبُـــوا

رأيـــتُ الـنّـــاسَ مُنفضّـــة ... إلى مَـــن عِـــنْـــده فِضّـــة

ومَـــن لا عِـــنْـــدَهُ فِضّـة. ... فـعـنـــه النّـاسُ قَـدْ مُنفضّـة

مذبذبـين لا إلى هـؤلاء ولا إلى هـؤلاء، أيـن تكون الفضّـة، أين يكـون الذّهب، أين يكـون المـال، أيـن تكون القـوّة، أين تكـون العزّة كـما يعتقدون فإنّهـم يذهبون.

وكلمة ذبذب: من الذّباب الّذي يذبّ ثم يعود.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾: لأنّ الله ﷻ هداهـم فاختـاروا العمـى عـلى الهـدى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: الآية ٣]، وبيّن الله ﷻ لنـا الطّريـق والهدايـة، وأرشـدنا إلى الطّريـق، لكـن إن اخـترت طريـق الضّـلال فـإنّ الله ﷻ يعينـك عليـه، وإن اخـترت طريـق الهدايـة فـإنّ الله ﷻ يعينـك عليـه، وهـذا هـو المقصـود بقولـه ﷻ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾؛ لأنّه هـو اختار الضّلال فأضلّـه الله ﷻ عـلى علمٍ.

الآيـة (١٤٤): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾

يقـول الله ﷻ لهـم: لا تتّخـذوا مشركـي مكّـة أوليـاء تطلبـون الولايـة منهـم لاعتقادكـم أنّ العـزّة عندهـم مـن دون المؤمنـين.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾: سـلطاناً أي حجّـةً واضحـةً باتّخاذكـم المشركـين أولياء من دون المؤمنين، فتسـتوجبوا منه ما اسـتوجبه أهـلُ النّفاق الذيـن وصـف لكـم صفتهـم، وأخبركـم بمصيرهم.

الآية (١٤٥): ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾

في الجنّـة درجـاتٌ، وللشّرك والنّفـاق في النّار دركاتٌ، فالمنافقون في الدَّركِ الأسـفل من جهنّم.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ : لـن تجـد لهـؤلاء المنافقـين -يـا محمّـد- مـن الله ﷻ إذا جعلهـم في الدّرك الأسـفل مـن النّار ناصراً ينصرهـم منه، فينقذهم مـن عذابه، ويدفع عنهـم أليـمَ عقابه.

الآيـة (١٤٦): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾

حتّى لا يعتقد الإنسان بأنّ الأبواب قد أُغلقت، فتح الله ﷻ باب التّوبة فقال جلّ وعلا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، استثنى المولى ﷻ الذين تابوا، لكنّه بيّن علائم التّوبة، وهي الإصلاح، أن تصلح ما أفسدتَ، وأن تكون بقلبك خالصاً لله ﷻ؛ لأنّ الغايات من الأحداث هي التي تضفي على الجوارح الإقبال على الأحداث، فيجب أن يكون الإنسان معتصماً بالله ﷻ، مخلصاً دينه لله ﷻ، وإخلاص الدّين لله ﷻ أن يبتعد عن الرّياء وعن النّفاق بكلّ جوانبه واتّجاهاته، لذلك فإنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا

عَظِيمًا ﴾ هذا الأجر لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً في الدّنيا إن كانوا مؤمنين، وفي الآخرة سيكون لهم الجزاء العظيم، سيؤتيهم الأجر العظيم، وهو على قدر الـمُعطي، فدائماً العطاء ينسب إلى من يعطي، فإذا كان هذا العطاء من ربٍّ عظيمٍ كريمٍ، فيكون هذا العطاء وهذا الأجر عظيماً على قدر عظمة الـمُعطي ﷻ.

الآيـة (١٤٧): ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

هنا فتح الله ﷻ باب التّوبة؛ لأنّه لا يريد المعصيّة، ولا العصاة، ولا يريد أن يعذّب النّاس.

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ ﴾: فالله ﷻ يقول في الحديث القدسيّ: «يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيت كلّ إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه»[1]، فهي ابتلاءاتٌ للنّاس، وهي أعمالٌ، من هذا المنطلق وعلى هذا الأساس: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ ﴾؛ لأنّ الله ﷻ شاكرٌ عليمٌ، وهو القائل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: من الآية ٧]، أي كلّما شكرتم كلّما زاد عطاؤه ﷻ، وهنا قدّم الشّكر على الإيمان؛ لأنّ الشّكر يتعلّق بالنّعمة والإيمان يتعلّق بالمنعم، فالإنسان أوّلاً يرى النّعمة وبعد ذلك يؤمن بالمنعم، والله ﷻ أرحم من كلّ البشر بالبشر؛ لأنّه خالقهم وربّهم، وما خلقهم من أجل أن يعذّبهم: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ ﴾، فالإنسان كلّما شكر كلّما زاد ما يتلقّاه من عطاء الله ﷻ.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

الآيـة (١٤٨): ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

هنـا يتبـيّن لنـا بأنّ الإسـلام يحـارب كلّ ما يؤذي الإنسـان أو يـضرّه أو يـسيء إليه، سـواءً أكان مادّيـاً بجسـده أم بفعـلٍ مـن الأفعـال، وحتّـى السّـوء مـن القـول يحرّمـه الإسـلام ولا يرضـاه لأتباعه.

أراد الله ﷻ أن يحمـي آذان المجتمـع مـن أقـوال السّـوء بشـكلٍ عـامٍّ، وأن يتربّـى الطّفـل في أسرتـه وينشـأ وهو يسـتمع دائماً إلى أحسـن الأقـوال حتّى لا تصـدر عنه إلّا أحسـن الأفعال.

فاللّغـة بنـت المحـاكاة والإنسـان لا يتحـدّث إلّا بـما يسـمع، فـإذا سـمع الطّفل في بيتـه وأسرتـه الـكلام البـذيء والـسّيّء فـلا بـدّ أن ينطق بـه، ولو عدنـا تدريجيـاً حتّى نصـل لأبي البـشر آدم عليه السلام وهـو أوّل مخلـوقٍ عـلى وجـه الأرض، وتسـاءلنا: كيـف تكلّـم؟ لا بـدّ أنّـه سـمع مـن الله ﷻ عندما قـال جـلّ وعـلا: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقـرة: الآيـة ٣١]، وأوّل ما يتـمّ تعلّمـه هـو الأسـماء، فعندمـا نريد تعليـم الـكلام للطّفل نقول لـه: هـذا كـوب.. هذه شـجرة.. هـذه محفظة.. هـذه نظّـارة، وبعدهـا تلحق بالأسـماء الأفعـال، والله ﷻ علّـم آدم عليه السلام الأسـماء كلّهـا -هـذه شـمسٌ، وهـذا قمـرٌ، هـذه سـماءٌ، هـذه أرضٌ..- وبعد أن سـمعها عليه السلام تكلّم، والله ﷻ يقـول: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، حمايـةً للمجتمـع وآذنـه مـن التّعرّض للسّـوء من القـول، يقـول رسـول الله ﷺ: «ومـن كان يؤمـن بـالله واليـوم الآخـر فليقل خـيراً أو ليصمـت»[1]، فأيـن أولئـك الّذيـن يتحدّثون بأنّ الإسـلام ديـن إرهـابٍ أو دين عنفٍ أو ديـن قسـوةٍ أو ديـن تطـرّفٍ؟! كيـف يصـحّ ذلـك؟ إذا كان الإسـلام لم يحـرّم فقـط الدّمـاء والأمـوال والنّفـس البشريّـة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، الحديث رقم (٥٦٧٢).

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: من الآية ٣٢]، بل حرّم أيضاً الجهر بالسّوء من القول، لكي لا يعتاد الإنسان على كلمة السّوء أو يصدر عنه أيّ فعل سوءٍ بحقّ أحد، حتّى ولو كان بالنّسبة لأقرب النّاس إليه؛ لأنّه بعد ذلك سينسحب إلى باقي المجتمع.

لنلاحظ هنا ملاحظةً مهمّةً فعندما أمر الله تبارك وتعالى الأبناء بالإحسان إلى الوالدين قال ﷻ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: من الآية ٢٣]، حتّى كلمة أفّ حرّمها، لذلك قال الإمام عليّ كرّم الله وجهه: «لو علم الله في العقوق كلمةً أدنى من أفٍّ لحرّمها، فليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة، وليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النّار».

فالله ﷻ لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول بشكلٍ عامٍّ، وطلب الإحسان بالقول من النّاس وإلى النّاس وإلى البشريّة جمعاء، وحمى آذان المجتمع من أقاويل السّوء، لكنّه استثنى، والمستثنى هنا بإلّا: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ هنا سيقول قائلٌ بأنّ الله ﷻ يقول: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، فكيف يعطي لمن ظُلم هذا الحقّ بأن يقول ويرفع صوته بالسّوء؟ هنا نبيّن أمراً مهمّاً، فهناك فارقٌ بين الأمر الّذي يطلبه الله ﷻ ويأمر به وبين الأمر الّذي يضعه الله ﷻ إباحةً بين يدي الإنسان، وهذا الأمر فقط لمنع إشاعة الظّلم، أي للوقوف في وجه الظّلم وعدم الاعتداء من قبل أحد، يقول ﷻ في الحديث القدسيّ: «يا عبادي إنّي حرمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا»[1].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: ذكرنا سابقاً أنّه عندما يقول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ أي أنّه ﷻ ليس من عالم الأغيار، فالزّمان والمكان مخلوقان من مخلوقات الله تبارك وتعالى لا ينطبقان على خالق الإنسان.

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآدب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

الآية (١٤٩): ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

فقد بيّن فوراً قضيّة العفو، ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: من الآية ١٣٤]، فالله ﷻ لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول ومع أنّه أباح ذلك لمن ظُلم حصراً، لكنّه طلب الإحسان، وبيّن بأنّه يحبّه ويحبّ العفو من قِبل الإنسان.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾: الظّاهر والخفي هو من الأغيار، ويكون للبشر الّذين يتغيّرون ويتبدّلون وتتبدّل أحوالهم، أمّا على الله ﷻ فلا يوجد ما هو ظاهرٌ ولا يوجد ما هو خافٍ، وهو يعلم السّرّ وأخفى، وهو عليمٌ بما في الصّدور.

﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾: حبّب الله ﷻ إلينا العفو وجعله هو المطلوب، لكن عند القدرة وليس عند المذلّة، فجاء تذييل الآية بالقدرة مع العفو، فعندما يكون الإنسان قادراً على العفو فذلك أقرب للتّقوى، والإسلام دين لطفٍ لا عنفٍ، دينٌ يُطالب بالعفو. وقضيّة العفو لم تكن موجودةً في تاريخ البشريّة قبل النّبيّ ﷺ، فالنّزاعات والحروب بين البشر كالفرس والرّوم والقبائل العربيّة كانت تبقى حتّى الإبادة أو أخذ السّبي والعبيد، ولكن عندما جاء الإسلام قال النّبيّ ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطّلقاء»[1]، وعفا عن الجميع استجابةً لأمر الله ﷻ.

الآية (١٥٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

قضيّة الإيمان هي قضيّةٌ كليّةٌ لا أبعاض فيها، بأن تؤمن بالله ﷻ والرّسل كافّة، فالأنبياء عليهم السلام اصطفاهم المولى ﷻ من خلقه ليوحي إليهم بدينه وشريعته عن طريق الملائكة عليهم السلام، فهناك وحدة الدّين كما قال ﷻ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ

(١) سنن البيهقيّ الكبرى: كتاب السّير، باب فتح مكّة حرسها الله تعالى، الحديث رقم (١٨٠٥٥).

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشّورى: من الآية ١٣]، فوحدة العقيدة واختلاف الشّرائع يكون عبر مرّ الزّمن حسب تغيّر أحوال الإنسان والأقوال.

إذاً قضيّة الإيمان هي قضيّةٌ كليّةٌ لا تتجزّأ إلى أبعاض، فلا يمكن أن تقول: أؤمن بالله ﷻ ولا أؤمن بهذا الرّسول، وهناك بعض الدّعوات الآن ومن قبل للابتعاد عن الإيمان بالرّسل عليهم السلام، حيث يقولون: نؤمن بالله ﷻ ولا نؤمن بالرّسل، لماذا؟ لأنّ الإيمان بالرّسل عليهم السلام فيه تكليف.

إن آمنت بالله ﷻ فما هي غاياته جلّ وعلا؟

يقول ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: الآية ٥٦]، لا يعتقد الإنسان أنّ العبادة هي الصّلاة والصّوم والزّكاة والحجّ فقط، فهذه أركان الإسلام، أمّا العبادة فهي في كلّ عمل خيرٍ يعود على الغير وعلى المجتمع وعلى النّاس بالنّفع، فالفلّاح في حقله إذا أحسن وفلح وزرع وحصد فهو في عبادةٍ، والعامل في مصنعه إذا أتقن عمله فهو في عبادةٍ، والموظّف في وظيفته إذا حافظ على وقت العمل وعلى عمله فهو في عبادةٍ، وهكذا بالإحسان وبعمل الخير يصبح كلّ شيءٍ يفعله الإنسان عبادةً لله ﷻ، وأمّا عن أركان الإسلام فهي في قوله ﷺ: «بُني الإسلامُ على خمس: شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، والحجّ، وصوم رمضان»[1]، فلا بدّ منها؛ لأنّ بناء الإسلام يقوم عليها، ولا تستطيع التّفريق بين الله ﷻ وبين رسله عليهم السلام، ولا تستطيع أن تقبل بالله ﷻ وتقبل برسولٍ كموسى عليه السلام ولا تقبل برسولٍ كعيسى عليه السلام أو كمحمّدٍ ﷺ، كما فعل اليهود الّذين كانوا يجادلون ويناقشون في المدينة المنوّرة.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾: طريقهم بين هذا وهذا، نؤمن بموسى عليه السلام ولا نؤمن بمحمّدٍ ﷺ، وهكذا اتخذوا بين ذلك سبيلاً.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النّبيّ ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، الحديث رقم (٨).

الآية (١٥١): ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

دائماً مع الإشراك والكفر بالله ﷻ والجحود بأوامره وبرسله يكون الجزاء في الآخرة العذاب المهين.

الآية (١٥٢): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

هذه هي الصّورة المقابلة لأولئك الّذين جحدوا بآيات الله ﷻ.

كما قال ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٨٥]، بينما اليهود قالوا: سمعنا وعصينا، وفرّقوا بين الله ﷻ وبين رسله عليهم السلام.

الآية (١٥٣): ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

• **سبب النزول:** عن محمّدِ بن كعب القرظيّ قال: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «إنّ موسى جاءنا بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح حتّى نصدِّقك»، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾، أي أنّهم يريدون أن ينزّل الله ﷻ عليهم أمراً ويقول لهم ﷻ مباشرةً أن يؤمنوا بمحمّد ﷺ، هذا معنى قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ﴾، القرآن الكريم هو كتابٌ من السّماء، لكنّه نزل على رسول الله محمّد ﷺ، أمّا هم فيريدون كتاباً خاصّاً بهم، والله ﷻ يستهزئ بهم فقال للنّبيّ ﷺ: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، فإن كانوا يُطالبونك يا محمّد بأمرٍ مباشرٍ من الله ﷻ لهم، فهم قالوا لموسى عليه السلام: أرنا الله ﷻ، وقد قال ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: الآية ١٠٣]؛ لأنّ

الإدراك هو إحاطةٌ ولا يمكن لأحدٍ أن يحيط بقدرة الله ﷻ وبصفاته جلّ وعلا.

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾: لقد ظلموا أنفسهم واستكبروا وعتوا وطلبوا أن يروا الله ﷻ جهرةً فأنزل الله ﷻ عليهم الصّاعقة فأهلكتهم نتيجة ظلمهم.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾: أي بعد فترةٍ من الزّمن؛ لأنّ (ثمّ) هي حرف عطف للتّراخي.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: وذلك عندما قال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ [الشّعراء: من الآية ٦١]، وعندما كان فرعون وجنوده في البحر فأغرقهم الله ﷻ: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥﴾ [الشّعراء: الآية ٦٢-٦٥]، فغرق فرعون ومن معه وكان آيةً بيّنةً عظيمةً للجميع، فالله ﷻ أغرق وأنجى للسبب ذاته، أغرق فرعون بالبحر وأنجى اليهود الّذين كانوا مع موسى عليه السلام في البحر، وبعد ذلك طلبوا أن يعبدوا العجل، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾، بعد كلّ ذلك عفا الله ﷻ عنهم.

﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾: أعطيناه من الآيات والدّلائل، وأنزل الله ﷻ عليه الألواح.

الآية (١٥٤): ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾

﴿بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾: أي بما عاهدوا وعقدوا وواثقوا الله ﷻ.

رفع الله ﷻ فوقهم جبل الطّور حتّى كاد أن يضربهم وينزل عليهم، وأخذ منهم عهداً وميثاقاً أن يأخذوا ما آتاهم ﷻ بكلّ قوّة.

﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾: أي ساجدين.

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾: السّبت من السّبات ومن السّكن فهو يوم راحةٍ، والقصّة معروفةٌ؛ فعندما تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم ابتلاءً؛ لأنّهم لا يستطيعون الصّيد، كانوا يحتالون ويعتقدون أنّهم يخادعون الله ﷻ في ذلك. إنَّ بعض الآيات وبعض الأحداث الّتي تتعلّق باليهود يوردها الله ﷻ بشكلٍ سريعٍ تسليةً لقلب الرّسول الكريم ﷺ ممّا يعانيه من اليهود ومن نقضهم الميثاق والعقود وتآمرهم مع مشركي قريش ومشركي العرب في ذلك الوقت.

هذه الآيات ستأتي في سورٍ أخرى وبشكلٍ أوضحٍ ومفصّلٍ، وعندها سنفصّلها إن شاء الله ﷻ.

طلبوا أن ينزّل عليهم الله ﷻ المنّ والسّلوى، وجاوز بهم البحر، وطلبوا أن يروا الله ﷻ جهرةً، ورفع فوقهم الطّور، أمرهم أن يدخلوا الباب سجّداً، وقال لهم: ﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾. هذه الأوامر من الله ﷻ نقضوها كلّها ولم يستجيبوا لأمره جلّ وعلا.

الآية (١٥٥): ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

يتحدّث المولى ﷻ عن اليهود، شعب بني إسرائيل، وعن نقضهم للمواثيق والعقود والعهود الّتي قطعوها على أنفسهم في المدينة المنوّرة، وكان ذلك تذكيراً بأجدادهم وبماضيهم المخزي مع شيخ الأنبياء موسى عليه السلام بكثرة طلباتهم وجحودهم وكفرهم وارتدادهم مع ما أنزل الله ﷻ على سيّدنا موسى عليه السلام.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: في اللّغة العربيّة (ما) حرفٌ زائدٌ، ولكن لا يجوز قراءة كتاب الله ﷻ كأيّ كتابٍ آخرٍ بأن نقول: (ما) حرفٌ زائدٌ هنا، فالله ﷻ لا يوجد في كلامه ما هو زائدٌ أو يُستغنى عنه.

فبنقضهم ميثاقهم، قد نظنّ أنّه يمكن الاستغناء عنها هنا؛ لأنّنا لا نعرف، فقد لعنّاهم لكثرة نقضهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ (ما) جاءت قبل الباء لتؤكّد

كثرة نقضهم لعهود الله ﷻ، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، نقضوا المواثيق والعهود، أمّا لو قلت: فبنقضهم ميثاقهم لكان النّقض فقط مرّةً واحدةً، وهذا من دقّة الأداء القرآنيّ، دقّة العطاء القرآنيّ.

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: كفروا بآيات الله ﷻ الّتي أنزلها عليهم عند رؤيتهم انفلاق البحر، وغرق فرعون وجنوده، ورؤيتهم للطّريق أصبح ممهداً أمامهم، ونزول المنّ والسّلوى عليهم، ومع كلّ هذا العطاء من الله ﷻ كفروا بآياته ﷻ وجحدوا بكلّ ما أعطاهم من دلائل وأسبابٍ وإثباتاتٍ على وجوده وعلى ضرورة طلب الإيمان به، وأضافوا إلى ذلك قتلهم الأنبياء عليهم السلام، كيحيى وزكريّا وغيرهما، وكانوا: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المائدة: من الآية ٧٠].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: أي قلوبنا مغلّفةٌ في داخلها الإشراك والكفر، فلا يدخلها الإيمان، فيقول ﷻ: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، فالله ﷻ يبيّن الطّريق، فمن اختار طريق الإشراك والعصيان يأتيه الطّبع على القلب، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم.

الآية (١٥٦): ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

البهتان: هو الكذب الكبير، والله ﷻ يقول عن الكذب الواضح بأنّه عظيمٌ، فقد افتروا على السّيّدة مريم العذراء عندما اتّهموها بشرفها وتعرّضوا لها، وكفروا وقالوا من الأقوال ما لا يستطيع المرء أن يكرّره أو يتقبّله، فالسّيّدة مريم كان لها ماضٍ وتاريخٌ فاضلٌ، حيث تربّت بالمحراب قبل أن تحمل بالسّيّد المسيح عليه السلام، ورد في سورة (آل عمران) قوله ﷻ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: الآية ٣٧]، فمنذ كانت طفلةً وهي تذكر الله ﷻ في المحراب، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ

ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ [آل عمران: الآية ٣٩]، مريم الطّفلة العظيمة الفاضلة أوحت لنبيٍّ من الأنبياء بأمرٍ مهمٍّ، وهو أنّ الله ﷻ يرزق من غير حسابٍ، أي من غير أسبابٍ، وهو كان حاله كما أخبرنا الله ﷻ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ [مريم: الآية ٤-٦]، فقد تمّ الإيحاء من هذه الطّفلة العظيمة مريم، ومع تاريخها النّاصع والفاضل اتّهمها اليهود في شرفها وقالوا عليها هذا البهتان العظيم.

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾: لأنّ مَن يقول هذا الكلام على مريم فقد كفر بالله تبارك وتعالى.

الآية (١٥٧): ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

الواو هنا واو العطف، أي وبكفرهم وبقولهم، يعطف الأمر على أقوال اليهود: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾، يردّ المولى ﷻ على اليهود بما قالوه وبما ادّعوه من قتلهم وصلبهم للسّيّد المسيح عليه السلام، وليس مجالنا هنا أن نحاجج أحداً، ولا أن نتعدّى على عقائد أحدٍ، ولكن نريد أن يتّضح منطق الإيمان، ما نؤمن به ونعتقد به هو تكريمٌ وتعظيمٌ للسّيّد المسيح عليه السلام، فالمسيح عليه السلام لم يُصلَب، وليست القضيّة هنا قضيّة نقاشٍ ومحاججةٍ مع العقائد الأخرى، لكن لنبيّن لهم بأنّ عقيدتنا تقول: ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ فاعتقدوا أنّهم قتلوه أو صلبوه، ولكنّ الله ﷻ رفعه إلى السّماء، وهذا تكريمٌ من العقيدة الإسلاميّة ونظرٌ عظيمٌ لمكانة السّيّد المسيح عليه السلام، وقد قال ﷻ عنه: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ

﴿رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: الآية ٢٢-٣٣]، حملته بالأمر الإلهيّ ﴿كُن﴾، قال ﷻ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: الآية ٤٧]، حملته من دون أبٍ، من دون رجلٍ، ومن المعلوم أنّ الولد يأتي من تزاوج الذّكر والأنثى، لكن هنا قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]، خلق آدم من ترابٍ من دون أبٍ وأمٍّ، فليس عسيراً على الله ﷻ أن يخلق من أمٍّ من دون أبٍ.

ولا بدّ من البيان للنّاس جميعاً بأنّ قولنا هذا ليس مدعاةً للخلاف والنّزاع، ويجب أن يعتاد النّاس على أنّ الخلاف لا يفسد للودّ قضيّة، قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: الآية ٦].

لا نأخذ الجزئيّات الدّينيّة أوّلاً، نحن نؤمن أوّلاً بالله ﷻ منزّل هذه الجزئيّات ونصدّق بعد ذلك ما يقوله ﷻ، فالأصل في التّديّن هو الإيمان بالله ﷻ.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾: عندهم شكٌّ في الأمر؛ لأنّه شبّه لهم.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾: انتقل الشّكّ إلى الظّنّ ولكنّهم لم يقتلوه.

فالمطلوب منّي كمسلمٍ أن أعظّم وأكرّم السّيّد المسيح عليه السلام، فالإيمان به هو إيمانٌ لا يتجزّأ من الإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله عليهم السلام: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٨٥].

الآية (١٥٨): ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾

القرآن الكريم لم يقل أنّ السّيّد المسيح عليه السلام قد مات، قد يقول قائلٌ كيف يحصل هذا؟ هناك ضجّةٌ في ميلاده فمن الطّبيعيّ أن تكون هناك ضجّةٌ فيما يتعلّق بوفاته، ضجّةٌ في ميلاده حيث كانت ولادته بمعجزةٍ، وارتفع بمعجزةٍ، ارتفع بـ: ﴿كُن﴾ كما وُلِد بـ: ﴿كُن﴾، بالنّسبة للمسلمين هذه عقيدةٌ، فكلّنا يعلم أنّ القرآن الكريم ينصّ على أنّ السّيّد المسيح عليه السلام رُفع إلى السّماء، وهذا تكريمٌ له، ونحن نعيش مع الإخوة النّصارى كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، لكن المهمّ هل يوجد انتقاصٌ من قدر السّيّد المسيح أو أنّه تعظيمٌ وتكريمٌ وتشريفٌ له بأنّ الله سبحانه وتعالى أثبت غير ما قاله اليهود بافترائهم على السّيّدة مريم وقولهم بهتاناً عظيماً؟ لقد أثبت منذ أن كانت مريم طفلةً كيف كانت قدّيسةً في المحراب، وأثبت أنّها ولدت من دون زوجٍ، فجبريل عليه السلام نفخ فيها من روح الله سبحانه وتعالى فكان الميلاد العظيم المعجزة للسّيّد المسيح عليه السلام، فنحن آمنّا بالله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم وبكلّ ما جاء به ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: من الآية ١٢٢]، فعقيدة المسلم بالنّسبة للسّيّد المسيح عليه السلام واضحةٌ ولا نخفيها على أحدٍ، وموجودةٌ في القرآن الكريم، والجميع يقدّر ويحترم ما نزل في كتاب الله سبحانه وتعالى.

الآية (١٥٩): ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ١٥٩﴾

(إن) هنا النّافية وليست النّاهية، ما من أحدٍ من أهل الكتاب إلّا سيؤمن به قبل موته ويكون عليه شهيداً يوم القيامة، فهو سيعود وسينزل وهذا ما وعد به الرّسول صلى الله عليه وسلم في كثيرٍ من الأحاديث الصّحيحة، وأنّه سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، يقول عليه الصّلاة والسّلام: «لا تقوم السّاعة حتّى ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً»[1]، وهناك الكثير من الرّوايات الّتي تذكر أنّه سينزل جانب مئذنة المسيح في الجامع الأمويّ

(١) صحيح البخاريّ: كتاب المظالم، باب ٣٢، الحديث رقم (٢٣٤٤).

الكبير في دمشق، قال ﷺ: «... إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفّيه على أجنحة ملكين...»[1].

الآيـة (١٦٠): ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾

الحديث هنا أنّ الّذي افترى وكذّب وكفر بالسّيّد المسيح عليه السلام هم اليهود، والّذي آذى السّيّدة مريم بأقواله وأفعاله هم اليهود، فاليهود إلى هذه اللّحظة هم مصدر الشّرور في العالم بما يفعلونه بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وبقتلهم للفلسطينيّ المسلم والنّصرانيّ، واستهدافهم الإسلام والنّصرانيّة؛ لأنّهم يؤمنون بأنّهم شعب الله المختار، وكلّ ما سواهم ودونهم ليسوا بمرتبتهم عند الله سبحانه وتعالى، هذه النّظرة الفوقيّة العنصريّة الصّهيونيّة اليهوديّة الخرافيّة هي الّتي جعلتهم عبر عصورهم وتاريخهم في كلّ شعبٍ وفي كلّ أمّةٍ وفي كلّ أرضٍ وطؤها أو وُجِدوا فيها كالجراثيم تتسلّل إلى أجساد هذه الشّعوب، وقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٨]، وبيّن القرآن الكريم في سورة (مريم) كيف واجههم السّيّد المسيح عليه السلام وهو في المهد، ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: الآية ٢٢-٢٤]، وفي قراءةٍ أخرى (مَن تحتَها) أي أنّ السّيّد المسيح عليه السلام من أوّل ولادته نادى السّيّدة العذراء تسليةً لقلبها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: الآية ٢٤-٢٦]، كلّ هذا الكلام كان من أوّل ولادة السّيّد المسيح معجزةً من السّماء، وهو يتحدّث ويسلي قلب أمّه، ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب ٢٠، الحديث رقم (٢٩٣٧).

﴿صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٧-٢٩]، لم يخطر ببالهم أبداً أنّه هو الّذي سيتكلّم، اعتقدوا عند إشارة السّيّدة مريم إلى السّيّد المسيح عليه السلام كأنّها تقول كلّموا الطّفل، فقالوا: كيف نكلّم؟! ولم يقولوا: كيف يتكلّم؟! فأجابهم السّيّد المسيح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٤]، أيّ تكريمٍ في قرآننا وإسلامنا؟! ثمّ يأتي من يقول: إنّ الإسلام يرفض الآخر ويبثّ الكراهيّة نحوه، ويسبب إشكالات في العلاقة الإسلاميّة النّصرانيّة، هذه العلاقة صانها القرآن الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: الآية ٨٢]، مودّةً أي وداد وحبّ القلب.

﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾: هم اليهود؛ لأنّهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٦].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾: في القواعد الفقهيّة الأصل في الأشياء الإباحة إلّا ما ورد فيه نصٌّ، ودائماً المحرّم قليلٌ والحلال كثيرٌ جدّاً، مثلاً الطّعام كلّه حلالٌ عدا الميتة ولحم الخنزير، المشروبات كلّها حلالٌ كالماء والعصير و... عدا الخمر بكلّ أنواعه، المحرّم جزءٌ واحدٌ والباقي حلالٌ، الحلال أن تتزوّج والحرام أن تزني، فمصارف الحلال كثيرةٌ جدّاً، وعندما يحرّم الله سبحانه وتعالى يحرّم لأسبابٍ، لكن اليهود تحديداً حرّم عليهم تأديباً لهم لظلمهم، فهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وبقتلهم الأنبياء.

﴿طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾: كانت هذه الطّيّبات حلالاً لهم ولكن حُرّمت عليهم من جرّاء ظلمهم وكفرهم بآيات الله سبحانه وتعالى.

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: في كلّ وقت منذ عهد السّيّد المسيح صدّوا عنه وكذلك في عهد زكريّا وسيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، ولم يكتفوا بالصّدّ عن سبيل الله سبحانه وتعالى، بل ارتكبوا المحرّمات والموبقات.

الآيـة (١٦١): ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦١﴾

﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾: الرّبا حرامٌ، قال ﷻ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ [البقرة: من الآية ٢٧٥]، لماذا؟ لأنّ الرّبا ما يحصل عليه الإنسان من جرّاء استغلاله لحاجة غيره، وقد حرّم الله ﷻ الرّبا على اليهود ومع ذلك يتعاملون به.

﴿وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾: إمّا عن طريق السّرقة أو عن طريق الرّشوة والغش، كلّ هذه الطّرق في الاحتيال لأكل الأموال كان اليهود يستخدمونها، فحُرّمت عليهم طيّباتٌ كانت قد أُحلّت لهم.

فالله ﷻ حلّل لهم الطّيّبات، لكن بظلمهم وأكلهم الرّبا وأموال النّاس بالباطل حرّم عليهم هذه الطّيّبات الّتي أُحلّت لهم.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾: بالإضافة لتحريم طيّباتٍ أُحلّت لهم أعدّ الله ﷻ لهم في اليوم الآخر عذاباً أليماً في جهنّم وبئس المصير.

الآيـة (١٦٢): ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

هنا قانون صيانة الاحتمال، أي ليس كلّ الّذين هادوا، فهناك من آمن منهم كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره، ولكن لنلاحظ ملاحظةً مهمّةً في كتاب الله ﷻ، بأن الإعراب قد كُسر في هذه الآية، ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ فقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عُطف عليها، ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾، فبحسب الإعراب يجب أن تكون: (والمقيمون الصّلاة) بالواو والنّون وليس بالياء والنّون، لأنّها فاعل والفاعل يُرفع بالواو والنّون، ويُنصب ويُكسر بالياء والنّون، والقرآن الكريم فيه تحدٍّ بلاغيّ كما فيه تحدٍّ علميّ لمشركي العرب في ذلك الوقت الّذين كانوا أساطين اللّغة وأرباب الشّعر، فأيّ

كسرٍ في الإعراب تتحرّك الآذان مباشرةً له، لماذا هنا فيه كسرٌ في الإعراب ولم يقل أحدٌ منهم وهم أساطين اللّغة لماذا كُسر الإعراب؟! لأنّهم فهموا معنى الكسر في الإعراب، هنا بدل قوله: (والمقيمون الصّلاة) قال: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

أ- أوّلاً حرّك الآذان إلى أمرٍ خصوصيّ مهمٍّ وهو الصّلاة.

ب- ثانيّاً هنا النّصب على الاختصاص، بمعنى وأخصّ الصّلاة، يخصّها لأنّها عمود الدّين من أقامها فقد أقام الدّين؛ ولأنّ فيها كلّ أركان الإسلام؛ ففيها الحجّ بالاتّجاه إلى الكعبة، وفيها الصّوم عن الكلام غير الكلام في كتاب الله ﷻ، وعن الطّعام والشّراب، وفيها الزّكاة؛ لأنّ أصل الزّكاة هو العمل، وأصل العمل الوقت، والصّلاة فيها اقتطاع جزءٍ من الوقت، وفيها الشّهادتان.

ثمّ تابع: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ واو العطف، كلّها جاءت هنا كفاعل: المؤتون، المؤمنون، إلّا الصّلاة، قال:المقيمين؛ لأنّ الله ﷻ خصّها فهي عماد الدّين.

الآية (١٦٣): ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

﴿إِنَّآ﴾: تأتي في القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ﴾ و﴿إِنَّنِى﴾ و﴿نَحْنُ﴾ ، قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: الآية ٩]، نون العظمة وجمع كلّ الصّفات، لا يقول إنّني إلّا في التّوحيد: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: الآية ١٤].

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ﴾: المعنى اللّغوي للوحي هو إعلامٌ بخفاءٍ، أمّا المعنى الاصطلاحيّ: إعلامٌ بخفاءٍ من قبل الملائكة، والله ﷻ يوحي لمن يشاء، فيوحي إلى الرّسل عليهم السلام عن طريق جبريل عليه السلام، ويوحي إلى الجماد وإلى الأرض.. عن طريق الملائكة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ [الزّلزلة: الآية ١-٣]،

إعلامٌ بخفاءٍ، أيضاً بالنّسبة للنّحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النّحل: الآية ٦٨]، ويجب أن نفرّق بين المعاني الشّرعيّة والمعاني اللّغويّة، فالمعنى الشّرعيّ شيءٌ والمعنى اللّغويّ شيءٌ آخر، مثال عند قولنا الصّلاة، ففي المعنى اللّغويّ الدّعاء، وفي المعنى الشّرعيّ هي الصّلاة بأركانها وشروطها الّتي حدّدها المصطفى:، وبالشّكل الّذي نقيمها فيه. في أحد المرّات دخل حذيفة رضي الله عنه على سيّدنا عمر رضي الله عنه، فقال له سيّدنا عمر: «يا حذيفة كيف أصبحت؟»، فقال حُذيفة: «أصبحت أحبّ الفتنة، وأكره الحقّ، وأصلّي من دون وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السّماء»، فتعجّب سيّدنا عمر من هذا القول، -هذا لغةً- فدخل الإمام عليّ كرّم الله وجهه، فقال عمر: «يا أبا الحسن، اسمع ما يقول حذيفة» -وكان مُغضباً- فقال الإمام عليّ كرّم الله وجهه: «ماذا تقول يا حذيفة لعمر؟»، فقال: «سألني: كيف أصبحت يا حذيفة؟ فقلت: أحبّ الفتنة وأكره الحقّ وأصلّي من غير وضوء ولي في الأرض ما ليس لله في السّماء»، فضحك سيّدنا الإمام عليّ كرّم الله وجهه فقال: «على رسلك يا أبا حفص على رسلك يا عمر»، فقال له عمر: «ما هذا القول؟»، فقال له: يقول أنّه يحبّ الفتنة والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التّغابن: الآية ١٥]، يحبّ ماله وأولاده وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، وأمّا قوله: أكره الحقّ، فقال الإمام عليّ: الموت حقٌّ، ومن منّا لا يكره الموت، ويصلّي من غير وضوءٍ، هي الصّلاة على سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، (اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمّد وآله وصحبه) وله في الأرض ما ليس لله في السّماء، فله زوجةٌ وله ولدٌ، وليس لله سبحانه وتعالى زوجةٌ وولدٌ، فضحك عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وقال: «أصبت يا أبا الحسن، لقد أزلت ما في قلبي على حذيفة»، هذا الفارق ما بين المعاني اللّغويّة والمعاني الاصطلاحيّة، يأتي بالمعنى اللّغويّ شيءٌ وبالمعنى الشّرعيّ شيءٌ آخر.

﴿ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾: لماذا بدأ بنوحٍ عليه السلام ولم يبدأ بآدم عليه السلام وهو رسولٌ وقد أوحي إليه؟ عندما أهبط الله سبحانه وتعالى آدم وحوّاء إلى الدّنيا: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: الآية ١٢٣]، هناك وحيٌ لسيّدنا آدم عليه السلام ومع ذلك بدأ الله سبحانه وتعالى بنوحٍ عليه السلام، ولم يبدأ بآدم عليه السلام هنا.

بدأ بنوحٍ عليه السلام لأنّه طرأ على أمّته، أي كانت الأمّة والنّاس موجودين وجاء نوحٌ طارئاً عليهم، وهم في حالةٍ من الوثنيّة والشّرك والفساد، هو طرأ على أمّته ككلّ الأنبياء عليهم السلام، طرأوا على أممهم إلّا آدم عليه السلام فإنّ أمّته طرأت عليه؛ لأنّه أوّل إنسانٍ نزل، وبعده جاء الأولاد و...، هناك فارقٌ بين أن يكون الأمر والوحي لنوحٍ عليه السلام والوحي لآدم عليه السلام؛ لأنّ آدم كان هو المثل الّذي لا مثل غيره في الدّنيا، أمّا نوح فكان النّاس موجودين، القياس هنا قياسٌ مع سيّدنا نوحٍ عليه السلام وليس مع سيّدنا آدم عليه السلام، انظروا لدقّة القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النّساء: الآية ٨٢]، فلو أنّ إنساناً كتبه كان سيبدأ بآدم عليه السلام وليس بنوحٍ عليه السلام، ويُقاس النّبيّ ﷺ بالأنبياء الّذين جاؤوا وكان هناك أممٌ مشركةٌ وعلى ضلالٍ، فجاء ليصحّح لهم ولينذرهم وليبشّرهم، أمّا آدم عليه السلام فجاء ولم يكن هناك أناسٌ، فجاء الوحي ليبيّن الطّريق لمن يأتي من بعده، فاختلف الأمر، لذلك القياس يكون على سيّدنا نوح عليه السلام.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: لم يحدّد من هم؛ لأنّ هناك أنبياء كُثُر.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ﴾: إسماعيل هو ابن سيّدنا إبراهيم وكذلك إسحاق، وبعد ذلك يعقوب وهو إسرائيل، وهو ابن إسحاق ووالد يوسف، وجدّه إبراهيم، ومن يعقوب جاء الأسباط؛ يوسف وإخوته، وبعد ذلك أتى منهم عيسى وأيّوب ويونس وهارون، لم يذكر موسى، ذكر فقط بعض الأنبياء وهارون أخو موسى، فكلّهم من نسل إبراهيم عليه السلام، فاختصّ بنسل سيّدنا إبراهيم عليه السلام؛ لأنّ النّبيّ ﷺ هو من نسل إبراهيم عليه السلام.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: لماذا اختصّ داود عليه السلام ولم يقل: آتينا عيسى الإنجيل، أو هارون التّوراة؟ لأنّ الزّبور هو الوحيد الّذي يشترك فيه كلّ الأنبياء، فلم يكن فيه شريعةٌ للنّاس، وإنّما ذكرٌ لله ﷻ وهذا يتّفق مع كلّ الرّسالات

السّماويّة من دون استثناء، لو انتبهنا إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۖ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: الآية ١٠١-١٠٧]، نجد ترنيمة داود وبشارة عيسى ودعوة إبراهيم فكان داود دائماً عندما يذكر الله ﷻ يذكر محمّداً ﷺ لذلك أتت هنا: الزّبور في نهاية الآية.

الآية (١٦٤): ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾

انظر لعظمة القرآن الكريم، أتى بمعظم نسل سيّدنا إبراهيم عليه السلام، معظمهم، فهو لم يذكر زكريّا عليه السلام، وقال: هارون، ولم يقل: موسى، ممّا يثير تساؤلاً، فهارون أتى على رسالة موسى عليه السلام الّذي طلب من الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه: الآية ٢٥-٣٥]، يستغرب الإنسان يُذكر هارون ولا يُذكر موسى، لكن لو تابعنا الآية الّتي تليها علمنا السّبب.

﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾: أي ذكرناهم لك مثل زكريّا لكن الآن لم نذكر اسمهم.

﴿وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾: فهناك الكثير من الرّسل والأنبياء عليهم السلام لم يأت الله ﷻ على ذكرهم في القرآن الكريم.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾: سيّدنا موسى عليه السلام تمّ الوحي إليه بطريقين:

الأوّل: الإعلام بخفاءٍ عن طريق الملائكة. و**الطّريق الثّاني** الّذي اختصّه الله ﷻ وهو أنّه كلّمه تكليماً.

بقيّة الأنبياء عليهم السلام لم يكلّمهم الله ﷻ، ففي سورة (طه): ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: الآية ١٠-٢٤]، الوحي هنا تكليمٌ، وعندما نتحدّث عن الله ﷻ لا نضع صفاته الّتي يشترك فيها النّاس، مثال: الله ﷻ قويٌّ وأنت قويٌّ، لا تقل: قوّتي كقوّة الله ﷻ، أنت حيٌّ والله ﷻ حيٌّ لا يموت، أمّا أنت فتموت، فلا تقل إنّني حيٌّ كالله ﷻ، لا تقول بأنّني عزيزٌ كالله ﷻ لا يجوز التّشبيه أبداً، دائماً نضع مع الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشّورى: من الآية ١١]، فسبحان الله عن أن يكون له شريكٌ أو ندٌّ أو أيّ مثيلٍ وشبيهٍ في أقواله وصفاته وأفعاله، فمثلاً: إن أعدّ مختار القرية مائدةً للنّاس، أو أعدّها محافظ المدينة، أو الوزير فستنسب المائدة إلى الشّخص الّذي أعدّها فهذا محافظٌ وهذا وزيرٌ... وستختلف باختلاف معدّها، فكيف إن كنت تتحدّث عن الله ﷻ الّذي يجمع صفات الكمال والجمال والتي لا حدود لها؟! فدائماً نزّه الله ﷻ عن التّشبيه، فعندما تكلّم الله ﷻ فكيف تكلّم؟ هل تكلّم باللّغة؟ نحن نتكلّم من خلال اللّسان ومن خلال الصّوت، فهل تكلّم من خلال الصّوت؟ فنقول: سبحان الله.

الآيـة (١٦٥): ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

وظيفـة الرّسـل تبشـير النّـاس بالثّـواب وإنذارهـم بالعقـاب، وبيـان الطّريـق لهم، هـذا هـو واجبهـم عليهم السلام، وهـو الأسـاس في رسـالات المرسـلين والأنبيـاء عليهم السلام.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾: فلا تجريم إلّا بالنّصّ.

الآيـة (١٦٦): ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

لأنّ اليهود كانوا يحاجّون النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى لم يقل فقط أوحينا إليك وأوحينا إلى النّبيين وذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط... إلخ، لكنّه سبحانه وتعالى قال:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾: الله سبحانه وتعالى يشـهد بـما أنـزل إليـك، فقـد أنـزل إليـك القـرآن الكريـم وحيـاً مـن عنـده سبحانه وتعالى عـن طريـق جبريـل عليه السلام.

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ﴾: بأمـره؛ أي القـرآن الكريـم وهـو كلام الله سبحانه وتعالى وصفـةٌ مـن صفاتـه جـلّ وعلا.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ﴾: إيّـاك أن تعتقـد أنّ هناك اسـتدراكاً عـلى الله سبحانه وتعالى أي إن لم تصـدّق أنّ الله سبحانه وتعالى يشـهد فالملائكـة تشـهد، لا، هذه ليسـت كما للبشر.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾: بـيّن لـك أنّـه يكفـي به -بلا شـكٍّ- شـهيداً، لكـن الملائكة يشـهدون بأنّهـم هـم طريقٌ لإنـزال الوحـي على قلب الرّسـل عليهم السلام.

الآية(١٦٧): ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: أي سـتروا وجـود الله سبحانه وتعالى، كـما قلنـا الكافـر في التّعريـف اللّغـويّ والاصطلاحيّ الشّرعيّ؛ هو الإنسـان الّذي سـتر وجـود الله سبحانه وتعالى أي لا يؤمن بوجـود إلـهٍ خالـقٍ للبـشر والكون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: لهم مشكلتان:

الأولى: بأنّهم ستروا وجود الله ﷻ.

الثّانية: أضلّوا غيرهم بأنّهم صدّوا عن سبيل الله ﷻ.

﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: لأنّ البعد بينهم وبين المصدر بُعدٌ زمنيٌّ، مسافةٌ طويلةٌ، فالضّلال يصل للأبناء والأحفاد والأجيال الآتية، لذلك قد ضلّوا ضلالاً بعيداً، فهم لم يكتفوا بأنّهم كفروا وستروا وجود الله ﷻ، بل أيضاً أضلّوا غيرهم ومنعوا النّاس عن السّير في سبيل الله ﷻ.

الآية (١٦٨): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾

لا تقل الله ﷻ لم يهدني ولم يعطني الطّريق ولا يغفر لي، فالّذين ستروا وجود الله ﷻ وظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم بكفرهم منع الله ﷻ الهداية عنهم ولم يعنهم عليها.

الآية (١٦٩): ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

إلّا طريقاً واحداً هم الّذين اختاروه وليس الله ﷻ الّذي أخذهم إليه، اختاروه بكفرهم وبظلمهم، والله ﷻ عندما يتحدّث عن الظّلم يقول في الحديث القدسيّ: «يا عبادي إنّي حرمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا»[1]، والنّبيّ ﷺ قال: «ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السّماء، ويقول الرّبّ ﷻ: وعزّتي لأنصرنّك ولو بعد حين»[2]، قضيّة الظّلم هي قضيّةٌ كبيرةٌ جدّاً، والظّلم يعني إنهاء وإبعاد الإنسان عن حقّه.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآدب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب صفة الجنّة، باب صفة الجنّة ونعيمها، الحديث رقم (٢٥٢٦).

الآية (١٧٠): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ﴾: قد جاءكم محمّداً ﷺ بالإسلام الّذي ارتضاه الله ﷻ لعباده ديناً.

﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾: فصدِّقوه، وصدّقوا بما جاءكم به من عند ربّكم من الدّين، فإنّ الإيمان بذلك خيرٌ لكم من الكفر به.

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: وإن تجحدوا رسالتَه وتكذّبوا بما جاءكم به من عند ربكم، فإنّ جحودكم ذلك وتكذيبكم به، لن يضرَّ غيركم، ومكروهُ ذلك عائدٌ عليكم، وذلك أنّ لله ﷻ ما في السّماوات والأرض، ملكاً وخلقاً، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من أمره، وعصيانكم إيّاه فيما عصيتموه فيه، من ملكه وسلطانه شيئاً.

الآية (١٧١): ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

الغلو: هو الخروج عن حدّ الاعتدال بالحكم، ودين الإسلام دين وسطيّةٍ يرفض الغلو والتّشدّد في الأحكام، والوسطيّة هي الاعتدال وليست الوقوف في الوسط بين الحقّ والباطل، الوسطيّة هي اليسر في الأحكام والاعتدال فيها وعدم الغلوّ لذلك قال النّبيّ ﷺ: «هلك المتنطّعون»، قالها ثلاثاً[1].

هنا تكريمٌ للسّيّد المسيح عليه السلام، ففي عقيدتنا نقول بأنّه رسولٌ من الله ﷻ،

(١) صحيح مسلم: كتاب العلم، باب هلك المتنطّعون، الحديث رقم (٢٦٧٠)، المتنطّعون: أي المتعمّقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وقد بيّن الله تعالى مكانة السّيّد المسيح عليه السلام بمعجزةٍ، وهي ولادته من غير أب فقال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]، خلق الله ﷻ آدم عليه السلام من عدم، قال ﷻ: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: الآية ٥١]، نحن لم نشهد الخلق الأوّل خلْق آدم عليه السلام الّذي خُلِق من دون أبٍ وأمٍّ، خلقه الله ﷻ من ترابٍ كما جاء في آياتٍ متعدّدةٍ في القرآن الكريم، لذلك عندما تحدّث ﷻ عن عيسى عليه السلام وضربَ المثل ضربه بآدم عليه السلام.

نحن لم نشهد ذلك، لكن عندما جاء العلم شهدنا نقض عمليّة الحياة بالموت، فعند موت الإنسان تكون النهاية عكس البدايات، أوّلاً تخرج منه الرّوح ومن ثمّ يتصلّب جسمه ويصبح صلصالاً، وبعدها يصبح كالطّين ثمّ يتحلّل إلى التّراب، والله ﷻ يقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: الآية ٥٥]، أي خلقناكم من تراب الأرض، ويقول جلّ وعلا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: من الآية ٣٠]، ومع تقدّم العلم وجدوا أنّ ستّين بالمئة من جسم الإنسان ماء، فنسبة الماء في الدّم ثمانون بالمئة منه وكذلك في العضلات، أمّا في العظام فنسبته عشرون بالمئة، وفي الدماغ خمسٌ وثمانون بالمئة، وثبت علميّاً أيضاً أنّ مركّبات الأرض الّتي منها خلقنا والّتي يعود إليها الإنسان هي ذات مركّبات الإنسان؛ أوكسجين وكربون وهيدروجين وكلور وكبريت وكالسيوم وفوسفور وبوتاسيوم وصوديوم وحديد ويود ومنغنيز.. المهمّ بأنّ الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: الآية ٥٩]، هناك نفخٌ من روح الله ﷻ وهناك كلمة ﴿كُن﴾، عندما جاء سيّدنا جبريل عليه السلام إلى السّيّدة مريم قالت: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: الآية ٢٠-٢١]، أمراً مقضيّاً بكلمة: ﴿كُن﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: **الكلمة** التي أُلقيت هي ﴿كُن﴾، فكان بقدرة الله ﷻ، **والرّوح** هو النّفخ الّذي جاء به جبريل عليه السلام.

الآية (١٧٢): ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

الحديث هنا عن العبوديّة لله ﷻ ويفتخر السّيّد المسيح والملائكة والرّسل والخلق جميعاً بنسبتهم إلى العبودية لله ﷻ.

العبوديّة لله ﷻ على عكس العبوديّة للبشر، الّتي هي مذمومةٌ لدينا، فالله ﷻ عندما يريد تكريم خلق من خلقه ينسب العبوديّة إليه؛ لأنّ العبودية لله عطاءٌ، فالله ﷻ عزيز مستغنٍ عن عبادة خلقه، وفي الحديث القدسيّ: «يا عبادي، إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك ممّا عندي إلّا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، يا عبادي، إنّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثمّ أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه»[1]، العبوديّة لله ﷻ عزٌّ، فعندما أراد الله ﷻ أن يكرّم النّبيّ محمّداً: أكمل له صفة العبوديّة فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: الآية ١]، لم يقل سبحان الّذي أسرى برسوله، ولا سبحان الّذي أسرى بنبيّه، ولا سبحان الّذي أسرى بمحمّدٍ، وإنّما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ

(١) صحيح مسلم: كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، الحديث رقم (٢٥٧٧).

﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾؛ لأنّ العبوديّة لله ﷻ هي عطاءٌ تامٌّ منه ﷻ:

حسب نفسي عزّاً بأنّي عبدٌ ... يحتفي بي بلا مواعيد ربّ

هو في قدسه الأعزّ ولكن ... أنا ألقاه متى وأين أحبّ

﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾: لا يمكن لأحدٍ أن يتأبّى على الحشر يوم القيامة، يوم يجمع الله ﷻ الخلائق في ذلك اليوم الموعود، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشّعراء: ٨٨-٨٩]، عندما يتحدّث المولى ﷻ عن نبيٍّ من أنبيائه، أو عن رسولٍ من رسله، كما قال ﷻ عن النّبيّ ﷺ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، يصفه بصفة العبوديّة، فتمام العبوديّة لله ﷻ هي أرقى وأعلى منزلةً عنده ﷻ، وأكثر النّاس وأكثر الخلق على الإطلاق عطاءً من الله: مَن أتمّ هذه الصّفة، وكما قلنا الفعل دائماً يُنسب إلى الفاعل، فلا يمكن أن أنسب الفعل إلى الله ﷻ وأقيس على فعل البشر فهذا قياسٌ فاسدٌ ولا يستقيم.

الآية (١٧٣): ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾

والضّدُّ يُظهِر حُسنَه الضّدُّ، الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وبالمقابل الّذين كفروا واستكبروا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾: الأجر على قدر العمل، لكنّه ﷻ يزيدهم من فضله، والفضل فوق العدل، وقال النّبيّ ﷺ: «لا يدخل أحدكم الجنّة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله منه برحمة وفضل»[1]، رحمة الله ﷻ هي فضلٌ فوق العدل، العدل عن العمل والفضل من رحمة الله ﷻ.

(١) مسند أحمد بن حنبل: مسند أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث رقم (٧٤٧٣).

والإيمان يحتاج إلى ترجمة، أي إلى عملٍ صالحٍ، فالإيمان دون عملٍ صالحٍ لا يُعدّ إيماناً، قال النّبيّ ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون، أو بضعٌ وستّون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق»[1]، حتّى إماطة الأذى عن الطّريق هي شعبةٌ من شعب الإيمان، وقال ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة»[2]، ويقول النّبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»[3]، ويقول ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانَ وجاره جائعٌ إلى جنبه وهو يعلم به»[4]، فعناصر الإيمان كثيرةٌ كما بيّن المصطفى ﷺ، كلّها من خلال الأعمال الصّالحة، فلا إيمان بالقلب من دون أن يصدّقه العمل.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: لأنّ عدم العبادة لله ﷻ هي استكبار.

﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: في ذلك اليوم لن تجد من نصيرٍ ولا وليّ لك، في ذلك اليوم الموعود ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: الآية ٣٤-٣٧]، الإنسان في ذلك الموقف العظيم المهيب لا يكون له وليٌّ ولا نصيرٌ. عندما تحدّث الله ﷻ عن اليهود وما فعلوه مع النّبيّ ﷺ وما فعلوه أيضاً مع السّيّد المسيح عليه السلام ومع السّيّدة مريم، وما يفعلونه اليوم من تدنيس القدس والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، فهم عبر تاريخهم الطّويل كالجراثيم المرضة للبشريّة، ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: الآية ٧٨]، يعتقدون أنّ بإمكانهم تزوير التّاريخ والوقائع والحقائق وتجاوز الرّسالات السّماويّة من خلال إعلانهم القدس عاصمةً لهم، ونحن نؤمن بوعد الله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: من الآية ٧].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، الحديث رقم (٣٥).

(٢) سنن التّرمذيّ: كتاب البرّ والصّلة، باب صنائع المعروف، الحديث رقم (١٩٥٦).

(٣) صحيح البخاريّ: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، الحديث رقم (١٣).

(٤) المعجم الكبير للطّبرانيّ: باب الألف، أنس بن مالك الأنصاريّ، الحديث رقم (٧٥١).

الآية (١٧٤): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾

الخطاب الآن للبشريّة جمعاء، الرّسالات السّماويّة السّابقة كانت تأتي لمناطق وأقوامٍ منفصلةٍ، حيث لا يوجد طرق اتّصال ولا مواصلات، فلا يعلم قومٌ عن قومٍ شيئاً، ينزل نبيٌّ هنا ونبيٌّ هناك، والأدواء متّعددةٌ لذلك كان الرّسل عليهم السلام ينزلون بعلاجاتٍ متعدّدةٍ للأقوام حتّى أنزل الله سبحانه وتعالى رسالة الإسلام على النبيّ محمّدٍ ﷺ للنّاس جميعاً؛ لأنّ البشريّة قد اكتمل رُشدها، وبدأت بالتّطوّر العلميّ، فأصبح العالم كلّه كبقعةٍ واحدةٍ، وطرق المواصلات مؤمّنةٌ بينه، فكان الخطاب موجّهاً للنّاس جميعاً، وكأنّ الإسلام سبق العالم.

﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ﴾: البرهان هو الإعجاز الدّال على صدق المبلّغ عن الله سبحانه وتعالى، فكلّ نبيٍّ جاء معه إعجازٌ دالٌّ على صدق بلاغه عن الله سبحانه وتعالى، مثال نوح عليه السلام كانت السّفينة هي المعجزة الّتي أنجت من ركب فيها وغرق كلّ من لم يركب فيها من البشريّة، صالح عليه السلام كانت معجزته النّاقة، سيّدنا إبراهيم عليه السلام لم تحرقه النّيران عندما ألقي فيها؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أفقدها خاصّيتها، موسى عليه السلام من معجزاته العصا كان يضرب بها الحجر فينفجر وضرب بها البحر فانفلق، ليست القضيّة قضيّة عصى وإنّما هي قضيّة معجزةٍ وهذا معنى برهان، البرهان: هو الإعجاز الدّينيّ الدّالّ على صدق الرّسل عن بلاغهم عن الله سبحانه وتعالى، فدائماً يأتي رسولٌ ومعه معجزةٌ مؤيّدةٌ لرسالته، سيّدنا المسيح عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله سبحانه وتعالى ويبرئ الأكمه والأبرص ويشفي المرضى، سيّدنا داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ: الآية ١٠]، فكلّ نبيٍّ يأتي معه إعجازٌ وبرهانٌ بأنّه مبلّغٌ عن الله سبحانه وتعالى، ويأتي معه منهجٌ، الإنجيل مع عيسى عليه السلام والتّوراة مع موسى عليه السلام والصّحف مع إبراهيم عليه السلام، والزّبور مع داود عليه السلام، هذه المعجزات كانت تنتهي عند موت النّبيّ الّذي كان موجوداً في ذلك الزّمن، أمّا الرّسول الخاتم ﷺ القائل: «لا نبيّ بعدي»[1]، المعجزة يجب أن تبقى حتّى ولو مات، فجاء: ببرهانٍ وهو معجزةٌ دائمةٌ وهي القرآن الكريم.

---

(١) صحيح البخاريّ: كتاب الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، الحديث رقم (٣٢٦٨).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾: النّور هو الّذي يظهر الطّريق للسّالكين، فبالظّلمة لا ترى الطّريق، ونجد في القرآن الكريم الإعجاز والدّليل والبرهان، وهو خالدٌ بخلود الدّهر، قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: الآية ٩].

الآية (١٧٥): ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝١٧٥﴾

أي الّذين آمنوا وتمسّكوا واستمسكوا بهذا القرآن الكريم، بهذا النّور، بهذه الهداية، سيدخلون برحمات الله ﷻ وعطائه وفضله ﷻ، وسيزيدهم في الهداية، كما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمّد: الآية ١٧].

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: ويهديهم الصّراط المستقيم، هذا الصّراط الّذي يؤدّي إلى الجنّة بإذن الله تبارك وتعالى.

الآية (١٧٦): ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٧٦﴾

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: هي إرادة معرفة حكمٍ شرعيٍّ، وقد ورد في القرآن الكريم بطريقين:

١- يستفتونك كهذه الآية، أي يسألون عن حكمٍ شرعيٍّ.

٢- وتأتي: يسألونك، وهي إمّا أن تأتي لمعرفة حكمٍ شرعيٍّ أو غير حكمٍ شرعيٍّ، كقوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: من الآية ١٨٩]، سألوه: ما بال الهلال يا محمّد يبدو صغيراً ثمّ يكبر ثمّ يعود صغيراً؟ فهذا ليس حكماً شرعيّاً.

لكن عندما يأتي السّؤال ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ فهي إرادة معرفة حكمٍ شرعيٍّ، لذلك عندما يعطي الإنسان فتوى فإنّه يعطيها نيابةً عمّا جاء من أحكامٍ شرعيّةٍ، وليس هو من يعطي الحكم، وإنّما يبيّن الحكم الشّرعيّ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾: أي يعطيكم العلم بالحكم الشرعيّ في الكلالة. والكلالة تعني من ليس له أبٌ -أي متوفّى- ولا ولدٌ، فجاءت كلمة الكلالة من الإكليل المحيط بالرأس، أي الأقارب المحيطين، فمن ليس له أصلٌ (أبٌ) ولا فرعٌ (ابنٌ)، فما هو الحكم بالنّسبة للمواريث إن كان له أقرباء؟

﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾: أي مات، وليس له والدٌ ولا ولدٌ وله أختٌ فلها نصف ما ترك.

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾: الأخ يرث أخته إن لم يكن لها ولدٌ.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾: كانتا أختين فلهما الثّلثان ممّا ترك.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾: يقسّم للذّكر مثل حظّ الأنثيين. ذكرت في بداية سورة (النّساء) بأنّهم يقفون عند هذا النّصّ، ويقولون الإسلام فرّق بين الذّكر والأنثى، نحن نقول هناك أكثر من ثلاثين حُكماً شرعيّاً بالنّسبة لتوزيع الأنصبة للمواريث تأخذ فيها المرأة مثل الرّجل، أو أنّ المرأة تأخذ أكثر منه، ففي هذه الحالة لو تمّ الحساب، الأخت لها النّصف وهي امرأة، يجب النّظر للموضوع من كلّ جوانبه لتدرك أنّ المرأة لم تُنصَف في أيّ شريعةٍ أو قانونٍ في العالم كما أنصفها القرآن الكريم، وكما أنصفها الله ﷻ هنا تعدّد مواريث في تعدّد مسائل إرثيّة تأتي حالة من الحالات كهذه الحالة هنا، عندما يكون قد ترك إخوةً متّعددين رجالاً ونساءً فإن كانتا اثنتين فلهما الثّلثان، وإن كانت واحدةً فلها النّصف.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾: الضّلال هو عدم السّير على الطّريق الصّحيح، أن تضلّ الطّريق أي تخطئ الطّريق، فالله ﷻ يبيّن لنا لكيلا نخطئ في حسابات الميراث وحقوق الورثة.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾: طالما أنّ الله ﷻ هو العليم، الحكيم، العزيز، الخالق، فعلى المخلوق أن يمتثل لأوامر الخالق جلّ وعلا.

تمّ بفضل اللّه تعالى تفسير سورة النساء

الحمدُ لله عَلى مَا أَنْعَمَ بِهِ علينا مِن نِعَمِه العَظيمةِ، وآلائِهِ الجَسيمَةِ، حيثُ أَنزلَ إلينا خَيرَ كُتُبِهِ، وأَرْسَلَ إلينَا أَفضَلَ رُسُلِهِ، وشَرَعَ لَنا أَعظَمَ شَرائِع دِينِه، وجَعَلَنا مِن خَير أُمَّةٍ أُخْرِجَت لِلنّاسِ، وهَدانَا لِمَعَالِم دِينِهِ الذي لَيسَ بِهِ التِبَاس.

اللَّهمَّ ذكِّرْنَا مِن القُرْآنِ مَا نُسِّينَا، وعَلِّمْنَا منْهُ مَا جَهِلْنَا، وارزُقْنَا تِلاوَتَهُ آنَاءَ اللَّيلِ وَأَطْرَافَ النَّهارِ عَلَى النَّحْوِ الذي يُرضِيكَ عَنَّا.

اللَّهمَّ أَلْبِسْنَا بِهِ الحُلَلَ، وأَسْكِنَّا بِهِ الظُّلَلَ، وادْفَعْ بِهِ عَنَّا النِّقَمَ، وزِدْنَا بِهِ مِنَ النِّعَمِ يا ذا الجَلالِ وَالإكْرام.

سُبحانَ ربِّك رَبِّ العزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وسَلامٌ عَلى المُرْسَلِينَ، والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين.

الفهرس

تفسير سورة النساء ٧

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ ٨

٢- ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ ١١

٣- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾ ١٢

٤- ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ ١٥

٥- ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ ١٥

٦- ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ ١٦

٧- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ ١٧

٨- ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ ١٧

٩- ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ ١٨

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ ١٩

١١- ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ
فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا
ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن
كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا
تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ﴾. ١٩

١٢- ﴿ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ
دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ
وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن
كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا
ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ
وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾. ٢١

١٣- ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾ ٢٢

١٤- ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا
وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ ﴾ ٢٢

١٥- ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعٗا مِّنكُمۡۖ فَإِن
شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾ ٢٢

١٦- ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ ٢٣

١٧- ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ ﴾ ٢٤

١٨- ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي
تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾.. ٢٤

١٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ
بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن
كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ ﴾.... ٢٥

٢٠- ﴿ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا
تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ ﴾..... ٢٦

٢١- ﴿ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم
مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ ﴾..... ٢٧

٢٢- ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ
كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾..... ٢٨

٢٣- ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ
وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم
مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم
مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ
بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ ﴾..... ٢٩

٢٤- ﴿ ۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ
لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم
بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ
بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ ﴾..... ٣١

٢٥- ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ
بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ
أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ
ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ ﴾ ٣٣

٢٦- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ ٣٤

٢٧- ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ ٣٥

٢٨- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ ٣٦

٢٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ ٣٧

٣٠- ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ ٤٢

٣١- ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ ٤٣

٣٢- ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾ ٤٤

٣٣- ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾ . ٤٥

٣٤- ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ ٤٦

٣٥- ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ ٤٩

٣٦- ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .. ٥٠

٣٧- ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ ٥٩

٣٨- ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ
وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾ ٦١

٣٩- ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ٦٣

٤٠- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ٦٤

٤١- ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ ٦٦

٤٢- ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ ٦٧

٤٣- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ
وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ
أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا
فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ٦٧

٤٤- ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ٦٩

٤٥- ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ ٧٠

٤٦- ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ
غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ
وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ .. ٧٠

٤٧- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا
فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ ٧٢

٤٨- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ
ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ٧٣

٤٩- ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ .. ٧٤

٥٠- ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ٧٥

٥١- ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ٧٥

٥٢- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢﴾ ٧٧

٥٣- ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣﴾ ٧٧

٥٤- ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ ٧٩

٥٥- ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ٥٥﴾ ٨١

٥٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا
غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ ٨٢

٥٧- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ ٨٣

٥٨- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ
بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ ٨٤

٥٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ
إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ ... ٨٨

٦٠- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ
يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ
أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ ٩٣

٦١- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ ٩٤

٦٢- ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ
بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾ ٩٥

٦٣- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل
لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ ٩٦

٦٤- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا
رَّحِيمٗا ٦٤﴾ ٩٨

٦٥- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ ١٠٠
٦٦- ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا
قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ ﴾ ١٠١
٦٧- ﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ١٠٢
٦٨- ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ ١٠٢
٦٩- ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ
وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ ١٠٢
٧٠- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ ١٠٣
٧١- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ ١٠٤
٧٢- ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ۖ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ١٠٤
٧٣- ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى
كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ ١٠٤
٧٤- ﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ ١١٠
٧٥- ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا
مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ ١١١
٧٦- ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ ١١١
٧٧- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ
عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ ١١٣

٧٨- ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ ١١٤
٧٩- ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ ١١٧
٨٠- ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ . ١١٧
٨١- ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ
وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ ١٢٠
٨٢- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ١٢٠
٨٣- ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ
أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ ١٢٦
٨٤- ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ ١٣٣
٨٥- ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ
كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ ١٣٣
٨٦- ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ ١٣٥
٨٧- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ ١٣٦
٨٨- ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ
أَضَلَّ ٱللَّهُ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ ١٣٧
٨٩- ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾ . ١٣٨
٩٠- ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن
يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ
يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ ١٤١

٩١- ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ
أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ
وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾.... ١٤١

٩٢- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ
رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن
قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ
بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ
مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾﴾..... ١٤٢

٩٣- ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾..... ١٤٤

٩٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ
إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ
مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾..... ١٤٤

٩٥- ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾﴾..... ١٤٥

٩٦- ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾..... ١٤٧

٩٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ
قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ ١٤٧

٩٨- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾﴾ ١٤٩

٩٩- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوّٗا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾..... ١٤٩

١٠٠- ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ ١٤٩
١٠١- ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ ١٥٢
١٠٢- ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟
أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ
لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ
تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ ١٥٦
١٠٣- ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا
ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ ١٥٧
١٠٤- ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ
وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ ١٥٨
١٠٥- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ ١٦٠
١٠٦- ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ ١٦٢
١٠٧- ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ ١٦٣
١٠٨- ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ
مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ ١٦٣
١٠٩- ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ ١٦٤
١١٠- ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ ١٦٤
١١١- ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ ١٦٤
١١٢- ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ ١٦٥

١١٣- ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ ١٦٥
١١٤- ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۢ
بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ ١٦٨
١١٥- ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ ١٦٩
١١٦- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ
فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ ١٦٩
١١٧- ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ ١٧٠
١١٨- ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ ١٧٠
١١٩- ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ
خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ ١٧١
١٢٠- ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ ١٧٢
١٢١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ ١٧٣
١٢٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ ١٧٣
١٢٣- ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا
يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ ١٧٤
١٢٤- ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ
يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ ١٧٥
١٢٥- ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ
حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ ١٧٥
١٢٦- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ ١٧٧

١٢٧- ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي
ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ١٧٧

١٢٨- ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا
بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ١٨٠

١٢٩- ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ .. ١٨٢

١٣٠- ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ... ١٨٣

١٣١- ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن
قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ١٨٤

١٣٢- ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ١٨٤

١٣٣- ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ١٨٤

١٣٤- ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ١٨٥

١٣٥- ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ
ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن
تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ١٨٧

١٣٦- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ١٨٩

١٣٧- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ
لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ ١٩١

١٣٨- ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ١٩١

١٣٩- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ ١٩٢
١٤٠- ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ ١٩٣
١٤١- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ ١٩٣
١٤٢- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ ١٩٦
١٤٣- ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ ١٩٨
١٤٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ ١٩٩
١٤٥- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ ١٩٩
١٤٦- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ ١٩٩
١٤٧- ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ ٢٠٠
١٤٨- ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ ٢٠١
١٤٩- ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ ٢٠٣
١٥٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ ٢٠٣
١٥١- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ ٢٠٥
١٥٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ ٢٠٥

١٥٣- ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾... ٢٠٥
١٥٤- ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى
ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾..... ٢٠٦
١٥٥- ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ
قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾..... ٢٠٧
١٥٦- ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾..... ٢٠٨
١٥٧- ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن
شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾..... ٢٠٩
١٥٨- ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾..... ٢١١
١٥٩- ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ ٢١١
١٦٠- ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾..... ٢١٢
١٦١- ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾..... ٢١٤
١٦٢- ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ
وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾..... ٢١٤
١٦٣- ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ
وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾..... ٢١٥
١٦٤- ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ
ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾..... ٢١٨

١٦٥- ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ ٢٢٠
١٦٦- ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ ٢٢٠
١٦٧- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ ٢٢٠
١٦٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ .. ٢٢١
١٦٩- ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ ٢٢١
١٧٠- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ ٢٢٢
١٧١- ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ ٢٢٢
١٧٢- ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ ٢٢٤
١٧٣- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ ٢٢٥
١٧٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ ٢٢٧
١٧٥- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ ٢٢٨
١٧٦- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ ٢٢٨